حامد عبد الصمد

مصنع السحاب

رواية

مصنع السحاب

رواية

حامد عبد الصمد

إهداء

هناك أشياءُ لا تُهدى...
مثل إرادة الحياة.

"إن الناموس الأزلي لم يعطِنا شيئًا أفضل من أنه أعطانا مدخلًا واحدًا للحياة، في حين وهبنا مخارج كثيرة منها. فهل عليَّ أن أنتظر قسوةَ مرضٍ أو شخصٍ في حين أنني أملك القدرة على الخروج من كل العذابات إلى العراء والتخلص من كل المحن؟ الشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نشتكي بشأنه من الحياة هو: "إن الحياة لا تتشبث بأحد".

- سينيكا

"لا يُمكن أن تُعاش الحياة إلا بالنظر إلى الأمام، ولا يُمكن أن تُفهم إلا بالنظر إلى الوراء"

- سورين كيركيجارد

مقدّمة؛ قابلةٌ للتخطّي، أو الرجوع إليها بعد اكتمال القراءة

قال إنَّ الموت ضيفٌ نادر، يأتي مرةً واحدةً في العمر. محظوظٌ من هو مثلي، يأتيه بطريقة متوقعة لا فجأة، كي يستطيع الترحيب به كما يليق. أحاول أن أكون يقظًا حتى لا يجدني الموتُ نائمًا. حين خُدرت رجلاه قال: لقد ماتت ساقاي، لكنني ما زلت مكتملًا. جسدي فقط يموت، أما وعيي فيبقي حاضرًا. يعلم أن الموت لن يقتلعني من جذوري.

سقراط كان متشوقًا للحياة وللموت. عانق الموت كما عانق الحياة راقصًا رقصة متوحشة تفيض بالزهو.

العالم كله في حالة احتضار مستمرة. حتى هذا الطفل الذي وُلد للتو، مع أول صرخة حياة، انطلقت عقارب موته تتسارع نحو موعدٍ مجهول، لكنه آتٍ لا محالة. كل الأحياء يسيرون في طوابير نحو حتفهم. الفرق فقط في الزمن المتبقي لكلٍّ منهم. منذ الظهور يسير الجميع نحو الاختفاء الذي قد يكون وجهًا معتمًا، لكنه الوجه الوحيد الذي يستطيع أن يميط اللثام عن لغز الحياة.

قد يَمنحُ الموتُ بعضَهم وقتًا كافيًا للاستعداد له، أو يأتي فجأة دون أن يقرع الأبواب. يمكن أن يموت المرء في اليوم ألف مرة. ويمكن لآخر أن يحيا في لحظة الموت كما لم يعش من قبل. ولا تكون الحياة حياةً إلا إذا أدرك الإنسان أنه، هو ذاته، الزائر النادر الذي لا يتكرر حضوره، بينما الموت هو الباقي الأبدي. عندها، سيكون مبذرًا في كل ما يتعلق بأمر الحياة، فلا يتشبث بالأشياء، ولا يبخل بمشاركة الآخرين حبًّا يفيض من قلبه.

كما تشارك الشمعةُ الليل بنورها، والغيمةُ الأرضَ بمائها، كما تمنح الزهرة عبيرها للريح، سيتقاسم ما عنده مع العابرين والماكثين. وحينها، فقط حينها، ستمنحه الحياة ولادة جديدة كل يوم.

***

١

اليابان ٢٠٢٢

حين دخلت هاناكو إلى غرفة الاستقبال التابعة لمكتب خدمات الشركة، كان ضوء الشمس يملأ الغرفة وينعكس على الألواح الزجاجية لطاولة مكتب الاستقبال، فأشاحت بوجهها نحو المقاعد الجلدية السوداء الموزعة في أرجاء الغرفة. لم يخفف من وطأة جرعة الضوء الزائدة إلا برودة هواء المكيف الذي كان يداعبُ وجهها وينعشها، بينما ساهمت النباتات الخضراء المغروسة في أصص سيراميك فاخرة، والتي تقبع في الزوايا بأوراقها السميكة، بتخفيف التوتر الذي يخيم على المكان والذي قد يصيب من اتخذ قرارًا مصيريًّا لا رجعة فيه.

خلف الطاولة، تجلس موظفة الاستقبال بوجهها النحيل الذي لا يخلو من بعض اللطف. تقدمت هاناكو نحوها، وحين أفصحت عن اسمها، رحبت بها الموظفة وطلبت منها الانتظار قليلًا لتتأكد ما إذا كان طلبها جاهزا. توجهت بعدها هاناكو، المرأة الأربعينية بوزنها الذي يزيد على مئة كيلوغرام، بخطوات متثاقلة إلى أقرب مقعد جلدي وجلست فيه ببطء شديد، وضعت يديها على حقيبتها السوداء في حجرها وألقت نظرة خاطفة على باقي المنتظرين. استشفت من وجوه الحضور أنهم يرزحون تحت حملٍ ثقيلٍ ويملؤهم شعورٌ بالملل والحزن الدفين. وأكثر ما لفت انتباهها، وجه المرأة التي تجلس قبالتها وتحدق فيها بنظرات هادئة خالية من أيّ انفعال.

شعرت هاناكو بعدم الارتياح فأطرقت برأسها وألقت نظرة على ثوبها ذي اللون الرمادي الذي يصل إلى منتصف سِمَّانتيها ومسحت عليه براحتيها كأنها تريد إخفاء بعض التجاعيد الصغيرة. ثم رفعت يديها لتعدل غطاء رأسها الأسود وفكرت: لا بُد أن تلك المرأة تتساءل عما تفعله راهبةٌ في هذا المكان. رفعت كتفيها قليلًا بحركة تلقائية، كأنها تتجنب الإجابة عن هذا السؤال الافتراضي الذي قد يخطر بالبال. لم تمض دقائق حتى اقتربت منها موظفة الاستقبال وانحنت لتهمس في أذنها، "نقل البضائع قد تأخر قليلًا"، وأن عليها أن تنتظر نحو ساعة ريثما يصل الطلب. غمغمت هاناكو بكلمات غير مفهومة، وقالت إنها ستنتظر. ثم

نهضت من مكانها وانتقلت إلى المقعد المجاور للنافذة. لطالما أحبت هاناكو النوافذ وشعرت بالامتنان لوجودها، فهي وسيلة التأمل الوحيدة التي رافقتها لسنوات طويلة. تنهدت وتذكرت الشباك الذي نامت أسفله طوال فترة طفولتها ومراهقتها، ولاحت بخاطرها كل تلك الأبواب التي أُغلقت في وجهها عبر السنين.

***

اليابان ١٩٩٢

تناولت هاناكو دلو الماء وغطست فيه قطعة قماش، لتبدأ بمسح حافة الشباك وإزالة ما تجمع من أوراق الشجر التي علقت بحاجبه. رفعت نظرها للأعلى وجالت بعينيها على الأشجار الممتدة لأميال، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، فهي لم ترَ ألوان الخريف بهذا الجمال من قبل ولا تعرف كيف يبدو منظر الخريف بعيدًا عن الغابات المحيطة بها. سيطر عليها شعور بالحزن في ذلك الصباح، ذلك الحزن الغامض الذي ينتابنا ونحن نودع مكانًا لم نعرف قيمته إلا عندما هممنا بالرحيل عنه. قد تكون أشياء بسيطة تكمن في تفاصيل صغيرة، لا نراها إلا عند خسارتها إلى الأبد. رمت قطعة القماش المبللة مرة أخرى في دلو الماء، فتناثرت بعض القطرات على الأرض. ألقت نظرة خاطفة على "الخرقة" التي غرقت في الدلو ثم أدارت رأسها وواصلت النظر إلى خارج النافذة. غالبًا ما تُغرق هاناكو مشاعرها بقطع الحلوى والبسكوت التي تعطيها إياها زميلاتها لقاء مساعدتهن في تنظيف غرفهن، ولكنها لم تكن تريد الاعتراف بالهلع الذي حط بقلبها، ولو أرادت أن تصغي جيدًا إلى مشاعرها، لصرخت: أنتِ خائفة لأنك لا تعرفين كيف ستكون الحياة بعيدًا عن هذا المكان المنعزل.

رغم سذاجتها، عرفت هاناكو ذات الستة عشر عامًا أن شيئًا ما ينقصها، فقصدت مكتب مساعدة المديرة ودقت بيدها على الباب بهدوء كمن يشعر بالخجل مما يفعل. فلما أذنت لها المساعدة بالدخول، وقفت هاناكو أمامها عاقدة يديها أسفل بطنها المكتنز وأخبرتها أنها ستغادر غدًا، وسألتها إن كان هناك ما يجب عليها معرفته عن العالم قبل خروجها من الدار.

أزالت المساعدة الستينية نظارتها عن عينيها ووضعتها فوق الأوراق المتناثرة أمامها وتنهدت كأنها لا تعرف من أين تبدأ. "لا شيء مما أقوله يمكن أن يساعدك في الخارج يا هاناكو، عليكِ أن تختبري الحياة بنفسك كي تعرفي. وحين يحدث ذلك تكون حصيلة معرفتكِ صالحة لك وحدك لأنها كانت على مقاس تجاربك الذاتية"، قالت المديرة وكأنها تتحدث إلى شخص بالغ، ولما رأت أن عيني هاناكو مركزتان على قطعتي "موتشي" فوق صحن صغير على الطاولة، أضافت "أخبروني أنكِ اخترتِ أن تهبي حياتك لخدمة الرب. ربما تجدين في الدير اكتفاءً يحل محل الاكتفاء الذي يمنحك إياه الطعام". استغرق الأمر لحظات كي تصل الإهانة مكتملة الأبعاد إلى هاناكو، وحين وصلت أصابتها كصفعةٍ غير متوقّعة. هزَّت هاناكو رأسها واستأذنت بالخروج، لكن المساعدة ما لبثت أن نادت عليها قائلة "يمكنك أن تأخذي قطعتي الحلوى معك يا هاناكو"، إلا أن هاناكو رفعت يدها شاكرة وأسرعت عائدة إلى غرفتها وهي تقاوم دموعها.

كانت البنات والمعلمات في دار الأيتام يعلمن أن هاناكو ستغادر غدًا، ولكن لم تأت إحداهن، وعلى الرغم من حزنهن لفراق هاناكو، لوداعها أو حتى لتسألها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء. المرض والوداع والموت كلها أشياء يتعاملن معها بحيادية كبيرة تشبه الأمور الروتينية اليومية كتناول الإفطار وارتياد قاعة المحاضرات والقيام بالواجبات. "الاستماع إلى القصص الحزينة والبكاء على الفراق هي رفاهية لا يمتلكها إلا الأشخاص الأقل معاناة والأكثر حظا"، قالت لها الطباخة العجوز "هوشي" كي تهوَّن عليها قبل أن تضع قليلًا من الحساء الذي تطبخه في طبق وتناوله لهاناكو.

"ألا تظنين أنه من الغريب أن تحزن زميلاتك على فراقك وقد فارقن آباءهن وأمهاتهن إلى الأبد منذ سنوات طويلة؟" هزَّت هوشي رأسها المغطى بالقبعة الخاصة بالطباخين، وأضافت "أنا كنت يتيمة هنا قبل أن أُصبح طباخة الدار، وأؤكد لك أن أحدًا في هذا المكان لا يريد أن يفتح بوابات الحزن في داخله يا هاناكو".

أكلت هاناكو وهي تحاول تناسي الإهانة التي تعرضت لها في مكتب المساعدة، ثم وقفت وشكرت هوشي وأخبرتها أنها ستذهب لتحزم أمتعتها.

"هل لديك حقيبة؟" سألتها هوشي وهي تنظر إليها بعينيها اللتين تشبهان حبتي زيتون في صغرهما ولمعانهما. وعندما أجابت هاناكو بالنفي، أطفأت هوشي النار تحت القِدر وقالت لها "اتبعيني". لحقت بها هاناكو في الممر الطويل وراحت تراقب ظهرها المنحني للأمام وساقيها الرفيعتين، فشعرت بغصَّة في حلقها. عندما وصلتا إلى الغرفة الصغيرة ذات السرير الواحد الملتصقة بالجدار، وقفت هاناكو عند الباب تراقب هوشي

التي جثت قرب سريرها وسحبت من تحته صندوقًا خشبيًّا قديمًا. في داخل الصندوق كانت هناك ثياب قديمة وبعض الكتب الصفراء وتماثيل صغيرة من التي يتبادلها الأشخاص في المناسبات كتذكارات. بعد عدة دقائق من التقليب والتفتيش، سحبت هوشي حقيبة قماشية بنية نُقش على جانبها مثلث أزرق.
"هذه الحقيبة التي أتيت بها إلى هنا قبل خمسة وستين عامًا، ولكني أعرف أنني لن أغادر هذا المكان أبدًا، لذلك أريدك أن تحصلي أنت عليها".

اقتربت هاناكو منها وساعدتها على إغلاق الصندوق وإعادته إلى مكانه تحت السرير، ثم جلست بجانبها ولم يكن يبدد الصمت الثقيل سوى صوت أنفاسهما الخافتة.
"قبل سنوات كنت أفكر في الأشياء التي سآخذها معي حين أغادر هذه الدار"، تنهدت هوشي وكأنها قررت أن تحكي عن نفسها فقط، لأنها تعلم أن هاناكو ستغادر في الصباح، وبمغادرة هاناكو ستعود الطباخة العجوز صندوقًا مغلقًا على أحلامه وخيباته من جديد.

"كل ليلة قبل أن أغفو، كنت في خيالي، أحزم أمتعتي، فأضع أشياء في الحقيبة وأخرج منها أشياء أخرى حتى أُنهِي توضيبَ كل حاجياتي، بعدها، أخرج من بوابة الدار وأسلك الطريق إلى منتهاه"، قالت هوشي وهي تحدق في الجدار الفارغ أمامها.
وضعت هاناكو يدها على ركبة هوشي فأحست بعظامها الناتئة. "ألم تخرجي من هنا من قبل؟" سألتها برقة.
هزت هوشي رأسها نافية. "ولا حتى في الخيال، لأنني لم أستطع أن أتخيل ما ينتظرني هناك في نهاية الطريق الفرعي المؤدي إلى هنا".

حضنتها هاناكو وشكرتها على كل السنوات التي أكلت فيها من طبخها ثم ضمت الحقيبة إلى صدرها.
"سأتذكرك دائما"، قالت والدموع تنفر من عينيها. لكن هوشي تحاشت النظر إليها وقالت "الآن اذهبي يا هاناكو وكوني سعيدة، لا تأتي لوداعي في الصباح، لأنني سأغلق بوابات الحزن في داخلي هذه الليلة كما هو حريٌّ بالجميع هنا أن يفعل". علقت هاناكو الحقيبة فوق كتفها وتراجعت خطوتين إلى الوراء وهي ما زالت تمسك بيدي هوشي ثم أفلتت أصابعها وعادت إلى غرفتها وشعورٌ من الألم المختلط بالمرارة يسكن حنجرتها.

عندما فتحت الطباخة العجوز باب غرفتها في السادسة صباحًا وجدت الحقيبة البنيّة معلقة على مقبض الباب مرفقة بملاحظة "إياكِ أن تتوقفي عن الحلم!".

***

"السيدة موريموتو هاناكو"، أيقظها صوت موظفة الاستقبال وأعادها إلى أجواء الغرفة والضوضاء التي تصدر من فتحات المكيف في السقف. وقفت هاناكو وعلقت حقيبتها على كتفها واتجهت إلى الطاولة مجددًا، هناك وقف موظف أنيق ببزة سوداء وقميص أبيض يحمل في يده علبة يغلفها قماش من المخمل الأسود: "هل أنت جاهزة يا سيدة موريموتو؟" سأل الموظف وكأنه يستعد لتأدية خدعة سحرية، ولكن هاناكو لم تكن قد قامت بكل تلك الإجراءات ودفعت أموالًا طائلة لتسأل نفسها ما إذا كانت جاهزة. فهي ببساطة تريد أن تأخذ العلبة وترحل بها بعيدا. لكن عيني الموظف كانتا لا تزالان تبحثان عن إجابتها "نعم جاهزة" قالت باقتضاب. فتح الموظف العلبة ببطء شديد، وفي داخلها ظهر الصليب الكبير ولمعت قطعة ألماس مثبتة في منتصفه تحت الضوء القادم من السقف. شعرت هاناكو أن شيئًا مثل موج البحر تحرك في قلبها وهي تنظر إلى الماسة، أما اللمعة فذكرتها بجبروت الرعد الذي يشق السماء وسط ظلام حالك، وباليوم الأول الذي وصلت فيه إلى الدير، وبابتسامة يوشيدا التي طالما حررتها من موجات الحزن العميق التي كانت تقتحمها مرارا.

***

ركبت "هاناكو" ذات الستة عشر عاما في المقعد الخلفي للسيارة التابعة لدار الأيتام في السابعة صباحًا وبدأت رحلتها برفقة السائق إلى الدير التابع للكنيسة في أحضان الجبل. خُيل لها أن الطريق غير متناهية وهما يمرَّان على بيوت متناثرة، ثم غابات، ثم مزارع وبعدها بيوت من جديد. فكرت في حيوات الأفراد الذين يعيشون داخل تلك البيوت وفي علاقاتهم وجلساتهم المسائية، لكنها لم تستطع أن تتخيل أيًّا من تلك الأمور التي لم تعرفها في حياتها. نامت قليلًا ثم استيقظت مذعورة لتجد أن السيارة بدأت بالصعود في طريق

متعرج وضيقٍ تصطف على جانبيه أشجار سرو طويلة متناسقة. بعد رحلة دامت عدة ساعات، وصلت هاناكو إلى الدير، ترجَّلت من المقعد الخلفي متأبطةً صندوقًا من الكرتون المقوى يحتوي على فستانَين متواضعَين وخُفٍّ ومشط، كان هذا كل ما امتلكته طوال الحياة التي عاشتها في دار الأيتام. كان القسيس "يوشيدا" في انتظارها بوجهه البشوش وهدوئه الذي يشي بالأمل، ظنت للوهلة الأولى أن هالة تشبه النور كانت تحيط بوجهه، وشعرت بالحرج من أشياء لم تستطع أن تحددها أو تسميها.

جاءت بقلب يملؤه الخشوع عازمة على أن تصبح راهبة متفرغة تمضي حياتها في التأمل والصوم والعبادة. كانت تحب أن تعتقد أن مجيئها إلى الدير كان قرارها هي. لكن القدر، الذي جعلها تعيش منذ ولادتها على هامش الحياة، لم يترك لها خيارات أخرى. على كل من يبلغ السادسة عشرة من عمره أن يترك الدار كي يفسح مجالًا للأيتام الجدد، ولكن هاناكو المقطوعة من شجرة والتي لم يزرها أحدٌ يومًا ولا وصلت باسمها رسالةٌ واحدة، لم تجد سوى بيت الله كي تلجأ إليه. أخذتها الراهبة الثمانينية "كاتشيكو" في جولة لتعرفها على المكان. وبينما كانت هاناكو مأخوذة بجمال البناء الأبيض للكنيسة المنتصبة على حافة جبل يطل على وادٍ سحيق، تلتف حولها جبال مكسوة باللون الأخضر، طلبت منها كاتشيكو أن تتبعها. عبرا الجسر الممتد فوق إحدى البحيرات الصغيرة التي تتغذى على مياه الثلج المتراكم على قمة الجبل وتوقفتا عند منتصفه. كانت الراهبة ما زالت تتحدث عن تاريخ الدير ومؤسسيه حين شعرت هاناكو بأنها تنفصل عن جسدها السمين وتحلق فوق المكان كفراشة غير مرئية. شعرت بلحظة غبطة عابرة لم تختبرها من قبل. لم يكن لشعور الغبطة ذاك علاقة بما تقوله الراهبة، كان شعورًا يشبه العودة إلى مسقط الرأس أو عثور طفل تائه على عائلته. تأملت انعكاس الصورة المموجة للسياج البرتقالي للجسر فوق سطح البحيرة الذي تتساقط فوقه أوراق الخريف وابتسمت. اختتمت الراهبة الجولة بقولها:

"ستسكنين مع الراهبات وسوف نمُدُّك بالمعرفة التي تتناسب مع قدراتك وسرعة تعلمك".

فرحت هاناكو بالراهبة اللطيفة، التي ذكرتها بـ "هوشي"، ولم تسألها عما قصدته بتلك الجملة. لاحقًا، وبعد أن ظهرت على هاناكو عوارض الضعف في التركيز وميل للنشاط والحركة، اقترحت عليها الراهبة كاتشيكو أن تقوم بالخدمة كبديل عن التفرغ للعبادة. "كلٌّ منا يعبد بحسب القدرات التي وهبَه الرب إياها" قالت معتذرة. لم تعترض هاناكو التي غالبًا ما كانت تصارع كي لا تغفو في أثناء عظة القسيس في قداس الأحد، وتشعر بالدوار والصداع حين تصوم، وتفقد التركيز على كل ما هو مطلوب منها. بل على عكس ذلك، اكتشفت أن مزاجها يكون جيدًا وهي تكنس وتمسح الغبار عن الأسطح وتقوم بترتيب المؤونة في الخزانات وتراقب

الطبيعة من خلف زجاج المطبخ. لكنها شعرت بالحزن أنها ستترك الراهبة كاتشيكو في الدير وتنتقل للعيش في دار الرعية حيث تطبخ وتقدم خدماتها للقسيس.

لم تعد تذكر متى أصبح القسيس يوشيدا بؤرة لحياتها. ربما كان ذلك بعد وفاة الراهبة كاتشيكو، حين اقترب القسيس منها وراح يربت على كتفيها وهي تبكي بحرقة. كانت هاناكو تنظر إلى يوشيدا بإجلال وتشعر بالرهبة حين يدخل المطبخ بثوبه الأسود الطويل الذي يظهره بكامل وقاره وهيبته. وفي المرات التي كان يطيل جلوسه في المطبخ بعد الانتهاء من تناول الطعام ويسألها عن تفاصيل حياتها في دار الأيتام، كانت تشعر بفرحٍ خفيٍّ ستعلم لاحقًا أنه شيءٌ يشبه الاعتزاز بالنفس.

ومع مرور الوقت، وتكرار زياراته لها، صارت تشعر بالألفة، فهناك من يهتم بأمرها، نسيت أنها كانت غريبةً أو وحيدة، ولم يعد وزنها الزائد شيئًا مهمًّا. أحبت قربه، كان يقول لها أشياءَ تجعلها تشعر بأنها بخير. "كلنا يتامى يا ابنتي. كل البشر يتامى إلا مَن عادوا إلى درب الله" قال لها مرة، وبجملته الواحدة تلك ساواها بنفسه وبالآخرين. جملة واحدة جعلت الأسئلة التي لاحقتها طوال حياتها تختفي: لماذا تركني أبواي؟ لماذا لم يتبناني أحد؟ كيف لشخص رفضته أمه أن يحبه أي شخص على وجه هذه الأرض؟ ولكن يوشيدا أنقذها بجملته. أنقذها لأنها تصدقه وليس لسر في الجملة نفسها. أصبحت تنتظر قدومه إلى المطبخ وتشعر بالخيبة حين يتناول عشاءه مع ضيوف بيت الرعية أو خارج الدير. وحين يطول غيابه عن مطبخها، كانت تتوجه إلى الجسر وتقف هناك بانتظار لحظة الغبطة التي اختبرتها في اليوم الأول لها في الدير. ولكن تلك اللحظة لم تتكرر، وفي كل مرة كانت تنظر فيها إلى سطح البحيرة الساكن كان يطالعها وجه يوشيدا الباسم والهدوء الذي يملأ عينيه.

لم يخطر لهاناكو خلال السنة الأولى في الدير أن مشاعرها تجاه يوشيدا قد تخطت الإعجاب الذي تراه في عيون الراهبات وتسمعه في همساتهن حين يتحدثن عن تدينه ووقاره. ولا فهمت شعورها بالنصر حين أتت إحدى الراهبات الشابات وحاولت أن تحقق معها بشأن جلسات يوشيدا الطويلة معها في المطبخ "احذري يا هاناكو. الجميع يحترم الأب يوشيدا ويراه فوق الخطأ، ولكن صغر سنك وقلة خبرتك ثغرتان قد تتسلل منهما أفكار الخطيئة" قالت لها الراهبة الشابة ذات الوجه الأبيض الجميل بنبرة فيها بعض الود، لكنها لا تخلو من التهديد قبل أن تغادر المطبخ. وبدل أن تشعر بالخوف أو الإهانة، توجهت هاناكو إلى موقد الغاز

وقررت أن تصنع لنفسها فنجانًا من شاي الياسمين، وإذا بالغبطة التي داهمتها فوق الجسر تخفق في صدرها للمرة الثانية.

في عامها الثاني في الدير اختفت كلمة "ابنتي" من جمل يوشيدا وكان قد استبدل بها أولا "الأخت هاناكو" قبل أن تختفي الألقاب وتصبح هاناكو بلا إضافات. لكن هاناكو التي لم تهبها الحياة فرصةً لتقول لأحد "أبي"، تمسكت بكلمة "الأب" بكل ما اختبرته من يُتم. وبقي يوشيدا في أحاديثهما "الأب يوشيدا". لم تخبره عن الراهبة التي أتت إليها محذرة بشأن جلساتهما معا، فهي ليست غبية لتخسر رفقته، ولا خفي عليها أيضًا أن الراهبات، اللواتي نذرن أنفسهن لحب الله وأقسمن على الابتعاد عن الشهوات والرذائل، ما زلن نساء. ربما استطعن إخفاء المشاعر التي تطال البشر، الرغبة، الحسد، الحقد، الغيرة، ولكن لا يمكنهن التخلص منها. لقد سمحن لأنفسهن أن يحببن يوشيدا في العلن بصفته الرجل الذي يمثل سلطة الله، لكن من الصعب على أي منهن إدراك أن جزءًا من ذلك الحب، مرتبطٌ بحقيقة أنها الأنثى ويوشيدا هو الذكر.

لم تصدق هاناكو عينيها عندما بدأ يوشيدا بالاقتراب منها جسديًّا، لذلك لم تُبدِ أي ردة فعل حين مد يده للوصول إلى إحدى الأواني فوق الرف ولصق جسده بها وهي تغسل الفاكهة فوق الحوض. تجمدت في مكانها وكأنها فأر وقع تحت مخلب قط. ربما كانت حينها في الثامنة عشرة من عمرها ويوشيدا في الخامسة والأربعين حين حدث الأمر للمرة الأولى. ولكن في المرة الثانية لم يلتصق بها فحسب، بل فرك جسده على جسدها بحركة شديدة الخفة جعلتها تتسمر في أرضها هذه المرة أيضا. عندما خرج من المطبخ تضاربت المشاعر والأفكار في رأسها، لكن الرفض لم يكن أقواها. إنه يوشيدا! الرجل الذي يفتنها برزانته ونبوغه وورعه، يحاول التقرب منها! هل هذا معقول؟ هي التي لم يكترث لأمرها أحدٌ ولا نظر إليها رجلٌ برغبةٍ يومًا، كيف لا يذوب قلبها من لمسة يوشيدا، الرجل، الوسيم، ذي الطلعة البهيّة والمنكبين العريضين والخصر الرفيع.

ذكَّرها هذا الالتحام العابر بأنها أنثى. وقفت ذات ليلة أمام المرآة، كانت قد خرجت من الحمام للتو وغطت جسدها بمنشفة تلتف حول صدرها وتصل إلى ركبتيها. مالت برأسها إلى اليمين وراحت تتأمل الأجزاء المكشوفة من جسدها. حوَّلت عينيها عن كتفيها وذراعيها المكتنزتين لتتأمل ساقيها، فوجدتها ثخينتين قصيرتين. ربما كانت تلك هي اللحظة التي شعرت فيها بشيء من الامتنان تجاه يوشيدا الذي، على الرغم من قِصرها وبدانتها، وجد فيها ما يحرك شهوته.

تكرر حضور يوشيدا إلى المطبخ. وكان كلما رآها وهي تدير ظهرها له، ووجهها للحوض، اقترب ببطء، والتصق بها، وفرك جسده بمؤخرتها ثم أصدر صوتًا يشبه الأنين، فتعلم حينها، أنه قد انتشى. وما أن تسمع خطواته مبتعدًا عنها، تنحني لتتناول خرقة من تحت الحوض، وتبدأ بمسح قطرات المنيّ عن أرض المطبخ. وفي المرات التي كان يدخل فيها يوشيدا إلى المطبخ ويجدها جالسة على الكرسي خلف الطاولة أو تمسح الأرض أو تأكل، كان يقف عند الباب ويشبك ذراعيه ويسألها عن حالها، ثم يبدأ بالحديث معها عن أشياء أخرى. وكانت إذا ما وضعت له شيئًا من الطعام في صحن يأكله متلذذًا ويشكرها على جهدها ويثني على مهاراتها في الطبخ ثم يغادر بوقار.

سبب لها تصرف يوشيدا حالة من الحيرة والارتباك. لم تكن لهاناكو أية تجارب جنسية سابقة، ولكن الثواني التي كان يقضيها ملتحمًا بجسدها، إذا ما وجدها في وضعية مناسبة له، أيقظت فيها رغبة لمعرفة المزيد عن ملذات الجسد. وأخذت تحلم باليوم الذي سيأخذها بين ذراعيه ويقبّلها. صارت تنصت إلى وقع خطواته في الممر، وكلما سمعته يقترب ركضت والتصقت بحوض المطبخ مولياً ظهرها للباب. ولكن هذا الالتصاق لم يكن يحدث إلا مرة واحدة في الأسبوع.

في الأشهر الأولى، كانت تشعر بأن ما تمنحه ليوشيدا، هو خدمة للرب، فهو في نظرها كان راعيًا من رعاة الله يتحدث باسمه ويرشد الناس إليه. وهي التي تقدم خدماتها للرب، عن طريق الطبخ والتنظيف، تمنح صمتها ورضوخها بالقبول نفسه حين يحك يوشيدا جسده فوق مؤخرتها. ولكنها في أحيانٍ أخرى كان يتملكها شعور بالخوف لا تعرف مصدره. خوف يأتي نتيجة إدراكٍ مباغتٍ أن يوشيدا يرتكب خطأً بحق الله حين يقوم بهذا الأمر. هكذا ظنت، بعد أن أسقطت نفسها من المعادلة. لم يخطر ببالها قَط أن يوشيدا يرتكب خطأً بحقها هي ولم تفكر للحظة أنها تُنتهك من قبل رجل يكبرها بأكثر من خمسة وعشرين عاما. بل كانت، كلما اقتحمتها الشكوك، تطلب من الرب العفو والهداية. تأرجحت أفكارها، بين القبول والاستنكار، بين انجذابها ليوشيدا وارتباكها بشأنه. لكن الأمر الوحيد الذي كانت متأكدة منه هو أنها تريده قريبًا منها.

حل فصل الشتاء، وتكومت الثلوج على الطرقات الجبلية المؤدية إلى الكنيسة وأمام الأبواب والشبابيك وقَلَّ عدد الزوار. اختلط البياض الممتد بالصمت اللامتناهي، وكأنهما صديقان ترافقا ليصبحا المادة التي تعبّد

الطريق إلى المطلق الأبدي، حيث تنتهي كل الأفكار والشعور الثقيل بالوحدة. هذا ما جال في خاطر يوشيدا وهو يحدّق من نافذته إلى ندف الثلج تتساقط خارج النافذة.

توطدت علاقته بهاناكو أكثر في ذلك الشتاء حين صار يقضي وقتًا أطول في المطبخ، يراقبها وهي تطهو الطعام، فيما تطرح عليه أسئلة كشفت له مدى سذاجتها وبساطتها مقارنة براهبة تكاد تبلغ العشرين من عمرها. لكنه أظهر الكثير من الصبر واللطف في إجاباته عن جميع تساؤلاتها.

- ماذا كانت وجبة المسيح المفضلة؟
- امممم.. أعتقد أنه كان يحب السمك المقلي. كانت وجبة السمك المقلي هي أول ما أكله مع تلامذته بعد أن قام من موته على كل حال.
- هل تعتقد أنه كان سيحب الـ "تمبورا" التي أطبخها؟
- أنا متأكد من ذلك. لو أكل من يدك مرة واحدة، لما أكل من يد سواك أبدا.

قالها القسيس ضاحكًا، بينما هاناكو تكاد تطير من الزهو والفرح.

- لماذا لم يتزوج المسيح قَط؟
- لأنه نذر نفسه لخلاص البشر؟
- ألهذا لم تتزوج أنت أيضا؟ لماذا تُحرِّم الكنيسة على القساوسة الزواج؟ ما العيب في أن يحب القسيس ويتزوج؟
- الموضوع لا علاقة له بالعيب ولا بالحرام. والكنيسة لم تحرم شيئًا. نحن فقط نتشبه بالمسيح. نقهر الجسد، كي تسمو الروح.

قال ذلك، وكأنه شخص آخر غير الذي يحك عضوه بمؤخرتها كل أسبوع. كانت تصغي لما يقوله، من دون أن ترى أي تناقضٍ في حديثه.

تحدث معها طويلًا عن معضلة الشر ومفهوم الخلاص في المسيحية. ككل المبتدئين كانت لها أسئلتها عن عقيدة الصلب والفداء، وأجاب يوشيدا عن كل أسئلتها بأسلوبه المقنع اللبق الذي ينجح في بتر جذع شجرة لكنه لا يقتلع الجذور. الأمر الذي ستدركه هاناكو بعد عدة سنوات.

- لماذا الصليب هو رمز المسيحية الأهم؟ المسيح مات وقام. هل كان موته أهم من قيامته؟
- المسيح مات على الصليب من أجل خطايا البشر.

- لا أفهم ذلك. لماذا كان عليه أن يموت. أليس هو الإله؟ أكان عاجزًا عن غفران الخطايا وهو حيّ؟
- لا، الأمر ليس كذلك. الله أحب البشر لدرجة أنه أراد أن ينزل إلى الأرض ويصير واحدًا منهم يتعذب مثلهم، يشعر بالألم كما يشعرون وتسيل دماؤه كما ينزفون.
- آآآآه.. فهمت.

كل شيء تطور بينهما ما عدا العلاقة الجنسية التي كانت لا تزال تقتصر على لحظات قصيرة من فرك جسده بجسدها من فوق الثياب. كانت تتمنى لو أنها أصغت السمع لما كانت زميلاتها يقلنه في دار الأيتام حين يتحلقن في المساء بعد انطفاء الأنوار ويتبادلن الخبرات والنصائح حول كيفية إمتاع الشبان الذين يتسللون لملاقاتهن في الأحراش القريبة. ربما سمنتها وعدم انجذاب أي شاب لها هو ما جعلها بعيدة عن تلك الجلسات وكأنها لا تعنيها مطلقا. ما زالت تذكر صدمتها حين سمعت من سريرها فتاة تصف بالتفصيل عملية إمتاع صديقها فمويًّا فيما راحت بعض الفتيات الأخريات تصدر أصواتًا تدل على القرف. ولكن الفتاة أكَّدت أن الجنس الفموي أكبر لذة يمكن لشاب أن يختبرها.

ربما كانت في عامها السابع في بيت الرعية حين استجمعت هاناكو شجاعتها وقررت أن تكون جزءًا من هذه العملية الجنسية. حين رآها يوشيدا تغسل الأطباق اقترب منها والتصق بها، وما إن استشعرت انتفاخ قضيبه تحت ثوبه الطويل، حتى استدارت ونزلت على ركبتيها ورفعت ثيابه محاولة الإمساك بقضيبه لتمنحه تجربة أكثر إثارة. لكنه انتفض غضبًا ودفعها بعيدًا بكلتا يديه وغادر المطبخ مسرعًا متمتمًا: "فلتسامحها يا الله"، "فلتسامحها يا الله".

أصاب هذا الموقف هاناكو بالصدمة والكثير من الخزي. لم تكن مستعدة لخسارة يوشيدا الذي أصبح كل حياتها. يوشيدا الذي فتح لها من داخل مطبخها الصغير نوافذ معرفية على كل العالم، استطاع بغضبه أن يعيدها إلى هول العزلة. شعرت أن كل النوافذ باتت مغلقة وأن الوِحدة بكل أبعادها قد سقطت عليها دفعةً واحدة. وِحدة الفتاة اليتيمة، ووِحدة الأنثى التي لم يدخل سريرها رجل، والوحدة الناتجة عن العزلة الحقيقية، عن وجودها في أقاصي الجبال بعيدًا عن نبض العالم بمتاعبه وملذاته وصخبه.

***

غاب القس يوشيدا بعد ذلك لأكثر من أسبوعين وكان يرسل من يأخذ طعامه إلى غرفته، فيما حاولت هاناكو أن تشغل نفسها بالطبخ والتنظيف خلال النهار، لكن مشاعر الحيرة والألم بقيت تملأ قلبها في الليل. ربما أكثر ما كان يوجعها، هو عدم قدرتها على الفهم. فهي لا تعرف أين أخطأت ولا استطاعت أن ترسم الحدود بين خطئها وخطئه.

خطرت في بالها العديد من الأفكار للتواصل معه أو لقائه. فكَّرت في كتابة رسالة ودسها تحت باب غرفته. لكنها حين أمسكت بالقلم والورقة البيضاء، تذكرت قدرتها المحدودة على الكتابة والتي لا تضمن لها كتابة رسالة خالية من الأخطاء اللغوية. فأزاحت الورقة جانبًا، ثم توجهت إلى خزانة الطعام والتهمت أربع قطع من حلوى الـ "موتشي" بسرعة. عادت إلى مكانها، وضعت كوعيها على طاولة المطبخ وسندت ذقنها على راحتيها وراحت تفكر في طريقة أخرى تعيد لها يوشيدا من دون أن تفضح جهلها. فكَّرت في الذهاب في نزهة إلى الأماكن التي يقصدها كلَّ يوم والتظاهر بأنها التقته بالصدفة، ولكنها ما لبثت أن تذكرت كرسي الاعتراف. "طبعا! كيف لي أن أنسى كرسي الاعتراف؟" هتفت هاناكو في سكون مطبخها وهبَّت واقفة.
بدلًا من أن تشعر ببعض الأمل والفرح لأنها أخيرًا ستلتقي يوشيدا بعد أكثر من أسبوعين، سيطر عليها شعور بالمرارة وهي تجهز نفسها للذهاب إلى حجرة الاعتراف. هي التي لا تعرف عِزَّة النفس ولم تلعب لعبة "الأنا" مع أحد من قبل، عَزَّ عليها أن تذلَّ نفسها من أجل أن ترى الشخص الوحيد الذي يعنيها في الوجود. جففت دمعتين قفزتا من عينيها رغمًا عنها، أغلقت باب غرفتها وتوجهت إلى الكنيسة. راقبت الطيور الصغيرة التي تظهر وتختفي داخل الشجيرات القصيرة الكثيفة في المسافة الممتدة بين بيت الرعية وباب الكنيسة. كانت الجبال تتراءى من بعيد أمامها والحقول شديدة الخضرة وراءها لا ترى نهاية لها. بدت بمشيتها الثقيلة وردفيها المكتنزين، كطائر بطريق تائه يبحث عن قطب جليدي في المكان الخطأ.

بدأت رائحة الشموع وبخور الـ "أولابانو" تتسرب إلى أنفها عندما دخلت من الباب المرتفع للكنيسة. أصابتها تلك الرائحة بشيء من الدوار المحبب، دوارٌ يُنسيها من هي لجزء من الثانية. كانت الأضواء تتسرب من النوافذ ذات الزجاج الملون المزيَّن بالنقوش في أعلى الجدران، كأنها تنفخ روحًا في الرسوم والتماثيل فتعطيها بُعدًا جميلًا ومخيفًا بعض الشيء. اقتربت هاناكو من الحجرة بحذر، فتحت الباب وأقحمت مؤخرتها الكبيرة في الكرسي الضيق، ثم التفتت إلى النافذة المغطاة بشبك ذي ثقوب كثيرة. كانت تسمع أنفاس القس يوشيدا الجالس وراء الحجاب، وقد آلمها هذا الأمر ألمًا لم تختبره من قبل. انتظر يوشيدا أن تدلي باعترافها، لكنها

ظلت صامتة لفترة طويلة، ثم قالت بصوت متهدج: "سامحني يا أبي لأنني ارتكبت خطيئة" قبل أن تنخرط في نوبة بكاء شديدة. وقفت بعدها وغادرت مسرعة، فيما شهق يوشيدا طويلًا قبل أن يخرج الهواء من رئتيه وهو ينظر إلى سقف الغرفة.

عاد يوشيدا في اليوم التالي إلى المطبخ، وبدأ يحدثها بأسلوبه المهذب القديم وكأن شيئًا لم يكن. وبعد أسبوع بدأ بحكِّ جسده بجسدها والتَّأوُّهِ كما كان يفعل، وعادت هي تمسح قطرات المنيّ من فوق البلاط بصمت. ولكنَّ حذرها من انقلابه عليها في أي لحظة، كان الشيء الوحيد الذي تغيَّر في علاقتها به. فهمت هاناكو رغم سذاجتها، أن يوشيدا قد توَّصل إلى صيغةٍ توافقية تجعله يشعر بالراحة، بأنه، إذا التزم بالعملية الجنسية بالطريقة التي اختارها، فهو بهذا يتجنب غضب الله. وفهمت هي، أنه وبلقائه الجنسي المقتضب معها، يشعر يوشيدا بالاتزان والاستقرار. وأن أي محاولة لتغيير تلك المعادلة –كمحاولتها إمتاعه فمويًّا– سوف تؤدي إلى اختلال في نقطة التوازن التي وضعها لينجو من الشعور بالذنب.

في موجة شتاء قاسية مرض يوشيدا وبقي طريح الفراش لأكثر من أسبوع. لم يتمكن الطبيب من الوصول إليه بسبب كثافة الثلوج ولا استطاعت الوصفات المنزلية أن تخفض من حرارة جسده. أصاب مرضه هاناكو بصدمة عنيفة لم تكن تحسب لها حسابًا. تملَّكها الذعر وباتت عاجزة عن إتمام واجباتها والقيام بمهامها. طاردتها فكرةُ موتِه من المطبخ إلى المخزن إلى غرفة النوم وأصابتها بنوبات هلعٍ كادت تودي بها إلى الاختناق. ركعت ذات مساء على ركبتيها أمام تمثال السيدة العذراء وراحت تصلي وتتوسل إلى الله أن يشفي يوشيدا ويعيده إليها سالما. "سامحه يا الله. أنا أعلم أنه أخطأ بحقك، ولكن رحمتك واسعة ويوشيدا رجلٌ طيب". شعرت وهي غارقة في نحيبها وصلواتها بأن الله يصغي إليها. ثم تعاظم الشعور في داخلها بوجود الله في غرفتها: في ضوء الشعلة الصغير على رأس الشمعة، في الهواء البارد الذي يحيط بها، وفي مكان عميق في وجدانها لم تستطع أن تجد له اسما.

"سوف أطلب منه ألا يخطئ بحقك إن منحته الشفاء". نطقت هاناكو بتلك الكلمات وهي في حالة خشوع عميق وأحست بالرضى عن أدائها أمام ربها. كانت تشعر بحالةٍ من الانكسار، وخطورةُ الإنسان المنكسر تكمن في عجزه عن رؤية إسهامه في سير الأمور. لم يتبادر في ذهن هاناكو أنه لولاها لما استطاع يوشيدا أن يخطئ، وأنه من الممكن، لو أرادت، أن توقفه عن ارتكاب المعاصي. لكنها لم تكن ترى في نفسها

إنسانًا ذا إرادةٍ أو رأي، بل مجرد أداةٍ في يد الشخص الذي رآها وأصغى إليها وأعطاها من وقته ومعرفته، للشخص الذي منحها الشعور بأهمية وجودها، وجعل لهذا الوجود قيمة. لم يخبرها أحدٌ أنَّ يوشيدا سيّدها وأنَّ عليها أن تقبل كل أفعاله دون مساءلة، لكن المرأة المكسورة، الأنثى التي تشعر بالوحدة في داخلها، سوف تتجنب الرفض مهما كان الثمن، والطريق الأمثل لتجنب الرفض هو أن تصبح تابعة.

أطفأت الشمعة وأخلدت إلى فراشها وقالت "إذا مات يوشيدا سأرحل. سوف أركضُ فوق الطرقات الجبلية المقفرة حتى يتجمد الدم في عروقي وأموت بردا". قالت تلك الكلمات بصوتٍ مسموعٍ وكأنها تريد من الله أن يسمعها دون أن توجه هذا الكلام إليه مباشرة.
لكن يوشيدا لم يمت ذلك الشتاء. ولا طلبت هاناكو منه أن يتوقف عن اقتراف المعاصي من أجل تنفيذ حصتها من الصفقة التي أبرمتها مع الرب. هذا الإثم هو السر الذي كان يجمعهما. والسر رابطٌ حميم، يشدُّهما بوثاقٍ متينٍ ولا يسمح لثالثٍ أن يدخل بينهما. حتى وإن كانت لم تبلغ الإشباع الجنسي مرةً في علاقتها معه، كان الإشباع يأتي من تلبيتها لحاجته. انتفاخ قضيب يوشيدا هو من شأنها هي. هي وحدها. وليس بإمكان امرأة سواها أن تريحه من احتقان شهوته.

استمرت علاقتها به لأكثر من اثنتين وعشرين سنة. تغيرت هاناكو خلالها وأصبحت بفضل محاضراته ونقاشاته أكثر اطلاعًا ومعرفة. كما أنها مرت بكثير من التقلبات على الصعيد العاطفي، واتخذت مشاعرها نحو يوشيدا أشكالًا عِدَّة، لكنها غالبًا ما كانت تتجنب التركيز على تلك المشاعر أو التمعن فيها خوفًا من تأثيرها على علاقتهما. أحيانا كثيرة كانت تشعر بأنها أُمُّه والمسؤولة الوحيدة عن تأمين احتياجاته ومؤانسته، فيرقَّ قلبها له وتعامله كطفل متغاضيةً عن كل ما يزعجها فيه. وفي أحيانٍ أخرى كانت تشعر بشيء من النفور، لا تعرف مصدره ولا تقوى على مصارحة نفسها به.

راودتها فكرة الاختفاء كثيرا. تخيلت أنها تجلس فوق سطح بيت الرعية وتنظر إلى يوشيدا من ثقبٍ في السقف. تتخيله يبحث عنها مذعورًا. ينظر خلف الأبواب ويفتح كل الخزائن بانفعال. تتخيله تائهًا ذليلًا ويتيمًا، يتيمًا مثلها ومُلتاعًا ليعرف أين هي، فتشعر بشيءٍ من المتعة والاكتفاء، ثم يقتحمها شعورٌ بالذنب لأن ضياعه يشعرها بالرضى. وما تلبث أن تستفيق من حلم اليقظة ذاك، وتعود لتحضير وجبة الطعام.

يوشيدا أيضًا تغيَّر وأصبح مع تقدم السن أكثر شفافية معها، وقد لاحظت ذلك عندما بدأ يخبرها ببعض القصص من ماضيه بعدما كان يتكلم عن كل شيء إلا عن نفسه. لم تكن تعرف شيئًا عن ماضيه، أو عائلته أو الظروف التي سبقت التحاقه بالدير. لم تتجرأ على سؤاله يوما. الشيء الوحيد الذي بقي ثابتًا على مر تلك السنين، كان اللقاء الجسدي المقتضب، والذي أصبح يحدث بوتيرة أقل نظرًا لتقدم يوشيدا في السن، لكنه ظل يحدث بالطريقة نفسها.

كانت أشجار الساكورا التي تملأ الحديقة بالأزهار البيضاء خارج النوافذ، تضفي على الصباح شيئًا من البهجة والفرح. وقف يوشيدا الذي تخطى عمره الستين حينها، عند نافذة المطبخ، وعقد يديه وراء ظهره. كانت هاناكو تسكب له شوربة السمك التي يحبها في الصحن حين بدأ بالكلام:
"أتعلمين أنه أصبح للإنسان القدرة على التحول إلى شجرة بعد الموت؟"

توقفت هاناكو عن الحركة ووضعت المغرفة في القِدر. استدار ناحيتها وراح يحدثها عن الاختراع الجديد الذي قرأ عنه في إحدى الصحف. خيَّم على ملامحه بعض من الهدوء وهو يصف الكبسولة العضوية التي يوضع داخلها رفات الإنسان فيتحول في أثناء تحلله إلى سماد للشجرة، لتأخذ بقاياه بالتناقص مع مرور الوقت، بينما ترتفع الشجرة في الهواء لتزهر مع كل ربيع. جلس إلى المائدة ثم أضاف: "بإمكان الإنسان أن يختار نوع الشجرة التي يريد أن يُحييها رفاته بعد أن يموت! أليس هذا رائعا؟". ثم راح يخبرها عن طرق مختلفة للتعامل مع رفات البشر لا تخطر على بال أحد. لم تعرف هاناكو بماذا تجيبه. فهي لا تحب أن تفكر في الشيخوخة والموت، بل كانت كلما أتتْها فكرة قاتمة، قاومتْها بالتهام قطعة من الحلوى تمضغها وهي مغمضة العينين، مستسلمة لمذاق السكر في فمها محلقة فوق الموت كسحابةٍ ربيعيةٍ وسط سماءٍ صافية.

لم تكن تعلم يومها أن يوشيدا، بعد تسع سنوات وثمانية أشهر ويومين من ذاك الصباح الربيعي المنعش، سوف يرحل عنها تاركًا وصيَّةً تبيح لها التصرُّف بجثمانه. وأن حلوى الدنيا كلها لن تنقذها من كابوس التعامل مع الواقع الجديد. لقد تمكن يوشيدا خلال حياته من جعلها تشعر أنها كائن متكامل الأركان، يمكن رؤيته، جعلها تشعر بالاعتبار والجدارة والاستحقاق، حين لاحظ وجودها وأصغى إليها. بعد موته، أصبحت، وبفضله، كيانًا مرئيًّا، فقد قرر يوشيدا في وصيته المفصَّلة التي كتبها قبل أن يموت، أن يترك جميع

ممتلكاته لهاناكو وحدها. بوصيته تلك، جعل القس من هاناكو شخصًا ذا قيمة، ولكنه أيضًا أكد بهذه الوصية، الشائعات والشكوك التي كانت منتشرة في الدير حول علاقته بها.

بعد أن أفاقت هاناكو من الصدمة، سمحت للحزن أن يأخذ مداه، ولكن كان عليها أن تقرر كيفية التصرف في الجثمان. فجثة يوشيدا لن تصبر عليها حتى تأتي بقرار ولن تتفهم ترددها وضياعها. لم تتخيل هاناكو أنّ بإمكان الحزن إيلامَ الأحياء إلى هذه الدرجة، ولا استطاعت أن تنام في الليلة التي تلت وفاته. شجرة الساكورا كانت الشيء الأول الذي تبادر إلى ذهنها عندما أُلقِيَ عليها عبء التصرف في جثمان يوشيدا. كانت صورته لا تزال حية في مخيلتها حين أخبرها في ذلك الصباح الربيعي، وبإشراقة تعلو وجهه، عن إمكانية التحول إلى شجرة. قررت أن تحصل على الكبسولة العضوية وتحوله إلى شجرة ساكورا تزرعها في فناء الدير. كما قررت أن تطلب المساعدة من أفراد الرعية لإتمام المهمة. ولكنها في تلك اللحظة شعرت بخوف يختلف عن كل المخاوف التي عرفتها في حياتها.
فكرت في حياتها في الدير بعد رحيل يوشيدا وأدركت أنها لن تتحمل البقاء في هذا المكان بعده. انتابتها نوبة نواح جديدة عندما تخيلت أنها ستترك روح يوشيدا التي سكنت شجرة الساكورا وراءها وترحل عنه للمرة الثانية. أتتها فكرة أخرى وابتسمت ابتسامة رضا.

كانت الأموال والممتلكات التي تركها لها يوشيدا تكفي لتنفيذ الخطة التي أرادتها للتصرف في جثمانه. ساعدتها إحدى الراهبات على الاتصال بشركة كبيرة تعنى بجميع لوازم الموتى من النقل والحرق والدفن إلى إنجاز المعاملات الرسمية. بعد سبعة عشر أسبوعًا كانت هاناكو تضع قلادة عُلّق فيها صليب معدني كبير وسميك، وفي منتصف ذلك الصليب حبة ألماس صغيرة لامعة. حبة الألماس تلك كانت رفات يوشيدا.

تحويل الرفات إلى حبة ألماس كانت إحدى الطرق التي حدَّثها عنها يوشيدا بافتتانه المعهود بالاختراعات التي يقرأ عنها في الصحف الصباحية. وها هو الآن يتحول بفضل إحداها إلى حبة ألماس على صدر هاناكو ليبقى قريبًا من قلبها. أصبح ذلك ممكنًا عندما عُرِّض رماد جثة يوشيدا إلى حرارة وضغط مرتفعين جدًّا (ثلاثة آلاف درجة مئوية) في فرن صُنع في سويسرا، لتستغرق عملية التحول ستة عشر أسبوعًا حتى اكتمالها.

لا تعرف هاناكو لماذا أصرت على وضع الماسة على صليب ثقيل ومدبب. حذَّرها الموظف الذي يأخذ طلبات الزبائن من وزن الصليب قائلًا إنه سيسبب لها آلامًا في العنق والكتفين، لكن ذلك لم يبدل رأيها، زاعمةً أنها ستعلقه على الحائط كي تنهي النقاش. كان من الصعب على هاناكو التي تخطت الخامسة والأربعين العيش من دون شيءٍ يثقلها. هكذا اختبرت الحياة وهكذا تريدها أن تستمر. لكن الحياة الآن بعينيّ هاناكو، باتت مقفرة لا تصلح لشيء. فالماضي، لا يحتوي إلا على حياة باهتة المعالم تفتقر إلى الخبرة ولا شيء واضحٌ فيها إلا يوشيدا، وأمامها يمتد المجهول باحتمالاته اللامتناهية وما يرافق هذا الغموض من ترقبٍ وخوفٍ ووحدة. وصل بها اليأس إلى التفكير في العودة إلى دار الأيتام التي كانت تؤويها والعمل هناك كمتطوعة، وبدت في بادئ الأمر راضيةً عن نفسها بميلها الدائم إلى تقديم الأعمال الخيرية. دسَّت جسدها المكتنز في الفراش وعزمت على الرحيل إلى دار الأيتام في الصباح.

ولكن حالة استثنائية من اليقظة انتابتها في منتصف الليل. حالة لا تشبهها ولم تعرفها من قبل. وإذا بها ترى الأمور بوضوح وكأنها تجلس فوق السطح وتنظر من ثقبٍ في السقف إلى حياتها هذه المرة. تنظر بدهشةٍ ويصبح كلُّ شيءٍ مكشوفًا. قرار عودتها إلى دار الأيتام، الذي ظنته نبيلًا في الليلة الماضية، أصبح في نظرها قرارًا تافهًا مثيرًا للشفقة. تذكرت الطباخة هوشي التي ظلت حبيسة دار الأيتام ولم تجرؤ على اختبار الحياة خارجه. تذكرت ما كتبته لها قبل أن تغادر وتساءلت عن حلمها هي. ماذا كانت تريد من الحياة، وماذا فعلت بسِنِي عمرها التي اقتربت من الخمسين؟

"لا أستطيع أن أتخلى عن دور الخادمة" قالت هاناكو وقطرات من العرق البارد تتصبب فوق جبينها. أدركت أن هناك خللًا كبيرًا وراء سعيها الدؤوب لتقديم الخدمة ونيل مباركة الآخرين، خاصةً وأن الأمر لا يعود عليها بالشعور بالرضى والسكينة، وأنها الآن في الوضع المثالي للبدء من جديد وقضاء حياة كريمة بالأموال والممتلكات التي تركها لها يوشيدا. لكنها ما لبثت أن أبعدت يوشيدا عن أفكارها. آثرت أن تبقيه بعيدًا عن هذه الاختلاجات. صارعت بكل قواها كي تحميه من هذه الصحوة. شعرت أن حالة الصحوة ستشمل علاقتها به أيضا. إدراكٌ ما، في طريقه إليها، سيهدم الصرح الكبير الذي بنته من أطلال تلك العلاقة التي استحوذت على حياتها. إعصارٌ ما، يقترب ليقتلع الجذور الواهية التي ما زالت تربطها بالحياة.

***

٢

توقفت ناومي فجأة عن السير بعد أن شعرت أنها أسقطت شيئًا، التفتت للخلف، عادت بضع خطواتٍ إلى الوراء وهي تدقق النظر حول قدميها، ولما لم تجد شيئًا، راحت تتفقد حقيبة يدها. وجدت هاتفها المحمول، مفتاح غرفتها، بطاقة مترو الأنفاق، بطاقتها الائتمانية، مصباح جيب، وقلم طلاء الشفاه و"كندوم" لم تعد تذكر لأي سبب وضعته في حقيبتها. "لقد سقط شيءٌ مني.. أنا متأكدة.. سمعته بأذني.. أنا لست مجنونة"، قالت ثم نظرت حولها كأنها نسيت السبب الذي جاء بها إلى هنا.

هدوء النهر الذي كانت تسير بمحاذاته، والجو الصحو، جعلاها تفكر في دعوة "أكيتو" لها على العشاء بعد ساعات من الآن احتفالًا بعيد ميلادها الثلاثين. هي لا تحب الاحتفال بعيد ميلادها، ولا تحب الظهور مع "أكيتو" في الأماكن العامة، لكنها لم تخبره بذلك، لأنها لا تريد إفساد العلاقة التي فيها من التعقيد ما يكفي لإنهائها في أقرب شجار محتمل.

لا بأس. عليها أن تعود إلى البيت، تستحم، وترتدي الفستان الأسود الذي اشتراه لها "أكيتو"، ثم تلطخ وجهها بمكياج الـ "جوثيك" الذي كان يثيره أحيانًا، وتلف عنقها بالطوق الجلدي ذي الأسنان المعدنية المدببة. لن تخبره أن هذا الزي لم يعد مناسبًا لعمرها، ولن تخبره بأنها تشعر وكأنها لعبة رخيصة حين يراها الناس بصحبته. لن تسأله لماذا يواصل لقاءها ويغدق عليها الهدايا، رغم أن كل محاولاتهما لإتمام العلاقة الحميمية في السنتين الأخيرتين باءت بالفشل. لن تخبره أن فكرة انفصاله عنها، لا تُؤرقها فحسب، بل تجعلها تشعر بالهلع كل يوم، رغم أن فارق السن بينهما يزيد على ثلاثين عامًا ورغم أنه متزوجٌ ولديه أبناء يكبرونها سنًّا، فإن هاجس الانفصال يصيبها بالرعب.

قررت العودة إلى غرفتها في حي "كيتاماتشي" كي لا يداهمها الوقت، وبينما تتسارع خطواتها لمحت فتاةً مراهقةً تضع نظارةً سوداء على عينيها وسماعاتٍ كبيرةً فوق أذنيها. بدت مرتاحةً تمامًا وهي مستلقية على ظهرها فوق النجيل على حافة النهر. تساءلت ناومي عن نوع الموسيقى التي تسمعها تلك الفتاة، ثم تخيَّلتها تستمع إلى كتابٍ صوتيّ. وقفت وراقبتها قليلًا. بدت كل عضلات وجه الفتاة مسترخية كأنها لم تغضب أو

تبكِ يوما في حياتها. وبجوارها كان كلبها الأبيض الصغير يرقد ساكنًا ينظر إلى النهر كأنه هو أيضا يقرأ كتابًا أو يستمع إلى موسيقى هادئة. اقتربت ناومي من الفتاة النائمة وظلت تراقبها بضع دقائق. لم تشعر الفتاة بوجودها ولا اكترث الكلب حتى بالنظر إليها. شعرت برغبة شديدة في أن تصرخ في وجه الفتاة التي لا تعرفها وتقول لها "ماذا تفعلين هنا أيتها الساقطة؟ هل تظنين نفسك "باريس هيلتون" أو "سوزو نوزومي؟" كفاكِ تسكعًا واذهبي لمواجهة الحياة الحقيقية!".

مرت دقائق وهي تراقب جسد الفتاة الممدد فوق النجيل، حدقت في صدرها المكور ثم أنزلت رأسها لتنظر إلى ثدييها الصغيرين اللذين يشعرانها بالضآلة وتكرههما بطريقة عجزت عن فهمها. ولكن الفتاة لم تنتبه لوجودها بجوارها رغم أنها حجبت عنها ضوء الشمس. نظرت ناومي إلى الكلب الـ "تشيواوا" الصغير ثم انحنت إليه ومسدت فروته برفق، ولكنه لم يتجاوب معها، فأصبحت لمساتها أكثر تشنجًا، ثم انتفضت واقفة وواصلت مسيرها وهي تغمغم. مشت عدة خطوات، ثم ما لبثت أن استدارت وعادت إلى الفتاة التي كانت لا تزال غارقة في موسيقاها وأفكارها. نظرت ناومي يمينًا وشمالًا ثم ركلت الكلب فسقط في النهر، وبدأ بالنباح والفتاة منشغلة بما تسمعه، وناومي تغادر مسرِعةً متجنبة النظر إلى الخلف.

***

سألها أكيتو: هل أعجبك الورد؟

نظرت ناومي نحو بوكيه الورد الذي يغطي نصف الطاولة في المطعم الفرنسي الفاخر في الطابق الرابع عشر، ثلاثون وردة "تيوليب" بيضاء تتخللها بعض الـ "بيبي فلاورز".

أجابت: "نعم.. ساحرة.. أشكرك".

قالت ناومي ذلك بهدوء شديد وهي تراقب مدينة كيوتو من أعلى، بينما يتغير المشهد ببطء. خطر ببالها أن الأزهار البيضاء في كوريا تقدم في الجنازات عادة، وكان ذلك ما يحدث في اليابان أيضا، إلى أن بدأت مراسم الزواج تقام على الطريقة الغربية وأصبح بوكيه الورد الأبيض يقدم للعروس. فكرت "لماذا يهديني أكيتو وردًا أبيضَ في عيد ميلادي وحتى في الفالنتين؟ هل ينوي أن....؟ أم أنه فقط يريد أن يعوضني عن أنني لن أكون زوجته أبدا. هل أريد أن أكون زوجته؟ آآآه لا أريد أن أفكر في هذه الأشياء الآن".

"أليس عظيمًا أن ترَيْ في كل دقيقة مشهدًا جديدًا من المدينة؟" سأل أكيتو وهو يشير إلى برج كيوتو الذي ظهر أمامه.

أرادت ناومي أن تقول له إنَّ دوران المطعم يشعرها بالغثيان، وبعد أن تذكرت أنها احتست نصف قنينة شامبانيا وكأسين من النبيذ الأبيض في أقل من نصف ساعة، ابتسمت واستدارت لتنظر نحو البرج، قائلة "نعم.. رائع فعلًا".

اختار أكيتو الخبير بالطعام الفرنسي، الأطباق بنفسه، بينما تُفضل ناومي الأكل في "إزاكايا" شعبية. طلب كركند مع كبد الأوز وصوص الكمأة لناومي، وقطعة ستيك من لحم الـ "واجيو" وصوص الـ "شاتو بريان" لنفسه. شامبانيا "دون برينيون" قبل الأكل، نبيذ "شاردوني" أبيض لـ ناومي ونبيذ أحمر "شاتو باروك" لنفسه.

بعد أن فرغت ناومي من تناول الـ "كريم بروليه"، فوجئت بـ أكيتو يُخرج علبة صغيرة من جيب الجاكيت، وحين فتحها، ظهر خاتم "بولغاري" من الألماس. تزامن فتح العلبة مع ظهور معبد "كيو ميزو" أمامها.

"يا إلهي، هل قرر الزواج مني؟ وماذا عن زوجته؟ لقد قال إنه لن يتركها أبدا، لأنها وقفت بجانبه حين كان فقيرا وساعدته حتى أصبح رجل أعمال كبيرًا. ماذا عليَّ أن أقول له؟ هل أرفض؟ هل أقبل؟"

وبينما تصارع ناومي حيرتها قال أكيتو:

"رأيتك تحدقين به حين كنا في المتجر الأسبوع الماضي، وكنت أفكر في الهدية التي أقدمها لك في عيد ميلادك. كل عام وأنت بخير".

ابتلعت ناومي ريقها ثم رشفت رشفة من كأس النبيذ.

"هدية عيد ميلادي؟ لا، هذا كثير، لا أستطيع أن أقبل هدية ثمينة كهذه" قالت وهي تمد يدها لتخرج زجاجة الشمبانيا من علبة الثلج بجوار أكيتو، رفعتها نحو فمها، وبدأت تشرب منها مباشرة.

"لا تفعلي! أرجوكِ. هذا مكان راق، وما تفعلينه، يرفضه الفرنسيون"، قال أكيتو وهو يحاول انتزاع زجاجة الشمبانيا من يدها.

"أنا لست فرنسية، ونحن هنا لا نزال على أرضٍ يابانية"، قالت وهي ترفع الزجاجة، وتكرع ما تبقى فيها بجرعة واحدة، ثم مدت يدها وتناولت كأس النبيذ الثالث الذي لم تحتسِ سوى ربعه في أثناء تناول الطعام، فأكملته في رشفة واحدة".

"ما الذي دهاكِ يا ناومي؟ لماذا تتصرفين هكذا؟ لقد حاولتُ أن أهديكِ ليلة لا تُنسى، فلماذا تردين بهذه الفظاظة؟".

"ماذا دهاكَ أنت يا أكيتو؟ أتريد فعلا أن تهديني ليلة لا أنساها؟ لماذا لا تجرب الفياجرا إذًا، بدلًا من أن أحاول كل مرة مساعدتك على الانتصاب بفمي دون جدوى! أتعلم كم هو مقرف أن أدس فمي في شعر عانتك الأبيض لأكثر من ربع ساعة؟ صحيح، لماذا لا تصبغ شعر عانتك مثلما تصبغ شعر رأسك؟ أتعرف لماذا لا تفعل؟ لأن لا أحد يرى شعر عانتك سواي، وأنا غير مهمة بالنسبة لك. أنا مجرد "هوستيس" التقيت بها في البار قبل سنوات، وبدل أن تدفع لها مقابل كل مرة تلتقي بها، صرت تكتفي بعشاء وهدية من حينٍ لآخر. معك حق طبعا. لماذا عليك أن تشتري البقرة كلها إذا كان الحليب متوفرًا بالمجان؟".

راح أكيتو يتلفت يمينًا ويسارًا وهو يرفع يديه كأنه يحاول منع حائط من السقوط فوق رأسه. التزم الصمت لأنه لا يريد أن يرى الأطباق وهي تطير وتتحطم في المطعم الفرنسي الذي يتمتع فيه بسمعة طيبة، في المكان الذي يأتي إليه كثيرًا لعقد صفقاته التجارية، فيما بقيت ناومي مسترسلة في مونولوجها. هو يعرف نوبات غضبها ويتذكر حين حطمت مرآة غرفة الفندق الذي قضيا فيه ليلتين في أوكيناوا عندما اضطر لقطع العطلة والعودة إلى كيوتو بسبب مرض زوجته.

لماذا تقضي معي كل هذا الوقت وأنا لا أعطيك شيئا؟ هل تشعر بالفخر حين تخرج مع فتاة ترتدي السواد وتلطخ عينيها وشفاهها بالسواد؟ هل يشعرك هذا الطوق على عنقي بأني كلبة تجرها إلى حيث تريد؟ هل أحررك من عقدة النقص التي تتملكك، لأنك مهاجر كوري غيَّر اسمه حتى يبدو يابانيًّا، ومع ذلك لا يعترف أحد بيابانيتك رغم كل ما لديك من أموال؟ هل يمنحك الذل، الذي أنا فيه، الشعور بالقوة والسيطرة التي تفتقدها مع الآخرين؟".

مسحت ناومي طلاء الشفاه الداكن بالفوطة البيضاء ورمتها فوق الصحن الذي أمامه، وأكملت:
"لا بد أنك تشعر بأهمية كبيرة وأنت تقوم برعاية فتاة يابانية قليلة الحيلة، فتاة بدأ الشعر الأبيض يغزو رأسها وهي لم تكمل دراستها الجامعية بعد. فتاة لم تفلح في أي عمل حتى حين عملت في محل لبيع الورد. ألهذا أهديتني وردًا منمقًا بعناية؟ ماذا تريد مني أيها العجوز؟ تعويض الحنان المفقود؟ آسفة لم يبق عندي

منه شيء؟ هل تريد أن تشعر بالصبا؟ أنا أشعر بأني أكبر منك سنا؟ هل تنتظر مني بهجة؟ لا أتذكر يومًا واحدًا ضحكنا فيه معا. لقد اكتفيت منك..." قالت ملوحةً بيدها "لا أريد أن أراك بعد اليوم. اذهب ونَم بجوار زوجتك الصبورة الحنونة، لأنك لو أتيت معي إلى غرفتي الليلة فسأتقيأ كل ما في بطني على عانتك الحقيرة قبل أن أقطع عضوك الذكري بسكين المطبخ!".

وقفت فجأة ثم توجهت إلى المصعد. جرى أكيتو خلفها ممسكًا بالورد بعد أن وضع مئتي ألف ين على الطاولة، ولكنه حين وصل إلى المصعد كان قد بدأ بالنزول. لحق بها في الشارع وهي تمسك بحذائها في يدها وتهرول لاهثة.

"لا بأس.. افعلي ما بدا لكِ، لكن دعيني أوصلك. لا أستطيع أن أتركك في هذه الحالة. سأطلب تاكسي". قال وهو يحث الخطى وراءها.
"لا أريد تاكسي.. لا أريد شيئًا.. سآخذ مترو الأنفاق" قالت بصرامة.
احتفظ أكيتو بمسافة بينه وبينها في الشارع وعلى رصيف المترو، كي لا يستثير غضبها من جديد. وقفت تراقب وجوه المنتظرين وهي تتمتم لنفسها بعبارات غير مفهومة، ثم صرخت "كوسووووو.. كوسووووو.. كوسوووووووو" حين وجَّه إليها أحد الرجال نظراته مستغربًا من منظر الكُحل الذي يسيل من رموشها ملطخا وجهها وأكيتو ينظر نحو الأرض متجنبًا مواجهتها. كانت كلمة "خراء" هي الكلمة الوحيدة التي تعبر عما يدور في رأسها. كل شخص يظهر أمامها يتخذ شكل الخراء، الوردات البيضاء في يد أكيتو نبتت في خراء. كل فكرة تقفز إلى رأسها لها رائحة الخراء. سريرها الذي ينتظرها تتخيله غارقًا في الخراء.

وفي هذه اللحظة رأت ناومي فأرًا صغيرًا يجري بمحاذاة قضبان المترو، فتتبعته بنظراتٍ يملؤها القلق. خرج الفأر إلى الرصيف وراح ينظر يمينًا ويسارًا كأنه لا يعرف إلى أين يريد الذهاب. تسارعت نبضات قلب ناومي وهي تراقب الفأر، كأنه يعنيها شخصيًا. وبينما هي تفكر في حياة هذا الفأر، من أين جاء، ومن أين يحصل على الطعام حيث يعيش تحت الأرض، وأين سينام هذه الليلة، اقترب رجلٌ خمسينيٌّ مخمور من الفأر وهو يصيح "نهايتك الليلة على يدي أيها القارض". صرخت ناومي بكل ما أوتيت من قوة "اهرب.. اهرب"، ولكن الرجل الثمل كان أسرع من الفأر وسحقه بحذائه. وقفت ناومي فاغرة فمها وهي تنظر إلى

بقع الدم المتناثرة حول الفأر الذي التصقت جثته بالرصيف، وما لبثت أن أصدرت صوتًا عاليًا وتقيَّأت كل ما كان في جوفها.

***

لم تغادر ناومي السرير في الأيام الثلاثة التي تَلَت تلك الحادثة وحرصت على أن تُبقي هاتفها مغلقًا كي تتجنب أيَّ اتصال مع العالم الخارجي. كل ما أرادته هو أن تقرأ الشِّعر وتفكر في مصيرها.

"لا أظنكِ تبحثين عن حلول يا ناومي. أنت مستكينةٌ لحالة العجز التي تسكنك" تذكَّرت قول صديقتها ساكورا قبل سنوات. تكره ناومي أن تلك العاهرة، ساكورا، يمكن أن تكون محقة. وتشعر بالراحة لأنها أخرجتها من حياتها. ومع ذلك بقي صدى كلماتها يتردد في أذنها من وقت لآخر، خاصة حين تهاجمها موجات الاكتئاب الشديدة:

"توقفي عن قراءة الشِّعر. الشِّعر يجعل الأصحاء أكثر رقة، لكنه يزيد المكتئبين مرضًا ويأسًا".

هل أصبحَت ناومي فعلًا مستكينة لحالة العجز هذه؟ إذًا من أين يأتي رفضها لكل شيء وكل شخص؟ ولماذا تشعر أنها مستعدة للتخلص من حياتها إن كان التصالح مع العجز هو آخر حيلة لها في هذه الحياة؟

تغمض عينيها وتستعيد بداية علاقتها مع أكيتو، وكيف أنه بمجرد أن أحبها أصبحت كائنًا ذا قيمة يشعر بأن الحياة أخيرًا اعترفت بوجوده. كانا يمارسان الجنس في الأيام الأولى بوحشية، لكنها كانت حين تقترب من النشوة تتسرب إلى وعيها فكرة أن ثدييها صغيران كأثر لدغتي بعوضة لتفسد عليها متعتها. وبعد أسابيع قليلة لم تلبث أن فقدت شغفها بـ أكيتو وأصبح باهتًا شأنه شأن الأشياء الأخرى التي زهدت فيها بعد الحصول عليها. لكن ذلك لم يمنعها من الاحتفاظ به، فهو يعطي يومها روتينًا واضحًا ويدعمها نفسيًّا وماديًّا، يحل مشكلاتها الصغيرة من إيجاد مكان للسكن أو دفع رسوم الجامعة وحتى تسليك المرحاض الذي يواصل الانسداد مرة كل شهر تقريبا. أو ربما لأن عقدة نقصه كمهاجر كوري تخلق نوعًا من التوازن في علاقتها به.

ناومي لا تنكر أن الخلل قد يكون فيها هي لا في الآخرين، لذلك لم تعترض حين اقترحت عليها ساكورا أن تزور طبيبًا نفسيًّا. لكن ذلك الأبله لم يتمكن من مساعدتها وظل يصف لها الأدوية التي جعلتها تشعر أنها "روبوت" بعد أن فقدت رغبتها في الجنس والقدرة على الاستمتاع بأي شيء في الحياة.

بعد أن أغلقت كتاب الشعر، راحت تتأمل صورة سيلفيا بلاث على الغلاف الخلفي:
"أخبريني عن اللحظات الأخيرة؟ هل خفتِ؟ هل ندمتِ؟" تغمغم ناومي في عتمة غرفتها الصغيرة. نعم هذه القصائد لا تزيدها إلا شعورا بالغثيان ورغبةً في الموت، لكنها تجد نفسها مشدودةً لكل شاعرةٍ أو روائيةٍ أقدمت على الانتحار. تقرأ كلماتهن وتستمع إلى مقابلاتهن وكأنها تفتش في سِيَرهن عن سبب مقنع لتنهي حياتها. وقفت لتذهب إلى المطبخ، لكنها شعرت بالدوار، فأسندت جسدها إلى المكتب الصغير بجوار السرير ووقفت هناك لدقائق بسروالها الداخلي والـ "تيشرت" الكبير حتى يهدأ دوارها. توجهت بعدها إلى المطبخ، أحضرت زجاجة بيرة وجلست أمام الحاسوب.
"إن كنت تظن أنك غير قابل للإنقاذ اتصل بنا، نحن هنا لمساعدتك" وجدت هذه الرسالة في محادثة تابعة للمجموعة المغلقة التي انضمت إليها منذ شهرين على فايسبوك من أجل مساعدتها على التخلص من إدمان الكحول.

عندما ذهبت للقاء أعضاء المجموعة، وبدل أن تستمع إلى مشاكلهم وتتعاطف معهم، وجدت نفسها تصدر الأحكام عليهم وتنعتهم في رأسها بأقبح الصفات، وهذا ما جعلها تتوقف عن الذهاب مرة أخرى. لكن هذه العبارة أثارت فضولها. "أظنه الغموض"، قالت لنفسها. "الشيء الوحيد الذي يثيرني". تناولت هاتفها وضغطت على زر التشغيل ثم طلبت الرقم.

***

وقفت ناومي أمام البناية الفاخرة في شارع "كاراسوما" تبحث في اللوحات المعدنية عند البوابة عن اسم مكتب LifeTreats للاستشارات النفسية. ضاقت أنفاسها بعد أن قرأت كل اللوحات مرتين دون أن تجد

اسم المكتب. أخرجت هاتفها واتصلت بالرقم الذي حصلت عليه من فرع المكتب في كيتاماتشي والذي نصحها بالتوجه إلى فرع كاراسوما.

"آلو.. اسمي ناومي وتانابي، وعندي موعد مع السيد هاتادا الآن، لكني لم أجد اسم المكتب على بوابة البناية. أنا هنا أمام البناية في مواجهة مول "إيون".

"نعم.. أنتِ في المكان الصحيح. اصعدي إلى الطابق السابع، وحين تخرجين من باب المصعد، توجهي يسارًا حتى نهاية الممر، ثم يسارًا مرة أخرى حتى نهاية الممر الآخر. هناك ستجدين بابًا مفتوحًا، ادخلي منه، ستجدين على يمينك سُلمًا، انزلي منه إلى الطابق الأسفل، ستجدين بابًا آخر مغلقًا مكتوب عليه LifeTreats، اطرقي عليه ثلاث مرات. هناك سيكون السيد هاتادا في انتظارك".

لم تفكر ناومي كثيرا في هذه الطريقة المؤامراتية التي وصلت بها إلى المكتب، ولا بالمبلغ الكبير الذي دفعته لتسدد رسوم الاستشارة بعد أن باعت أسورة من الذهب كان قد أهداها إياها أكيتو. وعدها من التقت به في المكتب بإيجاد حل جذري ودائم لجميع مشاكلها النفسية والعاطفية. لم يعد لديها شيء تخسره. إما أن يفي المكتب بوعوده وإما أن تستسلم لحقيقة أنه لا توجد أية حلول لإنسانة أصابها العطب مثلها.

يذكرها السيد هاتادا قليلا بـ أكيتو حين التقت به للمرة الأولى. بدا لها أنيقا وهادئا، وكان هناك شيء من السحر في شعره الذي تتغير درجة لونه الرمادي عند كل التفاتة. كما كانت له نفس نبرة الصوت الواثقة تقريبا خاصة حين يقول كلمة "بالفعل" ويكررها مرتين بابتسامة مريحة. بعد أن فقدت منحتها الدراسية وعملها في صالون التجميل ثم محل الأزهار، أخبرتها صديقتها ساكورا أن البار الذي تعمل فيه يطلب فتيات للعمل، فأجابتها ناومي أنها لا تجيد أي عمل، ولا تستطيع أن تحمل صينية عليها كؤوس بيرة، بسبب الرعشة التي تصيب يديها. طمأنتها ساكورا أنها لن تعمل نادلة هناك، بل مضيفة. وكل ما عليها فِعله هو الجلوس مع الضيف، وملاطفته ومشاركته شرب بعض الكحول والاستماع إليه.

"أنا لست عاهرة يا ساكورا" قالت بغضب.

"يبدو أنك لا تفهمين، أيتها الريفية الساذجة. الموضوع لا علاقة له بالدعارة. ستكونين مجرد مستمعة. وأحيانًا عليكِ أن تلعبي دور المستشار النفسي أو الاجتماعي، وهذه ليست مشكلة، فأنت مولعة بعلم النفس وتهزمين أي شخص في المناقشات التي تدور حول الطبيعة البشرية. ألم أقل لك مرارًا إنك قادرةٌ على حل

كل مشاكل البشر إلا مشكلتك أنت؟ ثم إنك ستشربين كل أنواع الكحول الفاخر مجانًا بدلًا من الويسكي الرخيص الذي تشربينه كل يوم".

التقت ناومي بكل أنواع الرجال في أثناء عملها في البار. كانت حريصة ألا يقترب منها أحدٌ إلا في حدود عملها. كل أسبوع تقريبًا كان يقع رجلٌ جديدٌ في حبها ويطلب منها الخروج معه، لكنها كانت تقول بحزم إن سياسة البار لا تسمح لها بذلك، وإنها تصلح لحوار ساعتين فقط ولا تصلح لأي شيء آخر. صحيح أن سياسة البار تمنع الفتيات من اللقاء بالزبائن خارج إطار العمل، لكنها كانت تعرف أن جميع الفتيات تقريبًا كُنَّ يُقِمن علاقاتٍ مؤقتةً أو دائمة مع زبائنهن مقابل المال، بما فيهن ساكورا. لكن إصرار ناومي على رفض دعوات الزبائن لها بالخروج معهم، جعلها مرغوبة أكثر رغم أنها لم تكن الأجمل، وكان كثير منهم، يعودون مجددًا لمجرد الحديث معها وتقديم أغلى أنواع الويسكي والبراندي والشمبانيا لها. وحين ظهر أكيتو أمامها، في تلك اللحظة فقط، تغيَّر كل شيء.

سألها السيد هاتادا عن علاقتها بوالدتها ووالدها وعما إذا كانت طفولتها سعيدة. صمتت مطولًا وراحت تتفحص الصبَّارة الصغيرة التي تنمو في إناء بحجم اليد على طرف المكتب بالقرب منها. شعرت بشيء من الارتباك عندما همت بالحديث عن والدتها. ماذا تقول له؟ هل تخبره أن والدتها اختفت من البيت بلا أسباب حين كانت ناومي في الرابعة من عمرها؟ حاولت أن تتنصل من الإجابة عن سؤاله، وباشرت بالحديث عن والدها الذي تُوفي بعد خمسة أعوام من هرب زوجته، لكن السيد هاتادا لم يكتف بجوابها وعاد ثانيةً للسؤال عن والدتها.

"لا أعرف حتى شكل وجهها. أوكي؟" قالت ناومي بانفعال وهي ترفع حاجبيها.

عمل والد ناومي على محو كل أثر لزوجته بعد أن تركته، فقام بقص وجهها من جميع الصور التي جمعتهما. وإذا بألبوم العائلة يتحول إلى مجموعة من الصور المقوَّرة بحيث يظهر بياض الألبوم تحت شكل الإنسان الفارغ الذي خلفته عملية القص. لطالما حدَّقت ناومي في الرأس الفارغ فوق رأسها في الصور وفي اليد الغريبة التي على كتف والدها. وضعت إصبعها فوق تلك اليد وتخيلت ملامح والدتها. ربما كانت في التاسعة من عمرها عندما وجدت صورة في أحد الأدراج يظهر فيها نصف وجه أمها. كان والدها قد مزق تلك الصورة بيده بدلا من استخدام المقص فبقي نصف وجهها ظاهرا. وعلى الرغم من أن الصورة كانت قد

التقطت من مسافة بعيدة بدقة منخفضة فإنها كانت المنجم الذي استخرجت منه ناومي مادة لبناء وجهٍ متخيل للمرأة الأهم في حياتها. وجه الأم التي تخلت عنها.

تبنَّت ناومي مع مرور الوقت تفاصيل الوجه الذي رسمته في مخيلتها. وكلما رأت أمها في أحلامها كان يظهر ذلك الوجه، وعندما تتخيل، وهي تلعب في الحديقة، أن امرأة ستفتح باب سيارة غريبة وتترجل لتسأل عن ابنتها ناومي كان يظهر ذلك الوجه أيضا. أقامت ناومي علاقة حميمة مع ذلك الوجه لسنوات إلى أن جاء اليوم الذي اكتشفت فيه أنه لم يكن سوى وجه لممثلة مغمورة استبطنت ناومي ملامحه في طفولتها وألصقته بوجه والدتها. بكت في ذلك النهار وكأن أمها غادرت للتو. بكت كمن خسر أمه للمرة الثانية قبل أن يبلغ سن الرشد. لا تذكر ناومي متى توقفت عن التفتيش عن والدتها في محركات البحث. أكد لها واتانابي أنها لا بد أن تكون قد غيَّرت اسمها حين رحلت لأن أحدًا لم يستطع اقتفاء أثرها.

أمضى السيد هاتادا أكثر من دقيقة في انتظار جواب ناومي بشأن والدتها، ثم غيَّر الموضوع وسألها على استحياء "هل هناك شخص ثالث كان له أثر مباشر في حياتك؟".
"واتانابي هو كل عائلتي" قالت ناومي وهي تضغط بإبهامها على رأس إحدى شوكات الصبار وكأنها تختبر حدة الشوكة. "أخبريني المزيد عن السيد واتانابي" قال السيد هاتادا وهو يعقد يديه أمامه فوق المكتب.
لاحظ أن كلامها غير متَّسق، فأحيانًا تصوّر واتانابي في صورة المنقذ المساعد وأحيانًا أخرى تُظهِر نحوه شعورًا بالنّفور وبالقرف الشّديد.

"هل آذاك جسديا؟" سأل السيد هاتادا بينما اخترقت الشوكة أصبع ناومي فشهقت وأرجعت يدها إلى الوراء ثم ضغطت عليها بإبهامها الآخر. ناولها السيد هاتادا منديلًا ورقيًّا ولم يكرر سؤاله، بل راح يشرح لها الخدمة التي يستطيع تقديمها لها بكل شفافية.

طلبت ناومي فرصة للتفكير بالأمر ووعدته أنها ستتواصل معه خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام. لم يكن هذا التروي من طباعها، لكنها ولسبب تجهله، أرادت أن ترجع خطوة إلى الوراء لتتمكن من تأمُّل ذلك العرض وكأنَّه عملٌ فنيٌّ معقدٌ يدعوها لفك طلاسمه. للموت رائحة، بل روائح، إحداها كانت تفوح من عصير العنب الذي قدمه لها السيد هاتادا وهو يشرح لها ذاك "الحل الجذري" لجميع مشاكلها. السيد هاتادا ساحر بكل ما

تعنيه الكلمة. حل لها اللغز بثلاث عبارات قصيرة "أنت تريدين الموت.. أنت تخشين الموت.. نحن لدينا الحل". بدت لها هذه الكلمات كقصيدة هايكو تلخص ورطتها مع الحياة والمخرج من هذه الورطة في الوقت ذاته. للموت طعمٌ أيضًا، ذاقته وهي تصغي للسيد هاتادا الذي كان يشرح لها معضلتها. راحت ترتشف العصير بينما تسمح للفضول بأن يتسلل إلى رأسها الخَدِر ويتمكن منها. فضولٌ يشي بالمغامرة، ومغامرةٌ تفضي إلى السكون والراحة الأبدية.

كان شعور ناومي بالراحة بعد خروجها من مكتب السيد هاتادا، غريبًا عليها تمامًا. فقد اختفى ذلك الضِّيق الذي كان يسيطر على حياتها، ويجعل من عملية التنفس أمرًا شاقا. والشعور بالغثيان، الذي يتملكها كلما فتحت باب غرفتها الصغيرة وهاجمتها الوحدة، تَراجَع في تلك الليلة أيضًا. تركت حقيبتها على الأرض وارتمت فوق السرير وهي تشعر أن لها أجنحة، وتكاد من الغبطة أن تحلق عاليًا مع الطيور.
"إيماني بالله يشعرني أن هناك من يحمي ظهري، ولن يخذلني أبدًا حتى لو خذلني الجميع" قالت لها إحدى صديقاتها في الماضي البعيد. لقد حسدت ناومي صديقتها على إيمانها وعلى قدرتها للتوصل إلى تلك الثقة المبنية على التخيلات والسرديات، فيما عجزت هي عن الإيمان بأي شيء. ولكنها الآن فهمت! فجأةً، بعد كل تلك السنوات، اختبرت ناومي متعة أن يكون هناك وعد بالخلاص. لا يهم ماذا يحدث غدًا؛ ما إذا نفدت كل نقودها وفرغ حسابها المصرفي، لا يهم ما إذا كانت ستحصل على وظيفة، أم إذا كان أكيتو سيعود إليها أم لا... أصبحت –بعد عرض هاتادا– تُمسِكُ بلجام كل المآزق في حياتها وامتلكت أخيرًا اليد العليا في تقرير مصيرها. شعورٌ خفيٌّ بالفرح اجتاحها حين فكرت أنه بإمكانها الآن، وفي أي لحظة تريدها، الخروج من هذه الحياة وإغلاق الباب وراءها.

حلمت بوالدتها في تلك الليلة. رأتها تسير مولية ظهرها وناومي تمشي وراءها مسرعة. تبعتها في الأسواق والأزقة وصعدت خلفها السلالم. ولكن مهما أسرعت ناومي، لم تكن قادرة على اختصار المسافة التي كانت تفصلها عن أمها، ولم تكن المسافة تزيد أو تنقص. كل ما كانت تريده، هو أن تلمح وجه أمها لمرة واحدة فقط. فلما بدأت أنفاسها تتسارع وشعرت بالاختناق لانقطاع الهواء، جَثَت على ركبتيها من شدة التعب وراحت تنادي: أُمي.. أُمي، ليتحول نداؤها إلى صراخ، لكن المرأة تابعت مسيرها وكأنها صماء، ثم اختفت وسط حشد من النساء اللواتي يلبسن زيًّا موحدًا ولهن قصة الشعر ذاتها.

استيقظت ناومي من كابوسها بأنفاسٍ متلاحقةٍ ووجهٍ مبللٍ بالدموع. التقطت هاتفها وحين لمست زره شعرت بأنَّ ضوء الشاشة الكبيرة سيعميها. ضبطت الهاتف على الـ "نايت مود" وفتحت محرك البحث بأصابع مرتجفة. وحين طبعت اسم والدتها وبدأت البحث، ظهرت النتائج ذاتها والوجوه نفسها. وجوه لفتيات مراهقات وفي العشرين عادة، في البارات والمسابح والحدائق يضحكن بين رفيقاتهن ويمددن ألسنتهن. حيوات لنساءٍ غريباتٍ كانت ترتطم بها وهي تفتش عن المرأة التي أرادت ألا يبحث عنها أحد. المرأة التي وهبتها الحياة ثم سلبتها إياها. انتقلت بين مواقع التواصل الاجتماعي وبحثت عن اسم والدتها دون جدوى، ثم شعرت بموجة غضبٍ أخرى تجتاحها. غضبٌ عارمٌ لم تشعر به منذ مدة ولم يطرده إلَّا التفكير في عرض السيد هاتادا.

على واحدة من ٦٠٠٠ جزيرة يابانية مهجورة يوجد مصنع كبير لإنشاء السيارات أو قطع الغيار. السيد هاتادا لا يعرف بالضبط، ولا يعرف إذا كانت الجزيرة بالقرب من هوكايدو أو روسيا أو على تخوم كيوشو، أم هي جزيرة أوجاشيما في أقصى جنوب اليابان. لا أحد يعرف المكان إلا الوسيط الأخير الذي سيقود ناومي إلى هناك معصوبة العينين في زورق آليّ.

بنود العقد بسيطة: سيتولى المصنع مهمة الموت الرحيم دون ألم، كما سيتكفل بإخفاء هذا الموت عن السلطات وعن أهل المنتحر، بل سيقوم بإبقاء جميع وسائل التواصل الاجتماعي للميت فعَّالة وسيقوم بتزويدها بصور وفيديوهات جديدة معدَّلة بالذكاء الاصطناعي كي تراعي تقدم العمر، وسيقوم بالتواصل بواسطتها مع الأهل بصفة مستمرة.

"معظم من يريدون الانتحار يترددون، لا خوفًا من الموت، بل خوفًا من الآلام التي تصحب الموت. وأكثر هذه الآلام يتعلق بخوف راغبي الانتحار على ذويهم الذين سيكتشفون جثتهم وسيعيشون مع هذه الذكرى المؤلمة إلى الأبد" قال السيد هاتادا حين التقى بها بعد يومين من الزيارة الأولى. "مهمتنا هي التنظيف خلف الميت وعدم ترك أيَّة آثار مؤلمة لأهله. هكذا ستظلين على قيد الحياة وسعيدة في نظر من تحبين".

فكرت ناومي طويلًا فيمن قد يؤذيهم موتها، فلم تجد أحدًا. ساكورا كانت تتوقع انتحارها منذ سنوات، وأكيتو قد يصيبه بعض الحزن، لكنه قد يرتاح من الضغط الكبير الذي جلبته إلى حياته. قبل أن تقول للسيد هاتادا إنه لا يوجد أي شخص يكترث لحياتها أو موتها، تذكرت وتانابي، ذلك العجوز الذي تكفل بتربيتها بعد أن مات أبوها، والذي ظلت ترسل إليه رسالة قصيرة كل شهر ليطمئن أنها بخير، حتى كتب لها قبل عامين

إنه يشعر أنها تسير في طريق لا يرضيه. كتبت اسمه وبياناته وقالت للسيد هاتادا إنه ليس لديه حسابات على وسائل التواصل الاجتماعي، وإنها ستكتب له عشرين رسالة بخط يدها وترجو أن يرسل المصنع إليه واحدة منها شهريًا. "لا أظنه سيعيش أكثر من ذلك" همست ناومي لنفسها.
في مقابل كل هذه الخدمات يتكفل "المنتحر" بالعمل في المصنع لمدة تُراوح بين ثلاثة أشهر وسنة يقدم فيها الخدمات التي يطلبها مدير المصنع منه دون تردد أو تخاذل قبل أن يحظى بالموت الرحيم وما بعده من خدمات.

سافرت ناومي بالطائرة إلى هاكوداته، ثم ركبت سفينة إلى شبه جزيرة شيموكيتا، حيث كان ينتظرها وسيط يعتمر قبعة حمراء، وحين وضع العصابة فوق عينيها، ليقلها إلى جزيرة أخرى، بقيت صورة القبعة الحمراء داخل عينيها تسبح في السواد كأنها آخر ما سيرافقها في تلك الرحلة المجهولة. من الجزيرة تلك، استقلت قاربًا آخر مع وسيطٍ آخر إلى جزيرةٍ أخرى، ومنها إلى الجزيرة المنشودة. كان الأمر كله أشبه بحلم. لم تستطع ناومي أن تحدد الشعور الذي انتابها وهي تخوض رحلة بلا عودة، دون أن ترى شيئًا من الطريق أو البحر، ودون أن تتطلع إلى شيء بعينه عند انتهاء السفر. لم يكن مهمًّا لها مكان الجزيرة، فكل ما كان يعنيها، هو أنّ كل شيء سينتهي على تلك الجزيرة. لا تدري كيف، وهي المترددة أبدًا، اتخذت قرارها بهذه السرعة ولم تفكر للحظة واحدة في التراجع عنه.

وجدت نفسها تتخيل تغيُّر درجة زرقة الماء وأنواع الأسماك التي تسبح في هذه المنطقة، لكنها ما لبثت أن هزت رأسها وكأنها تُذكّر نفسها بأنها هنا من أجل سبب آخر. ربما أدركت في تلك اللحظة أن التخيل هو أحد عوارض الأمل. حتى عندما يتخيل أحدنا شيئًا مُريعًا، فهذا يحدث فقط من باب رفضه له وخوفه على حياته. رفضت بكل كيانها أن تنسحب إلى الحالة الشعورية تلك، ولم تشعر بالراحة إلا حين أخبرها الوسيط أنهما على وشك الوصول إلى الجزيرة الأخيرة، فحولت انتباهها لنسمات الهواء ورذاذ الماء الذي كان يداعب الجزء المكشوف من وجهها. أخذت نفسًا عميقا كأنه آخر أنفاسها، لكنها لم تشعر بالندم أو الأسى، بل استحضرت هذا اليقين الغريب الذي جلبه اقتراب الموت إلى دواخلها. عندها شعرت بشيء يشبه الرضا عن النفس لأنها أخيرًا ستنجح في شيء ما، حتى لو كان هذا الشيء، آخر ما تفعله في حياتها.

***

٣

قبل أن تأتي ناومي الى كيوتو كطالبة منذ سنوات، رسمت للمدينة صورة ذهنية كما تفعل عادة لكل مكانٍ قبل أن تزوره، فتخيلتها، صاخبة تكثر فيها المباني الشاهقة والمعابد العتيقة والأنوار التي لا تنطفئ، وبهذا، خففت عن نفسها وقع الضياع والشعور بالغربة في مدينة شاسعة تلفها الضوضاء. لكنها، هذه المرة، وجدت نفسها عاجزة عن تخيُّل المكان الذي يأخذها المركب إليه. في البداية رسمت صورة في ذهنها لمبنى يشبه الفنادق التجارية ذات الأسعار المنخفضة، ثم تخيلت صورة المدرسة الداخلية التي أمضت فيها سنة بعد موت والدها. فكرت في هذه المصيدة التي تسمى الخيال، وكيف أن الفنانين والروائيين يبالغون في تقدير قيمته. فالخيال كان قد خذلها كثيرا. وعلى قدر إيمانها به كانت خيبتها، وعلى قدر ولائها للحلم كانت سقطاتها. تلك السقطات التي تستطيع أن تستشعرها في وجدانها لكنها تعجز عن ربطها بأحداث معينة. وها قد تخطى عمرها الثلاثين، ولا تعلم إلى أيِّ شيءٍ كانت تصبو في فورة شبابها. فغالبًا ما تسأل ناومي نفسها عن تلك الأحلام التي أرَّقتها على فراشها الأرضي في قريتها البعيدة والتي دفعتها لتختبر الحياة في مدينةٍ كبيرةٍ ومخيفةٍ مثل كيوتو، لتجد أن كل ذلك، كان أضغاث أحلام. ربما تخيلت حياةً أكثر سخاءً يستمر فيها اهتمامها وشغفها بكل جديد. لو أنها استطاعت أن تتمسك بالفضول فقط، لما اضطرت إلى المجيء إلى هنا اليوم. تنظر إلى حياتها وكأنها وعاءٌ كبيرٌ صُهرت فيه كل تجاربها وأحلامها وخيالاتها، لكنها لا ترى الآن غير السواد. ولو أن أحدهم رمى كلَّ ذكرياتِها في نارٍ مشتعلةٍ لما مَدَّت يدها لتنقذ أيَّة ذكرى، هذا آخر ما كانت تفكر به ناومي قبل أن يتوقف المركب ومعه صوت هدير المحرك.

شعرت بيدٍ تنزع العصابة عن عينيها، وعندما نظرت حولها عرفت على الفور أن خيالها ما كان ليسعفها أبدًا في تصور هذا المكان. على رصيف المرفأ، حيث تهادى مركبان صغيران باللون الأبيض انعكس لمعان الماء على هيكلهما، كان موظفٌ أربعينيٌّ بانتظارها. حيَّاها بانحناءة كاملة مُلصِقًا كفَّيه بفخذيه وكأنه يصلي، فردّت ناومي التحية بإيماءة مقتضبة من رأسها. بعد أن أشار إليها أن تتبعه، مشت ناومي وراءه على الرصيف الطويل باتجاه مبنى مستدير ضخم، تعلوه قُبةٌ تشبه ظهر السلحفاة. فوجئت فور دخولها بنفق

ضيق طويل يمتد من مدخل القبة ولا يعلم أحد أين ينتهي. سارت خلف الموظف في النفق المتعرج الذي يشبه عنق الزجاجة، وصلت إلى غرفة كبيرة تتوسطها مقاعد مرصوصة بجانب بعضها، كأنها قاعة مسرح تغطيها القبة التي رأتها من الخارج. في الجانب الآخر من الغرفة فتحة لنفق آخر متعرج أضيق من الذي أوصلها للغرفة. وأول ما لاحظته ناومي كان انعدام ضوء الشمس داخل المكان ولولا وجود بعض لمبات فلورسونتية خافتة؛ لكان المبنى من الداخل غارقا في الظلام.

أمام المكتب الصغير، وبعد المرور بعدة أبواب بعد الخروج من القاعة، سلَّمها الموظف كيسًا من القماش وطلب منها أن تعطيه كل حاجياتها، موضحًا أنها لا تحتاج إلى أي شيء سوى ما في داخل الكيس. مدت يدها وأعطته حقيبة ظهرها دونما اعتراض. حين قلبت محتويات الكيس، وجدت في داخله "أوفرولين" وبيجامتين ومنشفة وفرشاة ومعجون أسنان وقطعة من الصابون وعلبة سدادات قطنية تُستخدم في أثناء العادة الشهرية. أعادت خصلة من شعرها الأسود القصير ودستها وراء أذنها ثم رفعت نظرها كي توجه سؤالًا للموظف لتجد أنه أخذ حقيبتها واختفى. انتظرته بضع دقائق وراحت تتأمل الرفوف التي وُضعت عليها أوفرولات رمادية مطوية بدقة وموضبة فوق بعضها بعناية وكأنها في محل لبيع الملابس. حين عاد الموظف، طلبت منه مُزيلًا لرائحة العرق مضيفة أنه لا يهمها النوع ولا إذا ما كان للرجال أم النساء، فاعتذر منها، قائلا إن قانون المصنع لا يسمح بهذا، وإنها ستتعرف على بقية القواعد والتعليمات في الاجتماع بعد نصف ساعة.

"تبًا للقوانين التي تنتصر لروائح الإبط النتنة" قالت بانفعال مطالبة الموظف أن يعيد لها حقيبتها، لكنه رفض ببرودٍ طالبًا منها أن تتبعه ليرشدها إلى كبائن تبديل الثياب. انتظرها أمام الكابينة ليتسلم ثيابها، وتعمَّدت هي أن تتأخر نكاية بالقوانين الحمقاء. حين خلعت بنطال الجينز، وقع منه مصباح جيب صغير، تناولته بسرعة ودسته في حمالة صدرها قبل أن يراه الموظف. ولربما فعلت ذلك انتقامًا منه أو احتجاجًا على التعليمات التي بدت لها متسلطة، أو لأنها كانت ببساطة معتادة على المشاكسة.

سار الموظف أمامها، في ممراتٍ ضيقةٍ متعرجة إلى أن وصلا إلى عنبرٍ كبير. عرفت ناومي أنه عنبر النوم عندما رأت أسِرَّة من طابقين مصطفة على جانبيه. رأت بعض النسوة يجلسن فوق الأسِرَّة بأوفرولات رمادية مطابقة لأوفرول ناومي. مشت في الممر الذي يفصل الأسِرَّة دون أن تنظر إلى وجه أي منهن، لكنها رأت بطرف عينها أن بعض الرؤوس تلاحقها لمعاينتها والتعرف على الزميلة الجديدة.

"مع العاملة الأخيرة يكون العدد قد اكتمل. بعد نصف ساعة سوف تلتحقن بباقي الزملاء في القاعة الرئيسية حيث سيتم إعلامكن بالمهام والقواعد التي يجب مراعاتها خلال فترة تواجدكن هنا. والآن سأذهب، وأرسل أحد الموظفين لاصطحابكن في الوقت المحدد" قال الموظف وانحنى مستأذنا وغادر.

اقتربت من ناومي امرأةٌ هزيلةُ القوام بشرتها شاحبة وشعرها قصير جدًّا.
"اسمي أسوكا، وأنام على السرير الذي إلى يمينك" قالت مُعرّفة عن نفسها.
"أنا ناومي" قالت بارتباك. لم يكن بإمكانها أن تُتبع اسمها بجملة "سررت بالتعرف إليك" أو "تشرفت بمعرفتك" لأن تلك العباراتِ تُقالُ في الأيام العادية وفي الحالات الطبيعية. ولكن في هذا المكان، حيث جاءت كل هؤلاء النساء من أجل أن يُمِتن كلَّ محاولةٍ للتملق، ستبدو جملة كهذه مجاملة تافهة ومقيتة، هذا ما فكرت به ناومي وهي تسند ذقنها بكفيها وتحدق إلى حذائها ذي الأربطة البيضاء.
"ما الذي يمكن أن يأتي بشابة جميلة مثلك تتمتع بكامل صحتها إلى هذا المكان؟" سألت جارتها بشيء من الرقة. ترددت ناومي، ثم لوَّحت بيدها باستخفاف قائلة "إنها الحياة!" وصمتت. عندما أخبرتها أسوكا أن السرطان قد عاد إليها للمرة الثالثة وهي لم تكمل عامها الخامس والأربعين بعد، تنبهت ناومي إلى أن بشرة المرأة الشاحبة وشعرها القصير يبوحان بمرضها.
"آسفة لسماع هذا" قالت ذلك وهي تتجنب النظر في عيني المرأة الحزينة.

شهقت ناومي حين رأت صليبًا ضخمًا يتدلى من السرير العلوي فوق رأسها. كانت تجلس على حافة سريرها، نظرت إلى أعلى، وإذا برأس امرأة يطل وكأنه نورسٌ كبيرٌ ضل طريقه إلى هذا المكان.
"مرحبا بجارتي" قالت المرأة ثم أنزلت رجليها ووضعتها على السلم كي تنزل من السرير.
" أنا هاناكو" قالت وهي واقفة إلى جانب سرير ناومي حافية القدمين وقد ظهرت ضخامة جسدها واكتناز ردفيها وقصر قامتها، بينما تدلى من خلف رأسها وشاحٌ أسود وصل إلى منتصف ظهرها، فابتسمت ناومي وهزت رأسها محاولة أن تكتم ضحكتها أمام هذا الكائن غريب الأطوار.
"لو كنت مكانك لقبِلت بتبادل الأسِرَّة لأن أي حادثة سقوط من طرفي ستقضي عليك بطريقة مريعة" قالت هاناكو وكأنها تعتذر عن وزنها.

" لا عليك سأبدل مكاني معك، ولكن ليس لأني خائفة من حادثة سقوط، بل لأريحك من عبء التسلق والنزول" قالت ناومي وهي تربت على درجات السلم الخشبي الذي يصل السرير السفلي بالعلوي. لاحقًا، في طريقها إلى القاعة، لاحظت ناومي أن الممرات الضيقة التي قطعتها في طريقها إلى العنبر قد اختفت. خرجت النساء برفقة الموظف من عنبر النوم إلى غرفة أخرى ومن تلك الغرفة إلى القاعة الرئيسية التي مرت بها ناومي حين وصلت إلى الجزيرة.

في الصالة الكبيرة، جلس الجميع، الرجال والنساء، على المقاعد وكأنهم في قاعة محاضرات. بمواجهة المقاعد، تنتصب شاشة عملاقة تحتل جدارًا كبيرًا في صدر القاعة. اتخذ الحضور أماكنهم وانتظروا. لم يكن أحدٌ منهم يعرف ماذا ينتظر، ولكنهم جلسوا هناك بصمت وصبر. فالوقت هو كل ما يملكونه. والوقت أيضا، هو كل ما يريدون التخلص منه.

وقف السيد "شيماكامي" أمام المرآة وقد بدا على وجهه الإعياء. تلاحقت أنفاسه وهو يحاول أن يُثبِّت ذراعه اليمنى بيده اليسرى ليسيطر على الارتجاف الذي غالبًا ما ينتابه وهو في حالة توتر. فتح الصنبور وحدق في الماء الذي ينساب إلى الحوض لأكثر من دقيقة قبل أن يبلل يديه ويغسل وجهه. جفف يديه قبل أن يُخرج من جيب بزَّته علبة بلاستيكية مدورة. رج العلبة وأفرغ في راحة يده حبتي دواء بيضاوين، دسهما في فمه، ثم ملأ كفيه بالماء وشرب. رفع رأسه وهو يتمتم بصوت مرتعش "أعزائي الأموات، مرحبا بكم". خرج من الحمام وراح يمشي بخطى متثاقلة ويُجري تدريبات التنفس التي نصحه بها طبيب المصنع؛ يأخذ شهيقًا طويلًا يتبعه زفيرٌ أطول، حتى وصل إلى مكتبه.

جميع الجالسين في القاعة الرئيسية كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة هذا الأسبوع. راح بعضهم يتبادل الأحاديث مع من يجاورهم، بصوت خافت، بينما ينتظرون ظهور الشخص الذي سيملي عليهم واجباتهم. ظهروا بأوفرولاتهم الرمادية –التي تتماهى مع رتابة اللون الرمادي الفاتح للجدران والكراسي– وكأنهم سجناء أو رهائن تم خطفهم في غفلة منهم. لم يكن من الصعب على ناومي ملاحظة أن "العمال" قد جاؤوا من كل أرجاء اليابان ومن جميع الطبقات الاجتماعية، وأن عدد الرجال مُساوٍ لعدد النساء تقريبا. كما لاحظت أن الفئات العمرية تتفاوت، وتساءلت في نفسها ما إذا كان هذا الأمر جيدًا. بدت لها كل الوجوه واجمة كأن على رأسها الطير. ولم يزعجها سوى رجلٍ ثلاثيني نحيف يعاني من فرط الحركة فيكثر من الالتفات يُمنةً

ويُسرةً، وما إن يجلس حتى يعاود الوقوف مجددًا. راقبته لدقائق وتسرَّب إليها شعور بالتوتر كانت تتجنبه منذ وصولها إلى المصنع. فقط حين التقت عيناهما تسمَّر للحظات وكأنه رأى وجها يعرفه، فأشاحت هي بنظرها عنه بارتباك مَن ضُبط يتلصص على شيء لا يعنيه. ستعلم لاحقًا أن اسمه إتشيرو وسوف تشغلها قصته طويلا.

"المدير قادم"، قال حارس الأمن بصوت صارم ومرتفع، فوقف أربعةٌ من الجالسين في الصف الأول، وبعد لحظات من التردد، تبعهم الجميع. لكن المدير لم يدخل من باب القاعة الخلفي كما توقعوا، بل ظهر على الشاشة الكبيرة المعلقة في صدر القاعة. رجل نحيف وأنيق، يجلس خلف مكتبه مرتديًا بزة رمادية وربطة عنق سوداء. تشي ملامحه وشعره الفضي اللامع، الذي بدأ يتراجع عند الجبين، أنه في العقد السابع من العمر. لم يكن هناك أثر لنوبة الهلع التي انتابته في الحمام قبل قليل، بل بدا هادئًا وواثقًا كما يجدر بمدير مصنع. اتكأ بذراعه اليسرى على مكتبه الكبير ليقترب من الميكروفون، ومدَّ يده ليمسك بيمينه تصميمًا فنيًّا لزجاجة حلزونية بداخلها زجاجة أخرى حلزونية. من جهة اليسار ظهرت على الجدار خلفه صورة لامرأةٍ ذات ملامح غربية ترتدي قبعة حمراء وترفع أصبعيها لتشهر علامة النصر. كانت الصالة تغرق في الصمت حين تنحنح المدير وبدأ الكلام:

"أعزائي الأموات،

مرحبا بكم في محطتكم الأخيرة. أنتم اليوم هنا لأن فيكم من الشجاعة ما جعلكم تتخذون قرار الموت، ولكن فيكم من الجُبن ما جعلكم عاجزين عن تنفيذه بأنفسكم. لا بأس. كلنا نريد أن نأكل لحم البقر، لكن لا يريد أحدنا أن يذبح البقرة بنفسه. من الجيد أن لكل واحدٍ منا مهمة ما في هذه الحياة. حتى هؤلاء الذين لا يعرفون مهمتهم، هناك من يتكفل بها. وأنا موجود هنا لأقوم بالمهمة بالنيابة عنكم.

أتوقع أنكم قد قرأتم العقد المبرم بيننا بعناية، فلا حاجة لتكرار بنوده مرة أخرى. فقط أريد أن أُذكّركم أن هذه ليست لعبة، وما دمتم وصلتم بأقدامكم إلى هذا المكان، فلا سبيل لكم للخروج منه إلا ذرات من الرماد. حتى رمادكم لن يخرج من هنا، بل سيُدفن مع أسراركم على هذه الجزيرة.

ولكن هناك بعض القواعد الإضافية التي أود أن أحيطكم علمًا بها: يُمنع عليكم الاقتراب من أسوار المصنع! من غير المسموح به، إجراء محادثات جانبية بين العمال أثناء ساعات الدوام! ممنوع ممارسة الجنس أو العادة السرية! المكان كله مراقب بالكاميرات والسماعات. وحين أقول المكان كله، فأنا أعني ما أقول.

بالنسبة للطعام، هناك وجبة واحدة فقط عند الثانية عشرة ظهرًا، كل يوم سيتم تقديم نفس الوجبة: سمك مسلوق، بطاطا مسلوقة وباذنجان مسلوق، من دون ملح أو صلصة الصويا. من يريد ملحًا أو صلصة، عليه العمل ساعتين إضافيتين كل يوم. ومن يريد الحصول على وجبة ثانية فليتحدث مع الموظف المختص من أجل تحديد المهمة التي سيقوم بها مقابل الوجبة. من يريد سيجارة أو فنجان قهوة، عليه أن يعمل خمس ساعات إضافية، أما كأس البيرة أو الويسكي أو الساكي فيتطلب الحصول على أي منها العمل عشر ساعات إضافية. لقد سلَّمتم هواتفكم وساعاتكم وحافظات نقودكم للأمن عند البوابة. إذا اكتشفنا أن أحدكم يُخفي أية وسيلة للتواصل مع العالم الخارجي فسيتم زجه في سجن انفرادي لأجل غير مسمى، وسيظل هناك إلى الأبد دون أن يعيش أو يموت".

رفع أحدهم يده ليطرح سؤالا، فجاء رد المدير بحسمٍ وهو يقبض على القارورة الحلزونية:
"ممنوع طرح الأسئلة. أنتم هنا لأنكم سألتم كل أسئلتكم في الخارج ولم تتلقوا ما تطمحون إليه من إجابات. لا توجد هنا إلا إجابةٌ واحدة: إنها النهاية، فابذلوا قصارى جهدكم كي لا تكون نهاية مخزية!".

توقف قليلا عن الكلام وعدل ربطة عنقه ثم أكمل بهدوء:
"كل يوم، وبعد الغداء سنلتقي هنا، وسيحكي لنا كل منكم قصته. أنصحكم ألا تحاولوا تجميل قصصكم، فالإنكار يؤجل الموت، والكذب يجعلكم تتشبثون بالحياة أكثر. اعتبروا رفقاء الموت الجالسين معكم هنا، عائلتكم الجديدة. تحدثوا عن ماضيكم بشفافية، ولا تكرروا الأخطاء التي جاءت بكم إلى هنا!".

نطق الجملة الأخيرة ثم أُقفلت الشاشة. وبعد ذلك بدأ العمال يتساءلون فيما بينهم عن طبيعة العمل المنوط بهم واستغربوا أن المدير تناول تفاصيل كثيرة دون أن يذكر شيئًا عن العمل الذي سيقومون به في المصنع. في اليوم التالي، استيقظ العمال على صوت الصافرات في تمام السادسة صباحًا، ارتدوا أوفرولاتهم وتحركوا في مجموعات إلى عنبر كبير فارغ. ثم طُلب إلى كلٍّ منهم أن يأخذ مكانه على الأرض وراء صندوقين من الكرتون. ظنَّ معظمهم أن هذه مرحلةٌ أوليةٌ من أجل إعدادهم للدخول إلى قاعات المصنع الحقيقية حيث الماكينات وخطوط الإنتاج، ولكن مع توالي الساعات اكتشفوا أنهم لن ينتقلوا إلى أي مصنع، بل سيقومون فقط بِعَدّ كُراتٍ معدنية صغيرة، ويضعون كل ٤٤ منها في داخل أسطوانة معدنية بطول كف اليد، وبعدها

يغلقون الأسطوانة من الخلف بغطاء له زوائد معدنية، ثم يضعون كل ٨٨ أسطوانة في صندوق كرتوني كبير. وفي نهاية النهار، يكدّسون الصناديق عند الباب ليجدوها وقد اختفت حين يعودون في الصباح، ليُعيدوا الكَرَّة نفسها في اليوم التالي.

بعد أن انتهى الدوام في الساعة السادسة مساءً، ذهبت ناومي لتستخدم المرحاض قبل أن تعود لتواصل ساعات العمل الإضافية، فقد قررت في اليوم الثالث من عملها في المصنع، أن تعمل خمس ساعات إضافية كل يوم للحصول على كأس من الويسكي كل يومين. وجدت أن هذا العمل الروبوتي يلائمها وينقذها من الحديث مع زميلاتها في عنبر النوم. حين فتحت الباب المؤدي إلى الردهة أمام المراحيض رأت الراهبة السمينة، التي تنام في السرير السفلي، تمسح المرايا بينما يهتز صليبها المعدني الكبير فوق صدرها.

"هاناكو؟! ماذا تفعلين هنا؟" سألت ناومي مستغربة.

"لقد توصلت إلى اتفاقٍ مع الموظف من أجل الحصول على وجبة إضافية" قالت وهي تحف بأظفرها بقعة على المرآة. "الجوع يؤلمني، والوجبة الواحدة عقابٌ أسوأ من الموت" أكملت هاناكو بشيء من الحسرة.

فكرت ناومي في كل الصفقات التي أبرمتها في حياتها لتحصل على "وجبة" إضافية، ثم راحت تفكر في الطريق التي أودت بها إلى مصنع الانتحار.

***

٤

مرت الأسابيع الأولى في المصنع برتابة تشبه الموت. كل شيء بدا مكررًا وجافًّا وكأن كل النهار مجرد شريط فيديو يُعاد من أوله كلما دقت الساعة السادسة صباحا. الوجبات نفسها، الوجوه نفسها، وكذلك المهام المكررة المتمثلة في توزيع الكرات على أسطوانات صغيرة. توطدت علاقة ناومي بالراهبة هاناكو في تلك الأسابيع، وأصبحت هاناكو نسمة منعشة في يوم صيفي مشبع بالرطوبة بالنسبة لناومي التي كانت تكره معظم البشر. كانتا تغسلان أسنانهما عندما خرج الرجل الثلاثيني المصاب بفرط الحركة من المرحاض.

بدا لها عن قرب نحيفًا بوجهٍ طفوليٍّ وظهْرٍ يميل إلى الانحناء. عندما وجدهما عند المغسلة، ارتبك وظهر عليه بعض التوتر. التقت عيناه بعيني ناومي، لاحظت أنه ميزها، ورأت في عينيه النظرة المتوسلة ذاتها. على الرغم من وجود مغاسل شاغرة فإن الشاب المتوتر خرج من الردهة ووقف ينتظر أمام الباب ريثما تنتهيان. أشارت ناومي بيدها مستفسرة كأنها تسأل عمَّا به. تمضمضت هاناكو وبصقت المياه وقالت "رأيته أكثر من مرة يأخذ طعامه إلى داخل المرحاض. أتصدقين أنني أتضور جوعًا بينما يرمي هذا الجاحد طعامه في كرسي الحمام؟!" قالت هاناكو مستاءة.

"هذا طعامه وهو حر بالتصرف به" أجابت ناومي وهي تغلق أنبوب معجون الأسنان. أرادت أن تسأل هاناكو ما إذا كانت أيضًا ترى أن عينيه تشبهان عيني جروٍ مذعورٍ، لكنها تجاهلت الأمر وأضافت "الليلة سنحضر حلقة اعتراف أخرى. أتمنى أن تكون مسلية" ضحكت ضحكة شريرة ولكزت هاناكو بكوعها وهما في طريقهما إلى عنبر العمل.

كانت حلقات الاعتراف هي الحدث الأكبر وربما الوحيد الذي يستحق الذكر في تلك الأيام المتشابهة. تُرَصّ الكراسي على شكل دائرة غير مكتملة بمواجهة الشاشة ثم يظهر المدير في مكتبه معلنًا اسم أحد العمال أو العاملات، فيقف الشخص المنادى عليه ويبدأ بسرد القصة التي أوصلته إلى قرار الانتحار.

في الجلسة الأولى التي تمت قبل ثلاثة أسابيع، قدَّم المدير فكرة حلقات الاعتراف وشرح أهميتها قائلًا إن الإغريق اخترعوا المسرح كي يرى الجمهور أنفسهم في مأساة أبطال الرواية ويبكوا، فيساعدهم البكاء على التطهر. كما نصحهم بالصدق في سرد حكاياتهم حتى يتخففوا من أثقال الماضي قبل أن يغادروا الحياة. لم تجد ناومي في القصص التي سمعتها في حلقات الاعتراف السابقة شيئًا مثيرًا للاهتمام. هناك قصة الرجل المدمن على الكحول الذي أوصله الإدمان إلى الإفلاس وتسبب في خسارته لعائلته. وقصة أخرى لامرأة تخلى عنها زوجها بعد أن وقع في غرام امرأة تصغرها بعشرين عاما، فدخلت في حالة من الاكتئاب الحاد. ثم كانت قصة الشاب الذي ذاعت شهرته على وسائل التواصل الاجتماعي بسبب تقاريره المثيرة عن رحلاته السياحية، ولكن متابعيه اكتشفوا لاحقًا أنه كان يقوم بتعديل كل الصور والفيديوهات بالفوتوشوب وأنه لم يترك قريته قَط، فجاء الى هنا، للاختباء في حضن الموت من العار الذي يلاحقه. أما أقصر تلك القصص وأقلها غرابة، فجاءت على لسان امرأة في نهاية الستينيات من العمر. وقفت حين سمعت اسمها واختصرت قصتها بجملة واحدة دون ارتباك أو تردد "أشعر بوحدة قاتلة"، قالت ذلك قبل أن تجلس مكانها في سكون مطبق كما الموت. جملة واحدة اخترقت القاعة فخيَّم الصمت على المكان. حتى المدير، الذي

أوصى الجميع بالاستفاضة في السرد، لم يعترض على اختصار أحداث ستين سنة، بجملة مقتضبة من ثلاث كلمات.

خيم بعض التوتر على الجميع وهُم في حالة ترقب قبل الإعلان عن اسم المعترف الجديد. خلال أيام الأسبوع كان البعض يتدرب في سِرّه على تقديم قصته في تلك اللحظة الكاشفة. عندما ظهر المدير على الشاشة، صمت الجميع منتظرين سماع اسم العامل، وإذا به يقلب الأوراق الصغيرة المطوية والموضوعة في إناء زجاجي أمامه ويسحب واحدة ويفتحها. نظر إلى الكاميرا مباشرة ونادي بحماس "السيد كوباياشي" وكأنه يُعلن فوز شخص بجائزة. فوجئ كوباياشي بسماع اسمه ولم يكن جاهزًا لسرد قصته. كان يريد سماع المزيد من القصص حتى يقرر كيف يبدأ حكايته.

ارتبك كوباياشي لأنه لم يكن قد حسم أمره مع موضوع الذاكرة بعد. كان يميل إلى الاعتقاد أن الذاكرة شيءٌ نسبيٌّ وانتقائيٌّ جدًّا، بحيث لا يتذكر الإنسان إلا ما قد يتوافق مع حالته الشعورية والمزاجية في لحظة التذكر، فينسى أو يتناسى كل ما لا يلائم حالته الآنية أو ما لم يسهم هو في حدوثه بشكل مباشر. أراد أن يبدأ حديثه بهذه الفكرة، ويشارك زملاءه حيرته حيال الحياة الموازية التي يخلقها الفرد في وجدانه، بمجرد أن يختار مشاهد معينة من حياته يعرضها على الملأ ويمحو مشاهد أخرى وكأنها لم تحدث قط. كانت له نظرياته عن السرد أيضا والذي اعتبره خيانة للحياة التي تعاش ببطء وتُفهم ببطء، ولا يمكن سرد تفاصيلها في دقائق أو ساعات. كان قد لاحظ سابقًا أن معظم الذين اعترفوا قبله، بدؤوا القصة بكلمة أنا. "أنا مدمن كحول" قال أول معترف، "أنا ربة منزل" قالت المعترفة الأخيرة. أما كوباياشي فلا يعرف من هو، ولم يعثر في قاموس الكلمات التي تعلمها على جملة يبدأ بها حكايته، فهو يعرف أن الحكاية كلها ستظل أسيرة للجملة الأولى التي ينطق بها الراوي.

وقف كوباياشي ومرَّ بعينيه على جميع الجالسين ثم رفع رأسه ونظر إلى القبة وقال:

شجرة الكرز لم تُزهِر هذا الربيع. وجدتي ماتت. ماتت وهي على كرسي المرحاض تصارع إمساكًا مزمنًا. تنهدت بصعوبة وضغطت ضغطة شديدة طويلة أصابتها بجلطة في الدماغ. هكذا بكل بساطة. ماتت وأمعاؤها مليئة بخراء جامد كان قبل ذلك بأيام أُرزًا وباذنجان و"تَتُّو". جدتي كانت مولعة بالنتو وبشجرة

الكرز في حديقتها، وواظبَت على تقديم طبق أرز لبوذا كل صباح. وبوذا، الذي لا يأكل ولا يشرب، لم تطأ قدمه المرحاض يومًا.

بدأ بعض العمال بالتهامس، ثم علا صوت أحدهم يطالب كوباياشي بسرد حكايته هو لا حكاية جدته. ثم قال آخر: "دع بوذا وشأنه وقل لنا لماذا قررت الموت!".
تدخل المدير: "الهدوء من فضلكم. هذه حكايته هو، وله الحق أن يبدأها كيفما يشاء".

تنحنح كوباياشي وأكمل:
لم أبكِ على جدتي، فأنا لا أستطيع البكاء. وأحسد كل من جاؤوا إلى هنا بسبب الحزن أو اليأس أو الألم أو الخوف، فأنا لا أعرف كل هذه المشاعر ولا ما قد يصيب الإنسان من انفعالات بسببها. سمعت بها وحاولت أن أتخيل كيف يكون حال من يختبرها، لكني في كل مرة كنت أصطدم بحالة من الخدر تسيطر على دواخلي. منذ أن ولدت، وربما قبل ذلك أيضًا، وأنا غارق في بحرٍ من الملل والرتابة. الملل لفافة قماشية لا متناهية مقاومة للبلل والألوان ولا تقبل حتى أن تتسخ مثل غطاء الكنبة في بيتنا. الملل هو المادة الأولى للوجود، ولا بد أنه مآل هذا الوجود أيضًا. اقتربتُ من الأربعين، ولم أعرف الحب ولا الغضب ولا الرغبة يومًا. عملت شرطيًّا، فكنت لا أرى فرقًا بين المجرمين وضحاياهم. عملت محررًا في دار للنشر، فكنت أرى كل الروايات عقيمة وكل الحكايات مكررة. أنا أيضًا مكررٌ كموجةٍ تلتف حول نفسها من دون أن تتوقف أو أن تنكسر أبدا.

تسكنني أفكارٌ غريبة مجنونة لا علاقة لها بي. يسكنني بشر متخيلون. أحاول أن أعصر دماغي، أضغط لأُخرِج ولو فكرة واحدة تخصني أنا، لكن رأسي، مثل وجداني، مصاب بإمساك مزمن. ثم أهرب من تلك الحالة، أدقق النظر فيمن حولي، فلا أرى إلا أناسًا يفعلون مثلي. أحوالهم تتشابه مع حالي حتى لو اختلف ماضيهم عن ماضيَّ. يتأوهون، يضغطون لهثًا وراء المال، جلبًا للاهتمام، بحثًا عن مشاكل صغيرة تُنسيهم مشاكل أكبر. يضغطون ويتأوهون بحثًا عن مَخرج، أو بحثًا عن معنى. حتى هنا لم أجد إلا من يتأوهون بحثًا عن الموت. كلنا جالسون على كرسي المرحاض، نضغط ونتأوه.. كلٌّ على طريقته.. والنتيجة في كل الحالات واحدة.

"أُدخل في الموضوع أرجوك ودعك من هذه التأملات الفلسفية. ما هي حكايتك؟" صاح أحدهم. فتدخل المدير مرة أخرى، وذكرهم أن هذه مساحة السيد كوباياشي وحده.

وغير مبالٍ بما سمعه، أكمل كوباياشي حديثه بنبرة هادئة:

قبل عشرة أعوام من وفاتها كانت جدتي تريد موتًا رحيمًا، لكن والدي رفض ذلك وقال إنه لا يتوفر لديها شروط طلب الموت الرحيم في اليابان. قال لها مؤنبًا "ما دمتِ لا ترقدين فاقدة الوعي في السريرِ دون أي أمل في الشفاء، فلا يحق لك الانتحار".

عندها، ردت جدتي مستجدية أبي، "هذا ليس انتحارًا، بل مغادرة طوعية للحياة برضى وامتنان. لقد عشتُ بما يكفي، رأيت كل شيء، تزوجتُ وأنجبتُ أبناءً وبناتٍ وكبر كل أحفادي، عملتُ بجدٍّ وأدَّيت جميع واجباتي، والآن بعد أن مات زوجي وكل القطط التي ربيتها وكل أخوتي وأصدقائي، اكتفيت من الحياة بحلوها ومرها وأريد أن أرقد بسلام. أريد أن أموت بكرامة، ما الضرر في ذلك؟".

توسلت إليه أن يرافقها في رحلة إلى سويسرا، فقد رأت فيلمًا وثائقيًّا يقول إن من سئموا الحياة يستطيعون أن يموتوا هناك بمساعدة طبيب دون تعقيدات. "أنا تعبت يا بُنيّ.. تعبت من الحياة وتعبت من نفسي.. أرجوك!".

أشاح أبي بيده كأنه يهش ذبابة، وقال "ستعيشين". هكذا بكل بساطة، كان والدي يطمح أن تنضم جدتي إلى نادي المئة، فعائلتنا مشهورة بأن أفرادها مُعمِّرون، وبقاء جدتي مدة أطول على قيد الحياة يضيف إلى رصيد العائلة بعضًا من التميز. رصيدها من ماذا؟ من أي شيء. كان والدي تاجرًا يحرص على زيادة رصيده البنكي والمجتمعي والعائلي باستمرار. لطالما حرص على أن ينظر إليه الجميع نظرة إعجاب وتقدير. ولأنه لم يرَ مني يوما نظرة كتلك التي يحبها، أو حتى أي نوع آخر من النظرات، كان يكرهني.

عاشت جدتي بعد ذلك عشرة أعوام كاملة لا تفعل شيئًا سوى البكاء وحدها في سريرها تقاوم الملل وتصارع الخرف والدوار وتحارب الإمساك وآلام الظهر والصدر والرأس والبطن والمفاصل، لتموت بعدها على كرسي المرحاض وتسقط على الأرض والمياه الدافئة تتدفق من شطافةٍ إلكترونية نحو جسدها البارد. لم يفتقدها أحد لساعات إلى أن تسربت المياه من تحت باب الحمام إلى الممر المؤدي إلى غرفة المعيشة. والدي، التاجر المرموق، رفض أن تموت أمه موتا "رحيما" ولم يقبل إيداعها في دار العجزة. خشية أن يقول عنه أهل قريتنا إنه قتل أمه ليوفر مصاريف رعايتها، أو أن يقال إنه "رماها" في دار لرعاية المسنين، قرر أبي

أن تطول حياتها بلا هدف. جدتي التي لم تطلب يومًا شيئًا من أحد، تسوَّلت الموت الرحيم، ولمَّا لم يستجب أحدٌ لتوسلاتها، تعاطفت معها أمعاؤها فتيبَّست.

قام والدي بتجميل قصة موت جدتي، وقال لمن حضروا جنازتها إنها ماتت في سريرها بعد أن وضعت الأرز أمام الـ "بوتسودان" وسقت شجرة الكرز. يخجل والدي من الطريقة التي ماتت بها أمه، لكنه لا يخجل مما فعله بها وبالعائلة كلها. يخاف من كلام الناس في قريتنا الذين يعتقدون أن نهاية المرء هي مرآة لحياته كلها وأن الصالحين فقط هم من يموتون في أسِرَّتهم، لكنه لا يخاف من بذور الذعر التي نثرها في حديقة البيت. كان يرى أن موت جدتي بهذه الطريقة مُهين، ولكن هل هناك طريقة غير مُهينة للموت؟ هل هناك فعلًا موتٌ رحيم؟ كيف يختلف الموت على كرسي المرحاض عن الموت في الفراش؟ كيف يختلف موت الغزالة بين أنياب الأسد عن موتها بسلام بين أبنائها؟ كيف يختلف موتنا عن موت ذبابة الفاكهة؟ الموت جزازة عشب لا تفرق بين عشبة ضارة وأخرى نافعة. الموت ساخرٌ كبير في كل الأحوال، وكل الأموات سواسية حين يغمضون أعينهم للمرة الأخيرة.

"هذا غير مقبول. لا نريد سماع قصة عائلتك الممتدة" همست المرأة المصابة بالسرطان، فتجاهلها كوباياشي واستطرد قائلا:

موت جدتي بتلك الطريقة هو الحدث الوحيد الجدير بالذكر في تاريخ عائلتنا كلها. مشهد تأوهاتها وضغطها على كرسي المرحاض لا يفارقني للحظة واحدة، يذكرني أن حياتي كلها ليست إلا تكرارًا مُمِلًّا لهذا المشهد العبثي. ربما لاحظتم أن ما أفعله الآن أمامكم، لا يختلف كثيرًا عما كانت تفعله في آخر أيامها، أتأوه ضاغطًا بقوة لأتغوَّط حكايتي، وعلى ما يبدو، أسجل فشلًا ذريعًا كما كان يحدث مع جدتي التي ربما كانت ستغضب إذا علمت أن الطريقة التي ماتت بها أهم عندي من حياتها التي امتدت لاثنين وتسعين عاما. لكنها لن تعلم ذلك أبدا. هي الآن في مكان أفضل، كما يقولون.
لا... لا أعتقد أنَّها في مكان أفضل. لا أعتقد أنها في أي مكان على الإطلاق. ولا أعتقد أن لغياب أزهار الكرز عن أغصان شجرتنا هذا العام معنى ما، كما لم يكن لإزهارها في العام الماضي أيُّ معنى. كل ما في الأمر أن الناس يُسقِطون تصوراتهم ومشاعرهم على كل شيء ويجعلون منه حدثا فارقا. لكننا، وبعشوائية

وتلقائية سطحية، نكتشف فجأة أننا نمارس ما يدعى الحياة. الحياة تحدث لنا وتفعل ما تشاء بنا بغض النظر عن أمنياتنا وعن التفسيرات التي نلصِقها بها.

حين كنت في السابعة من عمري، سمعت أخي الأصغر "كِنتارو" يقول لجدتي "إني خائف" فاحتضنَته وقالت له "لا تخف.. سيكون كل شيء على ما يرام".
سألتُ جدتي بعدها "ما الخوف؟" كانت تضع وعاءً من الأرز أمام الـ "بوتسودان". لم تستدر نحوي وظلت تقلب النظر بين تمثال بوذا وطبق الأرز أسفله. سكتَت طويلًا حتى ظننتُ أنها غضبت من سؤالي، لكنها استدارت أخيرًا وقالت: الخوف هو أن يكون لك أهل تحبهم وتخاف أن يصيبهم مكروه.
"وماذا يعني أن أحب شخصًا؟" سألتُها مجددا.

لم يكن من الصعب على جدتي أن تكتشف مبكرًا أنني أعاني من خلل حاد في منظومة المشاعر الخاصة بي. لاحظت غياب أهم نوعين من المشاعر عن وجداني: الخوف والتعاطف، وأنني أستعيض عن غيابها بكومة من الأسئلة لسد الفراغات المبهمة. كما لاحظت أن هذه المشاعر لا تغيب عني تمامًا لكنها تأتي في غير أوانها لمُدَّة محدودة، فأضحك في المواقف التي يجب أن أشعر فيها بالخجل، ويمكن أن أجهش بالبكاء حين أرى درَّاجة، وأغضب عندما آكل الأرز، أرتجف خوفًا حين ينطق أحد بكلمة "ولد طيب". أتعاطف مع الحائط لأنه لا يستطيع الحركة بينما أعذب قطة بإيلاج بعض من الفلفل الأسود الحار في مؤخرتها. وما عدا ذلك لا أشعر بأيّ شيء على الإطلاق.

"أن تُحب هو أن يكون في حياتك شخص تريد أن تراه دائمًا، تأنس به حين يأتي وتفتقده حين يغيب" قالت جدتي باسمةً ثم استدارت لبوذا من جديد.

وبما أنه لم يكن في حياتي شخصٌ كهذا وأنا في السابعة من عمري، ولأنه ما زال لا يوجد في حياتي شخصٌ كهذا وأنا على مشارف الأربعين، فإنني لم أعرف الحب يوما. عندما كنت في المدرسة الثانوية أحبتني فتاة يقولون إنها جميلة. لا أدري لماذا أحبتني وماذا رأت فيَّ كي تختصني بمشاعر لا أستطيع فهمها. يبدو أن تبلد مشاعري كان محفزًا لها كي تلاحقني. كنتُ الوحيد الذي لا يحاول جذب انتباهها، فأصبحتُ أُمَثِّل لها تحديا. دعتني إلى عيد ميلادها، فقبلت، لأنني لم أقل "لا" في حياتي قط. حين ذهبتُ

إلى بيتها، لم يكن هناك أحدٌ سواها. قالت إن والديها ذهبا في رحلة إلى واكاياما وتركاها وحدها، وإنها تريد أن تحتفل بعيد ميلادها معي فقط. سألتها لماذا أنا بالذات. قالت "لأنك مختلف". ربما كانت تقصد "غريب الأطوار"، ولكن خانها التعبير. جلسنا في غرفة المعيشة وسكبت لي كأسًا من البيرة. احتسيته برشفة واحدة وأنا أحدق في رؤوس الغزلان المعلقة على الحائط أمامي، فسكبَت لي كأسًا ثانية وثالثة. لا أذكر الشعور بالضبط، ولكنه كان شعورًا وليس مجرد فكرة. أحسست بجسدي يزحف نحو بحيرة رأسي ثم يستقيم ويقفز فيها. شعرت أنني أغرق في رأسي، وأعجبني هذا الشعور.

أخذتني "يوكي" من يدي وصعدت بي إلى غرفة نوم أبويها. ألقت بي على السرير ونزعت قميصي وسروالي من دون أن أدري كيف أتصرف. ثم أخذت بعض الخطوات إلى الخلف وابتعدت عن السرير ووقفت تتراقص بينما تنزع ثيابها. نهرَتني عندما رأتني منشغلًا عن استعراضها بتأمل لوحة على الحائط. ثم اقتربت مني وألقت بنفسها فوقي، وراحت تقبل شفتي وعنقي. البحر الأزرق في تلك اللوحة والفانوس الأصفر الوحيد فوق المركب الذي يتهادى على سطح الماء أخذاني إلى عالم آخر. لم يكن من الصعب ملاحظة إحباطها وهي تداعب قضيبي الذي لا يستجيب. شعرتُ أن البحر قد فاض إلى خارج اللوحة وبدأ يقترب مني. ظننت للحظة أن شعورًا ما بدأ يتحرك في داخلي. تساءلت إن كان هذا ما يسمونه الخوف، ثم شعرت بعَضَّة على قضيبي، وإذا بي انتفض، وإذا بقدمي ترتفع لا إراديًّا وتركل يوكي التي وقعت من فوق السرير وبدأت بالصراخ "أيها الحقير. أنت سمكة ميتة. اخرج من هنا الآن!".

تناولت ثيابي وحذائي بيدي وعدت إلى البيت عاريًا. استقبلني أبي بصفعة قوية عند الباب. "ستجلب لنا العار أيها المعتوه". لم أشعر بشيء، وكأنه صفع ووبَّخ أحدًا غيري. منعني بعدها من مغادرة المنزل وقرر منعي من الذهاب إلى المدرسة. لم أجد مشكلة في ذلك. كان يُحضر لي كتبًا كثيرة لأتعلم في البيت، ومن بينها روايات كلاسيكية لفيكتور هوجو وأوسكار وايلد، و د. هـ. لورانس وكاواباتا وميشيما وغيرهم. أعجبتني رواية "الأبله" لدوستويفسكي، وتماهيت تمامًا مع بطلها.

كان هذا بمثابة سقوط تفاحة نيوتن. اكتشفت أن الرواية قد تكون دليلًا شعوريًّا لشخص لا يستطيع أن يشعر بنفسه، تمامًا مثل دليل التعليمات الذي يأتي مع الأجهزة الكهربائية. ولما رَاقَ لي ذلك، أخبرت أبي أن اسمي "ليف"، وأنني عدت للتو من سويسرا حيث قضيت خمس سنوات في مصحة لعلاج الصرع. وفي مرة

أخرى قلت له إني بستانيّ وإن السيدة "تشاترلي" تتسلل إلى كوخي لتضاجعني لأن زوجها عاجزٌ عن ذلك. سحب أبي بعدها كل الكتب من غرفتي وتركني في حبسي بلا مرايا أو دليل تعليمات يرشدني.

لست فخورا بحالتي، ولكن من منا يختار الخلل الذي يولد به؟ لا أدري إن كنت ولِدت به، أم أنه جاء بعدما رأيتُ ما رأيت. لا أدري إن كنت قد رأيتُ شيئًا أم كان مجرد هلوسات. أنا أبله ولا أثق كثيرًا في ذاكرتي، ففي أحيان كثيرة أحكي للناس قصة حدثت لي، فيقاطعني أحدهم ويقول إن هذه القصة حدثت له هو، وإنه قَصَّها عليَّ قبل سنوات. وفي مرات كثيرة أذكر موقفًا مؤثرًا عشته، فيرد أحدهم: أليس هذا مشهدًا من رواية كذا؟

اختار لي أبي لقب "روبوت" عندما كنت صغيرًا، لأنني أتحرك وفق خط سير محدد، وأتكلم بنمطية دون أي تنويع في نبرة الصوت، ولأنني لم أكن أفرح بأي هدية ولا أبكي حين يصفعني. وأحيانًا كان يناديني بالأبله، فلا أجد غضاضة في ذلك، لأنني من أخبرته بنفسي أن اسمي "ليف". وعندما كبرت صار يسميني "زومبي"، وقد أعجبني هذا الاسم كثيرًا، فأنا أحيا ولا أحيا في الوقت ذاته.

جئت إلى هنا لأنهي هذه الازدواجية. جئت لأنني أريد أن أكف عن الضغط والتأوه. جئت لأنني سئمتُ الحياة وتعبت من نفسي وأنهكني التنقيب في الروايات عن تلك النفس. جئتُ لأنتقم لكل السنوات التي عاشتها جدتي رغمًا عنها. لا أريد أن ألقي حجرًا جديدًا في بحيرة الملل التي تُسمى مجازا "حياتي"، بل أريد أن أجففها من قاعها وأردمها حتى لا يبقى لها أثر. جئتُ كي أتوقف عن استعارة حكايات الآخرين، وكي أكتب روايتي بنفسي!

تصفيق منفرد تصاعد من أحد المقاعد عند الأطراف، وحين نظر الجميع باتجاه من كان يصفق، قال بتهكم "أنا أرشح كوباياشي للفوز بجائزة أكوتاجاوا لأفضل رواية لهذا العام!".

"بإمكانك الجلوس الآن" قال المدير وأكمل "سوف يأتي دور كل واحد منكم ليخبرنا بقصته في الأيام القادمة، ولن يعرف العامل بقدوم دوره إلا حين أنادي على اسمه أو اسمها في حلقة الاعتراف، فكونوا دائما على أهبة الاستعداد. "سايونارا" قال وانطفأت الشاشة.

***

٥

لا يستطيع البشر أن يُفلِتوا من ظلمات أنفسهم حتى وهم ينتظرون خاشعين على باب الموت. هذا ما فكرت به الفتاة الكورية سو يوون، بعد أن سمعت "ياماموتو" يتحسر على نفسه، حاسدًا الزومبي على عدم قدرته على الشعور بأي شيء. فكرت بالأشياء التي تضمحل قبل أن تختفي؛ بالنبع الذي يشح قبل أن يجف، بالحب الذي يتناقص قبل أن ينعدم، وبالإحساس الذي يتلاشى في البلادة التي يسببها تراكم التجارب. كان يجلس على يمينها في حلقة الاعتراف المخصصة للزومبي، ولم يكن في ذلك الرجل ما يستوقفها أو يجذب انتباهها إلا تلك الجملة التي قالها بعد أن انتهى كوباياشي من اعترافه الطويل الذي يشبه خطابًا منمقًا يُلقيه من لم يكتبه – كما هو حال معظم الخطابات. سرحت بتعابيره قليلًا وراحت تتساءل عن السبب الذي أتى به إلى المصنع. عندما انتبه "ياماموتو" لها والتفت ليرى فتاة شاحبة تحملق في وجهه، تظاهرت سو يوون بإنشغالها بإزالة قطعة جلد زائدة على حافة أحد أظافرها. أحبت سو يوون أن تلعب تلك اللعبة مع نفسها. أن تخمن الأسباب التي دفعت بهذا العامل أو ذاك للقدوم إلى مصنع الانتحار. وفي وقت الغداء كانت تلعب لعبة أخرى، وهي تخمين الاسم الذي ستدور حوله حلقة الاعتراف بعد الظهر. حين يأتي الموعد ويكون تخمينها صحيحا –وقد حدث ذلك مرتين– تنتابها حالة من الفرح الطفولي.

"إن كنتِ تتساءلين أين رأيتِ وجهي، فلا بد أنك زرتِ مدينة الملاهي في ساسيبو" قال ياماموتو لـ سو يوون مبتسمًا وقد تجمعت الخطوط فوق وجنتيه وأضفت على ملامحه شيئًا من الود والطيبة. هزت سو يوون رأسها بالنفي "لا. لم أزرها" قالت باقتضاب وبنبرة جافة، ثم عادت لتعبث بظفرها.

كانت سو يوون حريصة على عدم تكوين أي صداقة مع أحد، فهي متعبة ويائسة من البشر. لقد منحتهم فرصة تلو الأخرى على مدى ستة وثلاثين عاما، وهي مجموع السنوات التي عاشتها. أما الآن فهي هنا لسببٍ واحد، وتحاول أن تبقيه نصب عينيها على الدوام. وعلى الرغم من أنها لم تختر أن تعمل لساعات

إضافية، مما يجعلها تدخل إلى عنبر النوم مبكرًا، فإنَّها كانت تتجنب الحديث مع العاملات في المساء وتتظاهر بالنوم كي لا توجه إحداهن لها أي سؤال.

عند المساء، وبعد أن انطفأت الأضواء، سمعت صوتًا يشبه البكاء المكبوت. حددت وهي مغمضة العينين مصدره، فقد كان يأتي من على يسارها. رفعت الغطاء إلى أذنيها ببطء شديد، تظاهرت بالنوم، كأنها لا تسمع شيئا. انتظرت أن ينتهي البكاء كما ينتهي كل شيء آخر عرفته في حياتها، حاولت أن تفكر بأشياء أخرى. لكن صوت البكاء بدأ يتصاعد تدريجيا. وضعت إصبعيها داخل أذنيها كي تنعم بالراحة. لكن التوتر كان قد تمكَّن منها. طاردها صوت النحيب الخافت. شعرت بخطورته. بدا لها صوت البكاء وكأنَّه استقل عن صاحبته وتحول إلى ذئبٍ ينادي ذئبًا آخر يقطن بداخلها هي. ذئبها كان يحاول أن يستقل عنها أيضًا، أن ينطلق من حنجرتها على شكل عواء. عواء يشق الليل كما يشقُّ السكين قالب الزبدة. نفضت الغطاء عن جسدها وجلست على حافة السرير مدليةً ساقيها نحو الأسفل. مدت يدها في الظلام وقرّبتها ببطءٍ شديدٍ من الجسد الذي يهتز تحت الغطاء على يسارها. ربتت على كتف "الباكية" مرتين ثم أعادت يدها إلى حجرها، فتوقفت المرأة عن البكاء للحظات. تزامن هذا المشهد مع دخول ناومي التي كانت تعمل لساعات إضافية. وبدل أن تذهب إلى سريرها توقفت ناومي عند سرير المرأة "الباكية" وجلست على حافته. أحنت رأسها وقالت "لا تقلقي! كل هذا سينتهي قريبًا يا أسوكا" قالت ناومي" ثم نظرت إلى سو يوون وأومأت برأسها "أنا ناومي" قالتها وهي تضع يدها على كتف أسوكا. "أنا سو يوون" ردت بانحناءة مقتضبة بعد أن شعرت بشيء من الراحة التي لم تستطع أن تحدد مصدرها.

مضى يومان على قصة الزومبي قبل أن يأتي دور ياماموتو ليروي قصته في حلقة الاعتراف. مأساة ياماموتو كانت شديدة الخصوصية، لأن لا أحد سواه رأى نظرة الفرح في عيني ابنه "هيرو" عندما أهداه في عيده السابع زيَّ المهندس المعماري المكون من سترة وخوذة صفراوين. لا أحد غيره جلس بجانب هيرو وهو طفل وساعده على تشكيل مجسمات للمباني والشوارع من قطع الخشب والبلاستيك المخصصة لمحبي العمران. وعندما أصبح هيرو مراهقًا، جلب له والده أيضًا الطاولة والأدوات التي يستعملها المهندسون المعماريون في عمل الرسوم، وقدَّمه لجميع الأقارب والأصدقاء على أنه المهندس المستقبلي. ياماموتو هو المسؤول عن غرس هذا الحلم الكبير في قلب ابنه. لقد أوحى إليه أن باستطاعته أن يصبح مهندسا مميزا. أوهمه أن الخطط التي يرسمها الإنسان لنفسه ولأولاده قابلة للتطبيق، لكن الحياة خدعت ياماموتو، والعمل

الدؤوب خذله وكذلك النظام المؤسسي الذي كرَّس حياته لخدمته. والآن، عليه أن يتصارع مع خيبته وينسى أنه خذل ابنه وعائلته وأن يتحمل نفسه المتعبة المحطمة، ريثما يأتي دوره في الراحة الأبدية.

"السيد ياماموتو يريد أن يخبرنا اليوم لماذا قرر الانتحار. تفضل سيد ياماموتو" قال المدير ذلك، بنبرة صوته الجادة المعهودة، ثم أعاد الزجاجة الملتوية إلى مكانها على المكتب.

وقف ياماموتو وهو يتجنب النظر إلى من حوله، ثم قام بالتركيز على الضوء الأخضر الصغير أسفل الشاشة وبدأ بالحديث:

"آسف لتطفلي.. اسمحوا لي أن أقدم نفسي: اسمي كنزو ياماموتو، قبطان بحري. أعني قبطان بحري سابق.. قبطان لمركب صغير.. قارب في الحقيقة. لدي زوجة طيبة اسمها "ريكو"، وابني هيرو توقف عن الدراسة بجامعة واسيدا هذا العام للأسف. أما ابنتي الصغيرة أياكو فلا تزال في الخامسة. أياكو، قرة عيني، تحييني كل صباح بالتحية العسكرية قبل أن أذهب إلى عملي. ولكني في الحقيقة، بلا عمل. أنا... أنا هنا لأنني... طار عنقي. أقصد... فقدت وظيفتي بعد واحد وثلاثين عاما من العمل في "ساسيبو ثيم بارك" في ناجازاكي.

تنهد ياماموتو ودس يديه في جيبيه وأكمل:
عملي، هو كل شيء في حياتي. كان كل شيء في حياتي. وهبته شبابي كله، لم أتغيب يومًا واحدًا عنه. كنت أذهب بكامل نشاطي كل صباح لأقود المركب الممتلئ بالسياح القادمين من كل أرجاء اليابان، أشرح لهم تاريخ البارك وتاريخ هولندا. هولندا هي "ثيم" البارك. بنايات وغابات وقنوات وطواحين البارك هي نماذج طبق الأصل لمدن وقنوات وغابات وطواحين هولندا. لم أسافر طوال حياتي خارج اليابان، لكني قرأت الكثير عن هولندا وشاهدت عشرات الفيديوهات عن أمستردام ولايدن وماستريخت ولاهاي وهارلم وخروننغن والعائلة الملكية هناك، وحتى عن أنَّا فرانك، الفتاة اليهودية التي كانت تختبئ من النازيين في قبو في أمستردام. لم أفعل كل ذلك بدافع الفضول، بل لإثراء معرفتي بذلك البلد، وإبهار رواد البارك بمعلومات جديدة عنها. كنت أشعر بالفخر حين يهز أحد الركاب رأسه إعجابًا بما قلته، بعد أن يسمع معلومة جديدة مني، أو حين يضحك أحدهم على نكتة من نكاتي. أذكر حين حذرني زميلي من استخدام دعابة عن غرق سفينة تيتانيك، ولكن حين سمعها رئيسي في العمل ضحك وقال "لا غبار عليها. يمكنك استخدامها". وعندما

نعود للمرسى بعد نهاية كل رحلة، كنت أقف عند باب القارب، أنظر في عينيْ كل واحد من الركاب قبل أن يغادر، أقرأ ما فيها، لأتأكد إن كان قد استمتع بالرحلة أم لا. ثم أنحني له وأشكره على مرافقته لنا على القارب. وذات مساء، وبعد انتهاء العمل، جاء مديري إليّ، اصطحبني ليريني قاربًا جديدًا يرسو هناك. قال لي إن ذلك القارب إلكتروني وصديق للبيئة، ولا يحتاج لكابتن أو مرشد سياحي. وبواسطة الذكاء الاصطناعي، سيقوم جهاز خاص بقراءة المعلومات التي تم تسجيلها بصوتي أنا. ولن يشعر الركاب بأني غائب، وأن المتحدث لم يعد من البشر.

ضرب ياماموتو كفيه ببعضها وكأنه ينعى حظه واستطرد قائلًا:
ربما أخطأت حين ظننت أنني مهم، وأن وجودي يصنع فارقًا. أخطأت أيضًا حين ظننت أن صوتي هو بصمتي التي لا يمكن نسخها، ولكني استيقظت ذات صباح على عالمٍ جديدٍ لا أعرفه. عالم لا مكان لي فيه، عالم يحسب قيمة الإنسان بمقاييس مادية ولا يولي أهمية للنظرة واللمسة والابتسامة ورجفة الصوت، عالمٌ فيه الآلة هي الإله الجديد.. قال ياماموتو بحسرة، ثم نظر لأول مرة يمينًا ثم يسارًا إلى عيون المرشحين لخوض تجربة الموت الرحيم.

سُمعت بعض الهمهمات في أرجاء الصالة عندما توقف ياماموتو عن الكلام، ليقف بعدها بعض العمال ويقتربوا منه مربتين على كتفه كما يحدث عادة بعد أن ينهي أحدهم اعترافه. ولكن كوباياشي بقي جالسًا فوق كرسيه مباعدًا ما بين ساقيه ضامًّا ذراعيه إلى صدره، يعض على طرف عودٍ لنكش الأسنان. ونادرًا ما يفارقه هذا العود الذي يعتقد كوباياشي أنه يساعده على التفكير. راح يتصفح وجوه الجميع وهو يحرك عود الأسنان بلسانه ويفكر:

مسكين يا ياماموتو! لو كنتُ أعرف كيف أشعر بالتعاطف، لتعاطفت معك في هذه اللحظة. كنتَ تهنأ لسنوات بحلم جميل، واستيقظت على ركلة في خصيتيك. أفقت على الحقيقة التي نسفت سردية متخيلة كنت تحكيها لنفسك عن حياتك حتى صدَّقت بأنها حقيقية. السردية الواهمة بأن عملك مهمٌ وأنك شخصٌ مهم. والحقيقة، أنك كنت مجرد ثور وُضعت عصابات على عينيه، وظل يدور حول طاحونة مياه دون أن يدري لماذا. أخبروك أن الدوران له معنى وهدف، ولم تنتبه إلا بعد أن انقضى شبابك وواجهوك بالحقيقة: أنك لست متفردًا، وأن العالم لا يحتاج لأمثالك ولا إلى مهارتك في قيادة القوارب، ولا إلى قصصك ونكاتك

المكررة. لثلاثين سنة، لم تزد حدود العالم بالنسبة لك، على حدود البارك، وهناك كانت أيضًا، حدود البهجة والفرح والرضى عن نفسك. معذرة يا صديقي، كان عليك أن تعلم أنك كنت تعيش خدعة. كان عليك أن تفهم أن لا أحد يعبأ بك أو بغيرك. كان يجب أن تفهم أن ما يأخذك لِقمة الفرح، سيقذف بك يومًا إلى سفوح الخيبة، فهذه خوارزمية المشاعر يا شهيد الروبوت والذكاء الاصطناعي.

عليك الآن أن تتنحى جانبًا على قارعة الطريق، وتفسح المجال للآلة يا ياماموتو، فهي الجديرة بمكانك. الآلة لا تشعر بالملل من تكرار نفس العمل، ولا يهمها إن كان ما تقوم به قد يسعد أحدًا، ولا تأسف إذا وجدت نفسها يوما ملقاة في ساحة الخردة. اذهب أنت وافعل ما خُلقت لأجله: ابكِ وانعَ حظك التعِس. توسل إلى مدير المصنع أن يجد لك مخرجًا آمنًا من هذا العالم الذي نكحك لعقود دون أن تشعر بقضيبه في مؤخرتك إلا حين انتزعه منها. مأساتك أنك تظن أنهم كرَّموك حين وضعوك في قارب وجعلوك تلف حول نفسك لسنوات، وأهانوك حين طردوك من عملك، ولكن العكس صحيح يا قبطان الحواديت.

قصتك مسلية بلا شك يا ياماموتو، لكنها تبدو عادية. فمن الطبيعي جدا أن يُقدِم رجل على الانتحار في بلد يقدس أهله العمل بهذا الشكل المبالغ فيه. بلد يموت الرجال فيه من فرط العمل أو بسبب فقدان العمل أو بسبب إدمان الكحول الناتج عن كثرة العمل أو فقدان العمل. استمعتُ إلى قصص كثيرة عن رجال انتحروا بعد ساعات من سماعهم نبأ استغناء شركاتهم عن خدماتهم، لكنني لم آتِ إلى هنا من أجل قصص مألوفة. ولا أظن أن هذا المدير الغامض ابتكر هذا المشروع الغريب ليستمع إلى قصص كتلك. مأساتك مهمة لك وحدك يا ياماموتو، ولكي تجعلها مهمة لغيرك، عليك أن تضعها في سياق آخر، لا بد أن تقوم بتحويلها إلى ملحمة. كنا في دار النشر نتلقى شكاوى من روائيين شباب يتهمون فيها بعض المؤلفين الذين نشروا رواياتهم عندنا، أنهم سرقوا منهم الفكرة أو القصة ونسجوا حولها الرواية. هم لم يفهموا بعد أن النسيج هو الرواية وليس القصة. العالم مملوء بالقصص المشوقة التي تصلح فقط للسرد بينما يتسامر صديقان حتى يفرغ كأس البيرة، أما الرواية فشيء آخر. الرواية هي بلدوزر الهدم الذي ينسف بناء القصة القديم، والمهندس الذي يصب أساسات جديدة في أعماق لم تكن القصة الأصلية لتصل إليها، ثم يبني فوق الأساسات طوابق متعددة يطل كلٌّ منها على عالم مختلف.

قصتك قد تكون مهمة يا ياماموتو، فأنت تشبه كثيرين في السذاجة والخيبة. مأساتك أن حياتك تافهة بلا مأساة. قضيت عمرك كله تدور حول نفسك، تكرر الروتين نفسه كي تعيش. ثم جئت إلى هنا لتدور حول نفسك مرة أخرى، وتكرر الروتين نفسه كي تموت. ستكون لقصتك فرصة أكبر لو أضفت عليها بهارات جديدة وأبعادًا أخرى. تحتاج إلى إعادة ترتيب المشاهد وتصاعد مشوق للأحداث. رجلٌ فقد عمله، هذا لا يكفي. لكن رجلًا فقد عمله وعقله ثم سمعته، فهذه قصة تستحق أن يموت المرء بسببها.

أريد أن أتقمص قصتك يا ياماموتو، كي أجد مدخلًا لشعور الإخصاء الذي تشعر به الآن، ولكن عليَّ استكمالها على نحوٍ آخر.

نهض كوباياشي من على كرسيه واتجه إلى عنبر النوم قبل أن يفقد خيط هذا السرد السلس الذي ملأ رأسه بالجمل والمفردات. وعندما وصل إلى العنبر، أخرج دفترًا من تحت مرتبة السرير وراح يكتب:

في نهارٍ ربيعيٍّ مشمس يغرق بعبق الأزهار وألوان الفراشات غير الآبهة بمصائر البشر، خرج ياماموتو من بوابة البارك العملاقة يجر ساقيه وهو لا يصدق ما سمعه. أهكذا، وبكل بساطة، تخلصوا منه بعد كل تلك السنوات كأنه منديل ورقي قديم؟ أهكذا يكون التتويج لسنوات طويلة من العمل؟ ماذا حدث لهذا البلد الذي طالما كان يفتخر أن نسبة البطالة فيه أقل من أي بلد صناعي آخر؟

فكر فيما سيقوله لزوجته التي تنتظر مكافأة آخر العام لتشتري كرسي التدليك الفاخر الذي طالما حلمت باقتنائه. ماذا سيقول لابنه "هيرو" الذي بدأ للتو دراسته في جامعة واسيدا ذات الرسوم المرتفعة؟ ماذا سيقول لابنته الصغيرة "أياكو" التي جاءت بطريق "الخطأ" بعد أن قرر هو وزوجته الاكتفاء بـ "هيرو" كي ينال تعليما جيدا.

كان يخرج من بيته كل صباح ويذهب إلى حي بعيد ليجلس في مقهى شبه فارغ، يشرب قهوة مثلجة، ينظر إلى اللاشيء إلى أن يأتي المساء، ليعود إلى بيته كي لا تعلم زوجته وأولاده أنه أصبح عاطلًا عن العمل. طلب من أخيه الذي يعمل وسيطًا لبيع العقارات، أن يقرضه بعض المال. لكن أخاه اعتذر وقال إنه اشترى بيتًا جديدًا في وسط ناجازاكي، وسيظل يدفع أقساطًا للبنك حتى يموت.

بعد عدة أسابيع أمضاها في الإنكار والتململ، قرر ياماموتو معاقبة نفسه، فذهب إلى البارك كسائح ليرى كيف يعمل المرشد السياحي الإلكتروني. أخفى هويته، وغطى رأسه بقبعة وستر عينيه بنظارة سوداء وتسلل

إلى داخل البارك وكأنه لِصّ مستجد. اشترى تذكرة وأسرع الخطى وهو ينظر إلى الأرض كي لا يكتشفه أحد الزملاء القدماء. هز رأسه متعجبًا حين رأى القارب يتحرك بلا قبطان وبلا مقود. سمع المرشد السياحي الإلكتروني يتحدث للسياح، كان صوته هو ما يصدح من سماعات القارب. المعلومات نفسها عند كل موقع، والنكات نفسها عند كل استدارة. "يا إلهي يبدو أننا نبحر باتجاه جبل ثلج. الرجاء أن تلزموا مقصوراتكم" جاء صوته من السماعات فانفلتت الضحكات الخافتة في القارب كما كان يسمعها كل مرة. "هل تعلمون ماذا قال قبطان سفينة تيتانيك حين رأى جبل الثلج؟ Ice to meet you" فتعالت الضحكات أكثر.

وقف ياماموتو بمواجهة السماعة فاغرًا فاه، لمسها بيده صارخًا: "هل تستطيع أن تذهب لبيتي وتنكح زوجتي أيضًا؟ هل تستطيع أن تنجب منها ولدًا وبنتًا؟ هل تستطيع أن تبقى طوال الليل يقظًا قلقًا حين يصاب أحد أبنائك بالحمى؟ هل تستطيع أن تبكي فرحًا حين يفوز فريق "ناجازاكي سينتس" في البيسبول؟" قالها وهو يصفع السماعة التي خرج منها صوته الذي بات يمقته، ولم تتوقف صفعاته ولم يكف عن الصراخ إلى أن خارت قواه وسقط مغشيًّا عليه. حين أفاق، وجد صديقه "دايسكي" جالسًا على حافة سريره في المستشفى، يسأله "ماذا حدث؟". تلعثم قبل أن ينطق بالمصطلح الياباني القميء الذي يصف طرد موظف من عمله. "طارت رقبتي" قالها ياماموتو وأغمض عينيه، لأنه عرف في تلك اللحظة أنه قد مات.

أغلق كوباياشي الدفتر وبدا راضيًا عما كتبه. ثم أعاده إلى مكانه تحت مرتبة السرير قبل أن يأتي الآخرون ويروه وهو يكتب.

***

٦

ينصرف نصف العمال في تمام السادسة مساءً من غرفة العمل، وينصرف النصف الآخر في الثامنة بعد أن يتموا الساعتين الإضافيتين ليحصلوا على الملح أو صوص الصويا. وفي النهاية لا يبقى إلا ناومي و"إتشيرو"، ذلك النحيف غريب الأطوار الذي يأخذ وجبته وقت الاستراحة ويختفي من غرفة الطعام، فلا

يعرف أحد أين يأكل. عليهما أن يعملا خمس ساعات إضافية لتحصل هي على كأس ويسكي كل يومين ويحصل هو على سيجارة كل يوم. فجميعهم لم يأتوا إلى هذا المكان إلا ليتخلصوا من فائض الأعوام تلك، والتي صادفت أن تكون حيواتهم.

جلسا متقابلين، يعدَّان الكرات المعدنية الصغيرة، أخذ إتشيرو ركنًا من أركان الغرفة، وناومي تقابله في ركن آخر. ظل إتشيرو يفكر في قصتها التي سردتها في حلقة الاعتراف في اليوم السابق، أحس بأنه يريد أن يقول لها شيئًا، لكنه لم يكن يريد أن يسمع أحدٌ ممن كانوا في قاعة الاجتماعات ما يقوله. كما أن القانون يمنع العمال من التواصل خلال ساعات العمل. كان ينظر إليها وكأن الكلمات تنطقها الأعين لا الأفواه. أما هي فلاحظت وجوده في ركنه منذ بداية النهار وقررت أن تتجاهله عن عمد. آخر ما تحتاج إليه الآن هو أن تطالعها عينا هذا الرجل الغريب وأن ترى فيهما تلك النظرة المربكة. لاحظت ناومي أن شيئًا ما في نظرته يبعث على النفور بينما يجبرها شيء آخر على الاستمرار في التحديق وكأنها تنتظر أن يقول شيئًا يعنيها. وبعد أن غادر الجميع، كان من الصعب عليها تجاهل تلك النظرات لثلاث ساعات متتالية. فراحت تسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى، وما إن تشعر أنه سيلتفت ناحيتها حتى تشيح بنظرها عنه بسرعة.
قبل أن تنقضي الساعة الثالثة، أمسك إتشيرو بكرة معدنية، ثبتها بإصبعه على الأرض أمامه، وجَّه نظرةً حادةً إلى ناومي. رأت بطرف عينها أنه قد توقف عن عمله وراح يحدق بها، فوجهت له نظرة مشابهة. ربطت نظرته بحلقة اعتراف الليلة الفائتة حيث أخبرت ناومي قصتها كاملة، وإذا بها تشعر بأنها عارية تمامًا أمام ذلك الغريب الذي أصبح يعرف عنها كل شيء وهي لا تعرف حتى اسمه. لعنت الشفافية التي جعلتها تعترف بما يُشعِرها بالخزي أمام هؤلاء الحمقى. مسحت وجهها بكفيها في محاولةٍ لإخفاء موجة الانفعال التي أصابتها، ثم حولت عينيها نحو الكرات الصغيرة القابعة على الأرض. لم تمر دقيقة حتى نقر إتشيرو الكرة بظُفر سبابته فتدحرجت ووصلت بسرعة إلى الجهة المقابلة من الغرفة حيث تجلس ناومي. أوقفت ناومي الكرة بهدوء شديد، ووضعتها بجانبها، فأطلق إتشيرو الكرة الثانية ثم الثالثة. ضربت ناومي بسبابتها على طرف رأسها الأيمن عدة مرات وكأنها تقول له "هل أنت مجنون؟" تزاحمت الأفكار والمشاعر في رأسها، وبين إحراجها منه وفضولها لمعرفة ما يريده، اختارت أن تتصرف كما تتصرف دائمًا، فانتفضت غاضبة وهي تنظر إلى الساعة التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة مساءً. وقفت، ثم انحنت لتعدل قماش بنطال الأوفرول الذي تجمع عند ركبتيها، وغادرت الغرفة متجنبة النظر إلى الزاوية التي يتكور فيها

إتشيرو فوق الكرات المعدنية المتناثرة حوله. في تلك الأثناء كان المدير جالسًا خلف مكتبه، يتابع المشهد على شاشات المراقبة وهو يمسح فمه بكفه.

بعد الغذاء استلمت ناومي كأس الويسكي الذي عملت من أجله عشر ساعات إضافية، وتسلّم إتشيرو سيجارته. لم يكن يعلم أن دوره قد جاء ليروي للنزلاء قصته، فهو، ومنذ أيام، يحاول أن يحكيها لنفسه ويرتب الأحداث في رأسه، لكنه لا يزال عاجزًا عن الإمساك بخيط الرواية من أوله. خيَّم السكون على الجميع في قاعة الاعترافات وكأنَّ على رؤوسهم الطير، سحب المدير ورقة جديدة كتب عليها اسم إتشيرو كاواساكي، ليطلب منه أن يسرد قصته، أما ناومي فقد كانت غارقة في فكرة واحدة حيَّرتها: ما حاجتها للويسكي، رغم أنها لم تعد تحتاج إلى أي شيء من هذه الحياة؟

وقف إتشيرو بقامته المربوعة وكتفيه الضيقتين. بدا وجهه الممتلئ، ذو الخدين المرتفعين، طفوليًّا بالنسبة لرجل في هذا العمر، لكن شعره الأسود الذي بدأ بالتحول إلى طبقة رقيقة في أعلى رأسه من الخلف، كان يشي بأعوامه الثلاثة والثلاثين. وقف وهمَّ بالكلام، ثم صمت وفرقع أصابعه وحدق في حذائه طويلا. أراد إتشيرو أن يكون دقيقًا كما نصح المدير. شعر بالحاجة الملحة إلى أن يكون صادقًا مع نفسه أولًا قبل الآخرين. شيء يشبه الرغبة في مغادرة السرير للتبول منتصف الليل، رغبة قوية وطارئة، يقابلها رغبة أقوى في الاستسلام للنوم ثانية. بدأت الهمهمات في الصالة ترتفع بعدما تأخر إتشيرو في المباشرة بالكلام، فرفع المدير يده في الهواء، كأنه يقول "توقفوا". عزم إتشيرو على الحفاظ على مسافة من ابنتيه في قصته؛ فهو غير مستعد للانهيار أمام هؤلاء الغرباء، ولا يريد أن يتكور على الأرض كالرضيع وسط نوبة البكاء التي يعرفها جيدًا والتي تترافق غالبًا مع تذكره وجهي صغيرتيه بخدودهما المنتفخة وغمازاتهما الجميلة.

"اعذروني إن كانت قصتي قاسية. وبصراحة، لا أدري من أين أبدأ. أنا أكره عيد ميلادي. ففي هذا اليوم فقدت كل من أحبهم. في اليوم الذي وُلِدتُ فيه ماتت أمي قبل أن تضمني إليها. ويوم عيد ميلادي الثالث والثلاثين، ماتت زوجتي وابنتاي. لأمي وزوجتي ذات الاسم: ناومي، والذي يعني: الجميلة، الصادقة، المستقيمة، على حسب حروف الـ "كانجي" التي نستخدمها. ناومي، المتعاطفة الرقيقة، كما جاء في الكتاب المقدس".

رفعت ناومي بصرها ونظرت إليه باستغراب وهي تسأل نفسها ما إذا كانت نظراته الغريبة نحوها، لهذا السبب، وإذا ما كان على هذا القدر من السذاجة ليحاول التحدث معها لأن لأمه وزوجته ذات الاسم؟

"المشكلة ليست في تشابه الأسماء، ولكن في تشابه المصائر". استطرد إتشيرو وكأنه جالسٌ في رأس ناومي. "ماتت أمي، وزوجتي أيضا ماتت، وابنتاي التوأم ماتتا معها، وكنت أنا السبب في موتهنَّ جميعا". أغمض عينيه كأنه يقاوم الدموع، ثم رفع رأسه إلى أعلى لبضع لحظات، أصدر من جوفه تنهيدة كأنه يكتم انفجارا يشق الصدر، قبل أن يتابع:

"يا إلهي، هذا مُحرِج... لم أعد أذكر متى بدأتُ عادة التهام الطعام في المرحاض. لقد كنت طفلًا هزيلًا لا يحب الطعام، فغضبت زوجة أبي مني واصطحبتني إلى الطبيب فوصف لي مقوّيًا وفاتح شهية. بعد ذلك صرت آكل ولا أشبع، فغضبت زوجة أبي مني مرة أخرى وقالت إنني بئرٌ لا جوف لها. ومن شدة خوفي أن أخسر حبها، كنت أملأ جيبيَّ بالفول السوداني والفواكه المجففة وآكلها في الحمام بعيدًا عن زوجة أبي وأخوتي غير الأشقاء. حين بدأ وزني بالزيادة، بدأ صدري بالتضخم، وبعد أن ترهل ثدياي، لم يرحمني زملائي في المدرسة من التنمر، فكنت ألجأ إلى حمام المدرسة أيضًا كي آكل هناك في سلام بعيدًا عن الشتائم والإهانات. ولكن وسط انشغالي بحماية نفسي من الآخرين لم أشعر بأن المرحاض تَحوَّل إلى مساحتي الآمنة الوحيدة، وأن الوقت الذي أمضيه هناك، أصبح الوقت المفضل لي طوال النهار. أصبح الطعام صديقي الوحيد، فهو لا يلومني على شيء، ولا يعاتبني أني أصطحبه معي إلى حيث يُخرج أحدهم من مؤخرته ما وضعه في جوفه أمس. بقي طعامي هو الرفيق الوحيد الذي لم يطلب مني شيئًا أكثر من التلذذ بالتهامه أينما يحلو لي.

عندما كنت في الصف السابع، جاءت طالبة جديدة إلى الفصل كانت قد انتقلت مع أهلها من "كانازاوا" إلى مدينتنا. بشعرها القصير جدًّا، كانت تتكلم وتتصرف مثل الصبيان. عندما عرفتُ أن اسمها "ناومي" ارتبكت. كنت أشعر تجاهها بالود والغضب والشعور بالذنب في الوقت نفسه، ولكنها كانت دائمًا حنونة معي وتهديني سندويتشات جديدة كل يوم. وذات مرة رأت ناومي بعض الطلاب يربطونني على جذع شجرة توت وراء المدرسة بشريط لاصق، ويركلونني في مناطق حساسة وهم يصيحون "يا آكل المراحيض يا سمين يا قذر". أسرعت ناومي نحوي وضربت زعيمهم ضربة أسقطته أرضًا ليفر الباقون. وبدأت بإزالة الشريط وهي تدور

حول الشجرة، قائلة "لا تسمح لأحد أن يهينك بعد اليوم" سألتها "وكيف لي أن أفعل ذلك؟" فردت "عليك إما أن تتظاهر بالقوة أو بالجنون أو بالموت لتتجنب الأشرار".

لم أفهم ما قالته. لكنها في اليوم التالي جاءت إلى المدرسة وجمعت الطلاب أثناء الفسحة، ثم أخرجت من حقيبتها سكينًا هددت به الطلاب قائلة إنها ستفقأ بهذا السكين عين كل من يحاول الاقتراب مني. كدت أطير من الفرح وأنا أرى أن هناك من يهتم بشأني ويحميني في هذه المدرسة الكئيبة. وقفت مزهوًّا وأنا أرى الطلاب يرتعدون من بنيتها القوية وصوتها الجهوري والسكين التي أشهرتها في وجوههم.

قالت ناومي إن صراخي وانتحابي وتوسلاتي حين يضربونني، هي مصدر لذتهم، وما عليَّ إلا تغيير أسلوبي مع كل من يحاول الإساءة إليّ. "إما أن تقاوم بقوة وإما أن تستسلم تمامًا، أما الصراخ والشكوى فلا يجلبان إلا مزيدًا من التنمر والعنف". تَطلَّب مني الأمر فترة طويلة لأفهم ما كانت تعني بما قالته، واحتجت لفترة أطول لأبدأ في تطبيقه. علمتني أن أمشي بقوام منتصب وألا أترك كتفيَّ تتدليان ككيس أرز شبه فارغ. علمتني أن أرفع صوتي حين أتحدث وأن أنظر في عيون من أكلمهم بثقة وثبات. وحاولَت أن تثنيني عن الأكل في المرحاض، لكنها فشلت. وبعدها وعدتني أن تتناول معي وجبة في المرحاض في مقابل كل مرة أشاركها الطعام في كافيتيريا المدرسة.

استمرت صداقتنا إلى أن أنهينا المرحلة الثانوية، كانت أشد ذكاءً مني وأكثر اجتهادًا، ولطالما ساعدتني في إنجاز الواجبات المنزلية. ثم التحقنا معا بجامعة "كانسي جاكوين"، لأن مراحيضها نظيفة، ولأن المقابر وراء الجامعة كانت مخبأ جيدًا، نجلس فيه ونتناول الطعام بدلًا من المراحيض والكافيتيريات. تخصصنا في الأدب الألماني، فقط لأنها كانت متيَّمة برسائل كافكا إلى ميلينا، وكنت أنا متيمًا بها. كنتُ بالنسبة للجميع السمين غريب الأطوار، وكنت بالنسبة لها إتشيرو الفتى الطيب الذي أحبته وكانت على استعداد لمحاربة كل العالم من أجله. تقاسمنا كل شيء، الخبز والسرير، تبادلنا القصائد والروايات، وأصبح مصيرنا واحدًا.

تفوَّقت هي في دراستها، فيما بقيتُ أنا قابعًا في المنطقة الرمادية، لا رسوب ولا تميُّز يمكن أن يلفت أنظار الأساتذة. وعدها رئيس القسم بوظيفة مساعدة بحث وتدريس "معيدة" في القسم بعد إنهاء درجة الماجستير. لكن ما حدث في السنة الأخيرة لم يكن في الحسبان. رأيتها تجلس في قاعة المحاضرات شاردة، وحين سألتها عما حدث، قالت إنها حامل، حامل مني. ظلت تعتذر وتبكي؛ لأني قلت لها في السابق إنني لا أريدها أن تحمل حتى لو تزوجنا يومًا ما.

لا أدري كيف حدث هذا الخطأ، لكنه حدث. وضعت يدها على فمها حين سألتُها إن كانت متأكدة أن الطفل مني، ثم هزت رأسها مستنكرة ومصدومة دون أن ترد. شعرتُ أنني تسرعتُ في سؤالي هذا وقضيتُ الليلة كلها دون أن أنام لحظة واحدة. قررت الاعتذار منها في الصباح حين نلتقي في الجامعة، ولكني، ما إن رأيتها تقترب، حتى قلت لها إن عليها إجهاض الطفل فورًا، فلم تتردد وقالت "سأفعل أي شيء تريده".

في الطريق إلى العيادة، كانت تطيل النظر إليَّ، وأنا أتجنب مواجهتها. وما إن جلسنا في غرفة الانتظار، حتى بدأت أنفاسها تخرج بصعوبة، ثم انهارت باكية وجثت على قدميها تُقبّل حذائي متوسلة أن أسمح لها بالاحتفاظ بالجنين، قالت: "أرجوك لا أريد لهذا الطفل أن يموت. أعدك أن أكون أمًّا جيدة وزوجة جيدة ما حييت". لم أستطع مقاومة دموعها، فقلت لها في لحظة عاطفية لم أحسب تبعاتها "وأنا أعدك أنني سأصبح أبًا وزوجًا صالحا ما حييت"، وحاول كلانا أن يفي بوعده.
اضطرت ناومي إلى أن تترك دراستها بعد الشهر السادس من الحمل وراحت تجهز نفسها لدور الأم بكل رضا. فزعَت قليلا حين أخبرها الطبيب إنها حامل بتوأم، لكنها سرعان ما تخلصت من القلق وتقمصت دور ربة الأسرة. أما أنا فقد بدأتُ البحث عن وظيفة وأنا على مقاعد الدراسة بغية توفير تكلفة الولادة والمصاريف التي تتبعها. قمنا باستئجار شقة صغيرة في نيشينوميا، وتزوجنا. لم أرَ على وجهها إلا ابتسامة تنم عن الرضى طوال شهور الحمل، بل إنها أصرت على تجهيز الشقة الجديدة بنفسها، فنصبت السرير وطلبت من ابن خالتها النجار أن يصنع لنا رُكنًا للطعام، طاولة صغيرة وكرسيين يشبهان كرسي المرحاض في مواجهة بعضهما.

ليلة الولادة كانت أصعب ليلة مرت عليَّ في حياتي. مخاوفي كلها تجسدت أمامي في تلك الليلة الطويلة. أن تكون حياتك كلها معلقة بشخصٍ واحد يُضحكك، يُبكيك، يطعمك، يشعر بك ويحميك من العالم وقسوته، فهذا شيء عظيم. ولكنه مخيف. أصبحت ناومي أمي دون أن أشعر بذلك، لكني لم أتخلص من حالات الرعب والهلع التي كانت تقتحمني كلما خطر ببالي أنها قد تلقى المصير نفسه. أنا الذي لم أؤمن بشيءٍ أبدًا، قضيت الليلة كلها وأنا أصلي: يا إلهي، احفظ زوجتي من كل شر، خفف آلامها وأخرجها من نفق الولادة سالمة!

استجاب الرب لدعواتي الصادقة. وبعد ١٢ ساعة من المخاض، تمت الولادة بسلام، وجاءت "راكو" وأختها "كيكو" إلى الحياة، سعادة وأمل، إن كان لهما من اسميهما نصيب. ولكن ناومي لم تعد كما كانت. ظلت صامتة وشاردة، وحين تكلمت كانت ساخطة وغاضبة. شيءٌ ما كان قد تغيّر، وكأن الولادة أيقظت وحشًا كان نائمًا في داخلها، لم تكن تعلم بوجوده. اضطرَّت إلى ترك الجامعة حتى تعتني بالطفلتين مما زاد من حنقها وتذمرها، وتخرجتُ أنا بتقدير جيد جدًّا لأول مرة بفضل مساعدتها لي في كتابة رسالة الماجستير. لكنني لم أحصل على وظيفة مساعد البحث والتدريس التي كان رئيس القسم قد وعد ناومي بها. عملت في عدة جامعات محاضرًا بالساعة، كي أجمع مصاريف البيت، لكن تكاليف المعيشة لعائلة من أربعة أفراد، كانت أكبر من قدراتي. أصبحتُ أتردد في العودة للبيت خشية نوبات غضب ناومي وشكواها من كثرة ديوننا، فكنت أقضي ساعات في مكتبة الجامعة وأعود في آخر الليل.

بقي الحال على ما هو عليه لثلاث سنوات أخرى. وذات مساء وصلتُ إلى البيت عند منتصف الليل، فاستقبلتني ناومي عند الباب وفي يدها اليمنى سكينٌ وهي تصرخ "مع من كنت تخونني يا آكل المراحيض؟". أقسمت لها أنني لم أخنها يومًا، ونصحتها أن تزور طبيبًا نفسيًّا، فصرخت وقالت إنني أنا المجنون لا هي، وإنها ضحت بشبابها ودراستها من أجلي دون فائدة، ثم غرست السكين في فخذي، وراحت تبكي وتعتذر. اضطررت إلى الاتصال بالشرطة والإسعاف. أمضت ناومي ستة أشهر في مصحة نفسية وخضعت للعلاج من اضطراب ثنائي القطب. مرت تلك الشهور عليَّ وعلى الفتاتين ونحن في حالة يرثى لها. أدركتُ للمرة الأولى الحِمل الثقيل الذي كانت تحمله ناومي في القيام بالأعمال المنزلية والاعتناء بالطفلتين.

حين خرجَت من المصحة وعادت إلى البيت بَدَت طبيعية للغاية، ولم يصدر عنها أيُّ تصرف غير مألوف. قالت إنها تريد بداية جديدة، وإنها تأسف لكل إهانة وجهَتها إليّ وقت مرضها. مرت شهور وناومي تتصرف بشكل طبيعي بلا غضب أو شكوى. وفي يوم عيد ميلادي أخبرني رئيس القسم أنني سأبدأ عملي كمعيد في الجامعة ابتداءً من الموسم الدراسي القادم، شعرت بفرح غامر لهذا الخبر، أخيرًا سنخرج من دائرة التقشف والديون، أخيرًا ستتمكن ناومي من العودة إلى الجامعة واستكمال دراستها. لكنني حين وصلت البيت لأزف إليها الخبر لم أجدها هناك، ولم أجد الطفلتين. انتظرتهن إلى أن جاء المساء، ثم اتصلت بأمها وابن خالتها، لكنهما لم يعرفا أين يمكن أن تكون قد ذهبت. ولما دق جرس الباب أول الليل، فزعت. طلب مني ضابط شرطة بصوت متردد مرافقته إلى مستشفى "نيشينوميا كايسي". ذهبت معه مذعورًا تتراقص في رأسي

كل السيناريوهات الممكنة. هناك سلموني حافظة نقود ناومي بجوار كيسٍ صغيرٍ فيه ما تبقى من أشلائها هي وراكو وكيكو. في تحقيق الشرطة ذكر شاهد عيان أن ناومي كانت تجلس مع الفتاتين على قضبان القطار ومعها كعكة مثبت عليها مجموعة كبيرة من الشموع. كانت تجلس هناك بهدوء وتضحك مع الطفلتين، وكأنها لا تسمع التحذيرات التي يطلقها المارة حين اقترب القطار. أطنان من الحديد تتحرك بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة، أطفأت الشموع وأطاحت بالجميلة الصادقة المستقيمة ومعها كل ما عرفت من سعادة وأمل.

اِنهارَ في لحظة واحدة العالم كله فوق رأسي حين تلقيت الخبر. ظننت أن لا شيء بعد تلك الفاجعة يمكنه أن يزيد من الألم الذي تلبسني وكاد أن يقتلني. ولكني حينها أدركت مدى خبث هذه الحياة، حين بقيت أعيش فيها. وصلتني بعد أربعة أسابيع فاتورة تطالبني بتسديد مبلغ ١٠ مليون ين، واقتراح تقسيط المبلغ بخصم ٦٠٪ من راتبي الشهري تعويضًا عن الضرر الذي خلفه انتحار زوجتي وتعطيل سير القطار وإصابة السائق والركاب بالصدمة. ابتكرت الحكومة اليابانية هذا القانون لردع راغبي الموت عن استخدام القطارات للانتحار، ولم يقلل هذا القانون الغبي الجائر، من عدد حالات الانتحار، بل على العكس زاد منها. فمن يقرر الانتحار، لا يمكن أن يعبأ بما سيحدث للعالم بعده.
وأنا الذي لم أستطع توفير حياة كريمة لزوجتي وابنتَيّ، أدفع الآن ثمن موتهن. كنت أستيقظ كل صباح، وأول ما يتبادر إلى ذهني، مجموعة أسئلة: لماذا عليَّ أن أقوم من السرير، ولماذا عليَّ الذهاب إلى العمل، من أجل من أعيش؟ ناومي كانت ملاكًا حين التقيتها للمرة الأولى، ولكنني أصبتها بلعنتي. رغم أن لقائي بها كان أجمل شيء حدث لي في حياتي، فإنني ندمت من كل قلبي؛ لأنني جذبتها إلى عالمي المعطوب. سامحوني لو كنت أطلت عليكم، ولكني لم أتكلم منذ شهور.. سامحوني!".

شعرت ناومي بموجة من الصقيع تجتاح فروة رأسها وهي تستمع إلى قصة إيتشيرو. الاهتمام الذي أولته لسماع قصته كان غريبًا عليها. وجدت نفسها تستنكر ما جرى له وتفكر في عبثية هذه الحياة التي قد تخص شخصًا واحدًا بهذا الكم من الحوادث المأسوية، وتساءلت كيف لأشخاص آخرين لم يتعرضوا لنصف هذا الأذى أن يرغبوا في الشيء ذاته: الموت. لم تقاوم رغبتها في مقارنة مأساتها بمآسيه. فكرت في هجران أمها لها وهي طفلة، ثم في موت والدها، وفي علاقتها الملتبسة بذلك العجوز التي تولى مهمة تربيتها، وكأنها تحاول أن تجد مبررًا لوجودها في الخندق نفسه مع هذا الإنسان التي ركلته الحياة وأنزلته على ركبتيه

وبالت عليه. هزت رأسها وكأنها سئمت من أفكارها، ثم دسَّت خصلة شعر وراء أذنها. "يا لكِ من خرقاء!" عاتبت نفسها. "حتى في المحطة الأخيرة في الحياة، تنشغلين بمقارنة نفسك بالآخرين، فهل هناك أسى مبرر وأسى غير مبرر؟ هل هناك حزن أكبر من حزن؟" غضبت لأنها فهمت أنها تحاول أن تُنكر المعاناة التي كانت تعيشها، وأن تجعل الأحزان التي عاشتها، تبدو تافهة مقارنة بمآسي الآخرين. "البشر حثالة" غمغمت. سمعتها الراهبة هاناكو التي تجلس على يمينها "عفوًا لم أسمعك يا ناومي" قالت هاناكو. "نحن البشر حثالة" قالت ناومي بصوت مرتفع هذه المرة بحيث سمعها الجميع ثم غادرت مقعدها.

***

لمعت صورة زهرة النرجس في رأس كوباياشي (الزومبي) أثناء استماعه إلى اعترافات إتشيرو. أغمض عينيه وحاول أن يستحضر ملمسها ورائحتها وراح يكتب داخل رأسه:

تقول الأسطورة إن "كيفيسوس"، إله النهر، اغتصب "ليريوبي" عروس النهر وأنجب منها نرسيس. ثم ترك الأب ابنه الوليد وأمه ومضى في حال سبيله. لم تكن ليريوبي مربية جيدة ولم تُعطِ نرسيس الحب الذي يحتاج إليه كل طفل، لكنها كانت تخاف عليه من الموت. فسألت أحد العرافين إن كان نرسيس سيصبح رجلًا يافعًا، فقال العراف: سيعيش فقط لو ظل غريبًا عن نفسه.
هنا تكمن مأساة نرسيس، فهو غريبٌ عن أمه وأبيه، لأنه نتج عن عملية اغتصاب، وعليه ألا يعرف نفسه حتى لا يقوم بتدميرها. ربما جاءت تسمية نرسيس المشتقة من الكلمة اليونانية "ناركين" ومنها ناركوتيك (المخدر) كمحاولة من الأم أن يظل ابنها بلا مشاعر وبلا حركة حتى لا يصيبه الأذى.
وهكذا عاش نرسيس خاليًا من العواطف، بلا حب وبلا ألم. أحبه كثيرون لجماله الخارجي، لكنه لم يحب أحدًا لأنه كان خاويًا من الداخل.

كانت "إيكو" حورية حرمتها الآلهة من صوتها، وجعلتها فقط قادرة على تكرار ما يقوله الآخرون. وقعت في حب نرسيس، لكنها لم تستطع أن تخبره بذلك. وفي أحد الأيام تاه نرسيس في الغابة أثناء رحلة صيد، وظل ينادي "هل هناك أحد؟" فردت إيكو (الصدى) "أحد". فقال نرسيس "تعالي نلتقي" فكررت إيكو الجملة نفسها.

وحين اقتربت منه، حاولت أن تعانقه، فنهرها قائلا: "أُفضِّل الموت على أن أكون ملكا لك". واصل نرسيس ممارسة اللعبة نفسها مع حوريات أُخريات. كان يستدرجهن حتى يقعن في غرامه ثم يرحل عنهن. إلى أن دعت إحداهن عليه ذات مرة قائلة "فلتُحبَّ نفسك لدرجة تجعلك لا تسعد بأي حب أبدًا!".

ظل نرسيس ينتقل من امرأة إلى أخرى، ومن تيه إلى تيه، وعلى حافة الغابة اكتشف بحيرة ساكنة. اقترب منها وانحنى فرأى نفسه في الماء. أحب ما رأى، واقترب من صورته ليُقبِّلها، من دون أن يدري أنها صورته هو. لكنه لم يستطع وراح يبكي ويصرخ، بينما تردد إيكو صداه في الغابة، وتسيل دموعه فوق صورته على الماء فتشوهها. لم يتحمل الشاب الجميل رؤية هذا التشوه، فسقط في الماء ومات غرقًا. لم يجدوا بعدها جسد نرسيس في الماء بل نبتت عند موقع غرقه زهرة نرجس، والتي كانت رمزا للموت عند الإغريق. فتحققت نبوءة العراف، ومات نرسيس بعد أن رأى ذاته المشوهة على حقيقتها. مات وهو يحب صورة وهمية عن ذاته دون أن يتَّحِد مع ذاته الحقيقية وحتى من دون أن يلمسها ولو مرة أخيرة.

يقال إن رؤية المرء لذاته المشوهة هي فرصة للتغيير، لذلك يعتبر الحكماء الاكتئاب والأمراض والكوارث فرصة لأنها تجعل البشر يواجهون عجزهم ويعترفون بتشوهاتهم، لكن النرجسية قد تبني أسوارًا بين الإنسان وقدرته على التغيُّر. لذلك ينصح الحكماء المرضى بالتواضع كي يتعرفوا على أنفسهم دون أن يغرقوا في حب ذواتهم، ويدعوهم للتوقف عن التغزل بصورتهم والتغني بإنجازاتهم والافتخار بجراحهم. على المريض أن يخرج خارج ذاته ليرى الآخر ويفهمه ويتعاطف معه. كانت هذه ورطة نرسيس وورطة صديقنا آكل المراحيض الذي يظن أنه المسيح يتحمل وحده آلام العالم وذنوبه وهو أيضا مفتاح الخلاص لكل البشر من خطاياهم.

للنرجسية وجوه عدة، وأقلها أهمية، هو وجه المغرور المتعالي، لأنه من السهل التعامل مع النرجسي الواضح إما بالمديح أو بالتصادم أو بالتجاهل. أما النرجسي المستتر، فهو الأخطر على نفسه وعلى من حوله. النرجسي المستتر لا يفتخر بإنجازاته ولا بمميزاته، بل بجروحه وأوجاعه وذنوبه. يصدّر للآخرين وجهه الحزين المنكسر، ويعترف بأخطائه لا ليتحمل تبعاتها، بل ليتحرر من المسؤولية باكتسابه تعاطف من حوله. لهذا اخترع كرسي الاعتراف في الكنيسة. ولهذا اخترع المسرح وبرامج التوك شو. لهذا يكتب الأدباء

القصائد والروايات. "فيتيشيزم الذنب"، لذة الشعور بالذنب هي أخطر أنواع النرجسية. المذنب يتقمص دور الإله ويظن أنه مسؤول عن كل أخطاء العالم وآلامه، لكنه يفر دوما من تحمل المسؤولية.

لم يثر دهشتي أن المدير قرر أن يضعنا في دائرة مغلقة، يعترف فيها كلٌّ منا بخطاياه للآخرين قبل أن يموت. لم أشعر بشيء حين قصصت عليهم قصتي، ولكني حين سمعت قصة إتشيرو، فهمت معنى النرجسية وكيف يغذّيها الشعور بالذنب. شعرت أن هذا المصنع هو النهر الذي بدأ فيه كل شيء وهو البحيرة التي سينتهي فيها كل شيء. هو الشاهد على الجريمة الأولى، وهو المرآة التي يجب أن يرى كل واحد فيها وجهه الحقيقي قبل أن يصير بلا وجه.
كلنا نرسيس. كلنا يهرب من جرح نرجسي قديم، كلنا يبحث عن صداه، وكلنا يتوق إلى أن يلتقي بذاته، لكن الواحد منا، يخشى الغرق في بحيرة رأسه.

ابتسم كوباياشي وبدا راضيًا عن هذا الاستنتاج. فهو يتفوق على نفسه في كل محاولة ومع كل نص يحيكه، يصبح أقرب إلى الروائيين الذين لطالما افتتن بما كتبوه. أخرج عود نكش الأسنان من فمه ودسه في جيبه ثم تمطى على كرسيه وراح يتفحص الوجوه، يدرس تعابيرها واعدا نفسه بتحويل كل ما هو مثير للاهتمام إلى مادة أدبيَّة ليوظفها في نَصّ حياته غير المتقن.

***

٧

تقلبت ناومي كثيرًا في سريرها قبل أن تتمكن من النوم تلك الليلة. تذكرت الكرات الثلاث التي قذفها إتشيرو نحوها، وتذكرت عينيه المنكسرتين ونظرته المتوسلة والتي أصبحت تملك لها ألف تبرير. كيف لا ينكسر وقد خبر اليتم منذ الدقائق الأولى من عمره؟ كيف استطاع أن يثق بالحياة وبالحب بعد تلك الطفولة البائسة؟ وماذا كان يريد منها يا ترى؟ تأرجحت مشاعرها بين التعاطف مع مآسيه والإعجاب بقدرته على التحمل. لكنها سرعان ما هربت من تلك المشاعر. التعاطف يجعلها رقيقة ويجعل قلبها عرضة للألم. لقد حسمت

الأمر مع الألم منذ مدة طويلة وقررت أن تعيش على الضفة الأخرى للحياة حيث لا مشاعر سوى الغضب واللامبالاة. لا، لن تسمح لهذا الغريب أن يوجه مركبها نحو ضفة الألم. لن تسمح لعدوى اليتم أن تنتقل من عينيه المستكينتين إلى قلبها المحصن بالمرارة والغضب. لذلك تمسكت بأكثر الاحتمالات سطحية: لا بد أن اسمها الذي لم تختره هو الحافز الذي جعله يريد أن يتواصل معها. وهذا أمر غبي. فكرت وهي تتقلب. ثم راحت تتذكر اعترافه وتتساءل: كيف ما زال يحب زوجته بعد أن أقدمت على قتل ابنتَيه؟ فناومي تحترم زوجته لأنها لم تترك ابنتيها لليتم والوحدة كما فعلت أمها، ولكن كيف يمكنه أن يقبل ذلك، ولا يكون حانقًا عليها؟ ركلت ناومي الغطاء بقدميها، وجلست تحدق في الظلام. قررت أن تستوضح الأمر منه غدًا عندما يغادر بقية العمال. ولهذا الغرض، ستحمل في جيبها قلمًا وورقة، فليس في قوانين المصنع أي بندٍ يحرِّم حمل القلم والورقة.

استيقظت من النوم على صداع نصفي في السادسة صباحًا. لم تحسب حساب صداعها، ولا تعرف ما إذا كان مسموحًا لها طلب حبة "بنادول"، أم أن عليها أن تعمل لساعاتٍ إضافية من أجل ذلك أيضا. دخلت الحمام، وفتحت المياه الباردة فوق رأسها راجية أن يخفف ذلك من حدة الصداع. ككل يوم، تجنبت النظر إلى النساء الأخريات اللواتي يستحممن حولها. لعلها، بِتجاهلهنَّ، تنسى هذا الإذلال الذي سلبها حقها في أي مكان تستمتع فيه بالخصوصية. عندما نظرت للأعلى، رأت كاميرات المراقبة، ففكرت أنه من الأفضل أن ترى من يراقب جسدها العاري، لا أن تكون وحدها في الحمام بينما يراقبها خفية أحد الغرباء.

ظلت الأسئلة تنبت داخل رأسها مثل الأعشاب البرية سريعة الانتشار. فهمت لماذا منعهم مدير المصنع من طرح الأسئلة. لا بد أنه يعلم أن الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه يوقظ كل الأسئلة التي تقاعسوا عن التفكير فيها حين كان ذلك ممكنا. لكنها وعلى الرغم من يقينها أن الأوان قد فات على طرح الأسئلة، سحبت ورقة وكتبت سؤالها الأول وكان موجها إلى المدير:

هل استلهمت فكرة هذا المصنع من النصوص الدينية؟ الجنة للمؤمنين بعد الشقاء في الدنيا، والراحة في الموت تكون لنا، نحن الذين لم تُرضِهم الحياة ولم تقنعهم الجنة؟

في أثناء العمل، لاحظت أن إتشيرو لم يكن يلاحقها بعينيه كما فعل في اليوم السابق. تعمَّدت ألا تنشغل به ولا تولي الأمر أهمية واستمرت في العمل، فهي تعلم أنهما سيبقيان وحدهما في المساء ولن تنجو من نظراته حينها. إلا أن ذاك المساء كان مخيبًا لآمالها، إتشيرو، الذي عادة ما يجلس موليًا ظهره للحائط، موجهًا نظره نحوها، اختار أن يدير ظهره لها. اجتاحتها موجة من الحيرة وهي تراه متكورًا فوق كراته كقطٍّ مذعور وراحت تتأمل انحناءة كتفيه وانعكاس الضوء الأصفر القادم من مصباح السقف والذي يسقط عموديًّا على فروة رأسه مظهرًا دائرة صغيرة بدأ الصلع يجتاحها. شعرت بموجة عارمة من التعاطف معه، كأنه سمع كل أحكامها عليه، أرادت أن تعتذر له أو ربما أرادت أن تعرف لماذا يتجنبها. هل هو أيضًا يشعر بنفسه مكشوفًا عاريًا، بعد أن حكى قصته كما لو أنه كان سمكة في حوض شفاف ومستدير؟ أم أن جفاءها هو السبب؟

مضت الساعة الأولى وهما على هذا الحال وصوت ارتطام الكرات المعدنية يبدد الصمت المخيم داخل القاعة. قبل انتهاء العمل بنصف ساعة، وضعت ناومي كرة معدنية على الأرض وقذفتها نحوه بسبابتها، فاستقرت على يمينه. حرك رأسه قليلًا ونظر إلى الكرة، ثم تابع عمله بصمت. ردة الفعل تلك، استفزت ناومي، فهي لم تكن قادرة على الاقتراب منه، وسؤاله "ماذا كنت تريد مني؟".
انتظرت دقيقتين ثم دحرجت كرة أخرى ارتطمت بمؤخرته هذه المرة. وإذا به يستدير نحوها بعينين باردتين خاليتين من أي تعبير. أربكتها نظرته لأنها رمت على عاتقها وحدها عبء التواصل. فالسؤال الذي كان في عينيه نهار أمس اختفى، وحلت مكانه نظرة شاردة، لا تطلب شيئا. فكرت ناومي كم من الصعب الوصول إلى أولئك الذين لا يطلبون شيئًا. نظرت إلى عينيه مباشرة ودحرجت كرة ثالثة ولكنها كانت من الورق هذه المرة. أمسك إتشيرو بها ودسها في جيبه وأكمل عمله.

في عنبر النوم، لاحظت ناومي أن هاناكو ما زالت مستيقظة في السرير السفلي. حين همت بتسلق السلم للصعود إلى سريرها شعرت ناومي بيد هاناكو تمسك ساقها. توقفت وهي ممسكة بيديها الاثنتين جانبي السلم وانحنت لتهمس "ماذا بك يا هاناكو؟"، لكن هاناكو ظلت صامتة. تأففت ناومي المرهقة بعد نهار عمل طويل، ونزلت مجددًا ثم جلست بجانبها. رأتها تضغط بيديها الاثنتين على الصليب الكبير المعلق بعنقها.
"أخبريني ماذا هنالك؟" همست ناومي في أذن هاناكو وسط الظلام.

"إنها الاحلام" قالت هاناكو "لقد رأيته مجددا يا ناومي... شعرت به وكأنه ما زال حيًّا!" أكملت وقد تدحرجت دمعة من طرف عينها باتجاه الوسادة. لم يسبق أن تحدثت هاناكو عن حياتها لناومي أو إلى أي أحد آخر. لذلك لم تفهم ناومي عمَّن كانت تتحدث، ترددت قليلًا، "أخبريني إن كان الحديث عن الأمر يمنحك الشعور بالراحة". قالت ناومي عارضة عليها آذانًا مصغية، وهو آخر ما تبقى من أشكال المواساة التي يمكن أن يقدمها إنسان لآخر في مكان كهذا.

***

عندما عاد إلى عنبر النوم واستلقى فوق سريره، قرأ إتشيرو ما كتبته ناومي في الورقة التي دحرجتها نحوه: "قابلني في الغرفة التي تقع في آخر الممر على اليمين في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل". راحت المشاعر والأفكار تتضارب داخل رأسه. ماذا عساها تريد منه؟ هل شكّت أنه كان يريد أن يجعلها تعيد النظر في مشروع الانتحار؟ ففي اللحظة التي ذكرت فيها اسمها لم يستطع إتشيرو أن يمنع نفسه من التفكير بأن هذا الاسم "إشارة" له كي يتصرف وينقذها. بعد أن لام نفسه على موت امرأتين اسمهما ناومي، فكَّر بأن إنقاذَ ناومي و إثناءَها عن الانتحار سيساعده على التصالح مع نفسه ولو قليلا. ثم إن قصتها بحد ذاتها لا تستدعي الانتحار. هذا ما ظنه إتشيرو وما دار في خلد معظم من كانوا يستمعون إلى قصة ناومي. صحيح أنها يتيمة، لكن اليتم يشبه بتر أحد الأطراف، قد يجعل الحياة صعبة، لكن تخطيه ليس مستحيلا. أما فشلها في الدراسة وفي علاقاتها العاطفية فهو أمر شائع بين كثير من البشر.

لكنه الآن لم يعد متأكدًا من أنه قد يطلب منها شيئا، فما الذي يجعل امرأة يائسة من حياتها أن تصغي لما قد يقوله؟ ما الذي يجبر إنسانًا عاقلًا على أن يستمع إليه بعد أن كشف حقيقته للجميع، وأفرغ قاذوراته كلها أمامهم؟ أراد أن يتجاهل طلبها أو أن يعتذر عن عدم الحضور، فالشعور بالهشاشة والانكسار الذي ينتابه، أقوى من أي رغبة في إسداء النصائح. أراد أن يتكوَّر على نفسه حتى يصبح مثل كرة معدنية صغيرة تتدحرج إلى إحدى الزوايا المظلمة وتُنسى لسنوات. ولكن كلمة "لا" كانت تحتاج إلى من هو أكثر ثقة منه. فالمنكسر يحيا في رحابة القبول الذي تولده كلمة "نعم" ولا يجيد التنفس في الحيز الضيق لكلمة "لا". لذلك قرر أن يذهب ويوضح لها أنه لا يريد منها شيئًا ويعود بعدها لينام بسلام.

في الساعة الثانية عشرة والنصف خرج إتشيرو من عنبره وسار باتجاه الحمام. فتح صنبور الماء وبلل يديه ليصفف خصلة واقفة على قمَّة رأسه جراء النوم على ظهره، ثم ألقى نظرة على عينيه المتعبتين وبشرته الشاحبة واتجه إلى الغرفة كما أشارت ناومي في الورقة.

لم يكن يعلم أن بإمكانهم دخول الغرف الجانبية، ظنَّ أن حركة العمال يجب أن تقتصر فقط على عنابر العمل والنوم وصالة الطعام. لكنه لا يذكر أيضًا أن تحريم دخول تلك الغرف، ورد في أي بند من بنود قوانين المصنع. عندما وصل إلى نهاية الممر، كان الباب مواربًا. وقف مترددًا للحظات، ثم دفعه بحركة خفيفة. كانت الغرفة غارقة في العتمة حين وقف إتشيرو عند الباب يحدق إلى الظلام ويده على المقبض. سمح الضوء الخافت المتسرب من الممر لناومي أن تتأملته. مرة أخرى شعرت بموجة من العطف تجاهه وبشيء من الامتنان لأنه أتى في موعده. تمنَّت لو ظلَّ الوضع كذلك لفترة أطول: هو في الضوء وهي في الظلام، تراقب انفعالاته وارتباكه بينما يقف تائهًا غير مدرك أنها تراقبه من داخل الغرفة المظلمة. تكره ناومي أن تتعاطف مع أحد، لذلك شعرت فجأة برغبة في التنصل من اللقاء وتجنب أي فرصة للتواصل معه. من المهم جدًّا أن تحافظ على سخطها ورفضها وعدم اكتراثها بالآخرين. ولكن حين استدار إتشيرو وبدا لها أنه سيغادر، أنارت ناومي مصباح اليد لا إراديًّا ووجهته إلى وجهه، فسارع وغطى عينيه بيده. وحين فتحهما مجددًا، وجدها تجلس على الأرض ملقيةً ظهرها على حائط منخفض الارتفاع، بدا وكأنه لمسرح صغير. كانت الغرفة فارغة إلا من بضعة أشياء تشبه أدوات التجميل ملقاة فوق الجدار. وجهت ناومي المصباح إلى البقعة المجاورة لها على الأرض وضربت بيدها فوقها مرتين، فهم إتشيرو أنها تريده أن يجلس هناك. سار نحوها بخطوات مثقلة، وألقى بجسده على الأرض محافظًا على مسافة بينهما تليق بطبيعة اللقاء وغرابته.

انتظرها أن تبدأ هي بالكلام، لكنها لم تفعل. فجلس في صمت مطبق جعل التوتر يتصاعد في شراييه ويتملك منه. التفت نحو ناومي، رآها تحدق فيه بنظراتٍ حادة كأنها تحثه على الكلام. فتح فمه ليقول شيئًا ثم صمت. ثم فتح فمه ثانية " أناا... أنا آسف" قال بصوت خافت، فوقفت ناومي وركلت قدمه ثم نظرت إليه باستغراب. أرجع إتشيرو قدميه إلى الوراء، ثم ضم ركبتيه إلى صدره وبدا تحت نظراتها كوطواط مذعور تحت ضوء ساطع.

جثت على ركبتيها، ومالت برأسها نحوه، وحين اقترب وجهها من وجهه، سمعت أنفاسه تتسارع، فقالت وهي تضغط على أسنانها: "عمَّ تعتذر؟ ها؟ هذا مثير للغثيان". لكن إتشيرو ظل يحدق فيها مشدوها وتنساب قطرات من العرق من جبينه فوق وجنتيه.

"لم أخبركم بالقصة كاملة" قال بشيء من التردد. فعادت ناومي وجلست مكانها وألقت ظهرها على الحائط

- " أكمل!" قالت بنبرة آمرة.
- "أقصد قصتي مع زوجتي وسبب انتحارها... لم أستطع أن أخبركم القصة كاملة لأني عندها لن أحتمل الانتظار حتى يأتي يوم إعدامي" قال وقد تحولت النظرات في عينيه من الذعر إلى الحزن.
- أنت من أولئك الأشخاص الأخلاقيين إذًا، الذين لا يحتملون أن يكونوا خطَّائين؟ أرأيت أني على حق؟ هذا الأمر مثير للغثيان!" قالت وكأنها فهمت كل شيء.
- أنتِ لم تفهمي يا ناومي. ولن تفهمي أبدا!
- هههههه أرأيت! من أين يأتي كل هذا الغرور لرجل مكسور مثلك؟ لن تفهميني أبدا" قلدته بنبرة ساخرة.

نظر إتشيرو إلى الأرض، أراد أن يقول لها إنها أيضًا مغرورة، وإنها تظن أنها تعرف كل شيء وتفهم كل شيء، لكنه تنهد وقال بصوت متردد:

- ماذا تريدين مني؟
- أردت أن أعرف ماذا كنت تريد أنت مني حين لوَّحت لي في النهار الذي سبق اعترافك أمام المجموعة. تستطيع أن تقول إنك هنا بسبب فضولي.
- خطرت لي فكرة بلهاء وأردت أن أثنيكِ عن الانتحار، ولكني عدتُ وأدركتُ أن لا قيمة لرأيي، لذلك لن أطلب منك شيئًا.
- لقد ظهر لي أنك ماكرٌ أيضًا يا إتشيرو. فقد طلبت مني للتو، ما ادَّعيت أنك لن تطلبه. قالت وابتسامة ماكرة تعلو وجهها.
- ربما أكون ماكرًا يا ناومي ولكني على الأقل صادقٌ مع نفسي وأَقبَلُ مشاعري وأفكاري مهما بدت غبية أو قاسية.

سمح الصمت الثقيل، الذي حلَّ بعد جملته، لناومي أن تأخذ كلامه وتديره إلى رأسها وكأنه فوهة بندقية. هل يقصد أنها غير صادقة مع نفسها؟ هل يعرف شيئًا عن مشاعرها المتضاربة تجاهه كإنسان مثير للريبة والشفقة في آنٍ معا.

- لماذا يهمك أمري؟ سألته وقد اكتسى صوتها بنبرة مختلفة كليا.
- لأني أحفظ تمامًا طعم اليتم الذي لف طفولتي وأراه فورًا في عيون الآخرين، ولأني لا أرى أن قرارك بالانتحار واستسلامك في هذه السن المبكرة مبرر.
- كيف تجرؤ على التقليل من شأن ألمي؟ هل تعي كم الاستعلاء في كلامك؟ سألت ناومي بانفعال.

حرك إيشيرو رأسه يمينًا ويسارًا وكأنه يرفض هذا الكلام ثم اعتذر لها مجددا:

- سامحيني لم أكن أقصد....

زفرت ناومي زفرة طويلة وألقت برأسها على الجدار. كانت تعي تماما أنها تتصرف بحماقة ووقاحة مع هذا الرجل المسكين الذي لم يوفر فرصة للاعتذار لها. ساءها انكساره وحرك فيها خوفًا من انكسارها هي. فهي لم تأت إلى هذا المكان إلا لأنها أنهت حساباتها مع هذا العالم وقررت أن تغادر الحياة بحد أدنى من الخسائر والمشاعر.

- أخبريني عن أمك؟

كان سؤال إتشيرو يشبه سقوط نقطة ماء فوق سطح ساخن. وبعد أن استقر السؤال في رأسها، وبعد أن تنحَّى الذعر المرافق له، وجدت نفسها تفكر في إجابة أخرى غير تلك التي اعتادت إعطاءها لكل من يوجه إليها هذا السؤال. لم تتلعثم هذه المرة ولا اجتاحتها نوبة الغضب التي تأتي كرد فعل على هذا السؤال، ولكنها وجدت نفسها تقول بتلقائية:

- "أمضيتُ سنوات طويلة أتخيل كيف سيكون لقائي الأول بأمي، جهَّزتُ في رأسي عشرات السيناريوهات لهذا اللقاء، اخترتُ بعناية الجملة الأولى التي سأقولها لها، والأسئلة التي سأطرحها عليها. كنتُ أكتب يومياتي في دفتر صغير، لا لأحتفظ بتلك الذكريات لنفسي، بل لأحكي لأمي كل ما مررتُ به في غيابها بالتفصيل." نظرَتْ ناومي إلى السقف ثم بلعت ريقها وأكملت "ولكني اليوم، وبعد أكثر من خمس وعشرين سنة على غيابها، لم أعد متأكدة من رغبتي في رؤيتها ولم يعد لديّ شيءٌ أرغب في قوله لها. لا أريد حتى أن أعرف لماذا قررَت الرحيل".

شعرت ناومي أن صمت إتشيرو لم يكن مجرد صمت مستمع مهذب، لقد كان يصغي باهتمامٍ كبير وحضورٍ جعله يتفاعل مع كل جملة إما بهز رأسه أو بإغماض عينيه. وبعد دقيقتين من الصمت سألها:

- ألا تظنين أنه من الأفضل لنا أحيانًا ألا نعرف أعذار الغائبين؟

وحين رأى أنها لم تفهم، تردد قليلًا قبل أن يدس يده في جيبه ويخرج منها رسالة مطوية. مد يده بالرسالة إلى ناومي:

- "هذه كانت الرسالة الأخيرة التي كتبَتْها زوجتي لي قبل أن تموت. ربما بعد قراءتها ستفهمين".

مدت ناومي يدها وأخذتها منه. وقف بعدها وانحنى ليمسد بنطال بيجامته الذي تجمع عند ركبتيه. وحين فتحت ناومي الرسالة وبدأت بقراءتها كان إتشيرو قد غادر الغرفة وعاد إلى سريره.

عزيزي إيتشيرو،

سامحني، لأنني ذهبت ولن أعود. لا تُحَمِّل نفسك ذنب رحيلي فأنا المسؤولة الوحيدة عن كل ما حدث. أعلم أنك ستتألم لغيابي ولغياب ابنتينا، لكنني لا أستطيع أن أحميك من هذا الوجع. لطالما تألمتُ كي أحميك من الألم، ولكن جاء الوقت كي أعتني بآلامي أنا. أخذتُ البنتين معي، لأنني لا أأتمنك عليهما. في اليوم الذي رأيتُ الرعب في عينيك حين أخبرتكَ أني حامل، انكسر شيء ولم يعد كما كان أبدا. حاولتُ جاهدةً ألا أشعر بالذنب تجاهك، ولكني شعرت. شعرت أنني خذلتك، بل خنتك، حين ورطتك في أبوَّة كنت تخشاها. وبذلتَ أنت جهدًا كبيرًا كي لا أشعر بأنَّك غاضب، ولكني كنت أحسُّ بغضبك بعدها في كل نظرة، في كل قُبلة وفي كل زهرة كنت تهديها لي. صرتُ أشعر بأني صغيرةٌ في وجودك. سألت نفسي إن كنتُ قد شعرتُ بهذا الإحساس قبل الحمل أيضًا، ولكني لم أتذكر. هل كنتَ تشعر أنت بذلك؟ الشيء الوحيد المؤكد، هو أن نظراتك لي كانت تجدد نظرتي السيئة لنفسي. هذا الإحساس ظل يتكرر وأنا أعيد بناء ثقتك بنفسك بعد كل هزيمة تعرضت لها، كنتُ أكثف هذا الشعور من أجلك، ولم أكن أعرف أني بذلك، أهدم به نفسي.

كنتَ تحبُ أن ترانا عائلةً سعيدة، ولكن الحقيقة أنني لم أكن سعيدة في حياتي يومًا واحدًا معك. كنتُ مشغولة بحمايتك من الانهيار. وانهيارك كان دائمًا على بُعد نظرة احتقار من شخص لا تعرفه أو نقدٍ يوجهه لك أحد أساتذتك في الجامعة، أو أي شيء. سحقتُ نفسي وخبأتها كي أصير لك أمًّا، حتى استنفذت مخزون الأمومة المخصص لابنتيَّ. حتى أنوثتي قدمتها قربانًا لك. شعرتُ بالإهانة يوم وصلتك رسالة على الهاتف، فابتسمتَ ابتسامةً كانت غريبة عليَّ. سألتك ممن كانت الرسالة، فقلت إنها من صديق قديم. لم أصدقك، فلم يكن لك، كما أعرف، أصدقاء قدامى ولا جدد. كنتُ متأكدةً أنها من "ساوري" الطالبة الشقية التي حدثتني عن جنونها بحماسٍ غريبٍ عليك. لستُ متأكدةً إن كنتَ ضاجعتها أم لا، ولكن ابتسامتك فعلت. كان كل كيلوغرام تفقده من وزنك بعد هذه الابتسامة، يكدس في داخلي أطنانًا من الحزن. كان كل إشعارٍ بوصول رسالة جديدة على هاتفك بمثابة كومة شوك تنثرها على فراشنا الزوجي. كنت ضائعة خلف أرطال زائدة من الشحم بدأت تظهر على جسدي أثناء الحمل وبعده. أحسست أنك شعرتَ بارتياحٍ غريبٍ

حين تبادلنا الأدوار: فأصبحتَ أنت المحاضر الجامعي النحيف المحبوب، وأنا ربة المنزل البدينة التي تتوارى عن العالم خلف وزنها الزائد.

تعمدتَ تهميشي بعد أن استغنيتَ عن وجود امرأة تلعب معك دور الأم، وانصرفت لامرأة تتحدى الصياد فيك. نصحتني أن أبحث عن هوايات جديدة أو أن أكتب، كنتُ أسمعك كأنك تقول لي "ابتعدي عني، افسحي لي المجال كي أرى من العالم شيئًا آخر غيرك!".

حاولتُ أن أستعير أسبابًا جديدة للحزن. استعدت شريط حياتي، رحت أنقب عن أي حدث يبرر لي حزني وبكائي. بكيتُ على كل من ماتوا في عائلتي بأثر رجعي، حتى على من لم تكن تربطني بهم علاقة قوية. عرفتُ من خلال تلك الدموع أن ما تراكم في داخلي من الحزن، أبعد من قدرتي على الرؤية والفهم، وأن جذور ذلك الحزن تمتد إلى الرحم التي حملتني. إلى أمي. أمي التي كانت تغار حين يُطيل أبي عناقي وتقبيلي في طفولتي فتعمَّدَت أن تُلبسني ملابس الصبيان وأن تقص شعري مثلهم. تدرَّبتُ على الاختفاء وإنكار أنوثتي قبل لقائك بكثير كي لا أبني جدارا عازلا بين أمي وأبي. وجدتُ أني أتصرف معك بالطريقة نفسها وأنسحب كي لا أقف بينك وبين لُعبتك الجديدة.

الذنب ليس ذنبك، فأنا المجبولة على الاعتذار لأني موجودة، ولأني أنثى. لكنك على الرغم من كل شيء لست بريئًا تمامًا. بعد أيام من ابتسامتك المريبة، صعقني الغضب في نبرة صوتك وأنت تقول لي "اللغة اليابانية لغة محدودة وطفولية ولا تصلح للأدب". ربما كنتُ سأوافِقك لو قلتَ هذا الكلام في سياق آخر، أما أن تقوله بعد قراءة أول قصة قصيرة أكتبُها عن امرأة تؤجر عينيها لنساء لا يستطعن البكاء، فقد كانت ضربة موجعة. لو كنت تقصد أن تجرحني، فذنبك كبير، أما إن لم تكن تقصد، فالذنب أكبر. وفي الحالتين، تصرَّفتَ مثل الأطفال الذين كانوا يتنمرون عليك في المدرسة ليشعروا ببعض الجبروت، مع الفارق أن الأطفال كان لديهم العذر، أنهم مجرد أطفال. ربما كان هذا ذنبي أيضًا، أنني احتفظت بك كطفل يواجه العجز بالبكاء ولا يقوى على تحمل المسؤولية.

ظلت عبارتك، التي سحقت قصتي القصيرة والطويلة، تتردد في رأسي، جددت رغبتي في الاختفاء. كنتَ تحب أن ترانا أسرة سعيدة، لأن هذه الفكرة ترمم وجودك الهش، وتقدم لك اعتذارًا عن ماضيك التعيس، أما أنا فصرتُ أراك وغدًا يستخدم رصيده القديم من الوجع ليبرر إيذاءه لمن حوله. وأنا؟ معك أصبحتُ مجرد علامة تعجب: خط رفيع كان ذات يومٍ كيانًا له حَيِّزٌ من الوجود، لكنه ضُغِط وظل يقطر دموعه على

خجل. كرهتُ نفسي معك. كرهتها لأجلك، لأنني رفضت أن أكرهك. حاولت أن أجد مبررًا لشعوري أمامك بالخجل ولم أجده، ولكن خجلي منك كان حقيقة. خجلتُ من شعوري بالتفاهة في وجودك، وشعرت بالفشل لأنني لم أكن لنفسي براحًا آمنًا كما كنتُ لك. تحوَّلي إلى علامة تعجب كان أقرب ما يكون إلى الشعور بالضآلة ثم الاندثار.

كنت أعلم أن لديَّ خيارًا آخر، بإمكاني أن أحزم أمتعتي وآخذ ابنتينا وأغادر بلا رجعة، لأبحث عن حيز أكبر بعيدًا عنك. ولكن فجأة أصبح الحيز الكامل مفزعًا لي. حشرتُ نفسي في قوقعتك أنت، فضاقت بي وبك، ونسيتُ كيف أتنفس في الفضاء الرحب. نسيتُ كيف أتنفس لي لا لك أنت. الرجوع للحيز الكبير مفزع، الوجود مفزع، بقائي معك مفزع، ورحيلي عنك مفزع. لذلك قررت الرحيل عن نفسي كي أريحك وأرتاح.

كن بخير يا إتشيرو، ولا تَنسَ أن تغلق محبس الغاز كل ليلة قبل أن تنام!

***

قفزت عينا ناومي فوق السطور وهي تقرأ الرسالة على ضوء مصباح الجيب الذي تحمله بين شفتيها، وكأنها لا تصدق ما قرأته. وللحظات شعرت بعدم الارتياح حيال هذا التلصص على حياة امرأةٍ لم تعد موجودة، لكنها لم تستطع أن تردع نفسها عن معرفة المزيد. عندما أكملت قراءة الرسالة، تركتها جانبًا على الأرض، أطفأت المصباح ووضعته فوقها. ثم ثبتت راحتيها على جانبي رأسها بينما استراح كُوعاها على ركبتيها، وقالت "اللعنة" بصوت عال بدد صمت الليل واخترق ظلمته. كانت ناومي تكره أن تجد نفسها في مثل هذا الموقف، الذي يجبرها على الوقوف إلى جانب أحد طرفي صراع. "فليذهب كلاهما إلى الجحيم!" قالت بعد أن حولت الرسالة إلى كتلة ورقية قذفتها إلى إحدى زوايا الغرفة. ولكن عندما نهضت لتعود إلى سريرها، تذكرت أن الرسالة لإتشيرو وليس من حقها أن تتلفها، مشت نحوها وانحنت وهي ترفع رجلًا في الهواء إلى الوراء والتقطت الورقة.

تقلب إتشيرو في فراشه دون أن يغمض له جفن. وراح الشعور بالعار يغزو كيانه ويرسخ نظرته السلبية عن نفسه، حتى واتته الرغبة في إنهاء حياته بنفسه في تلك الليلة. سِرُّه الكبير أصبح ملكًا لشخص آخر، وهو لا يعرف لماذا اختار أن يُطلع ناومي على هذا الجزء المحذوف من القصة. هل أراد بذلك كرسي اعتراف إضافي يريح كاهله؟ هل كان يبحث عن التعاطف؟ أم أنه فعل ذلك من أجل ناومي نفسها؟ طاردته الأسئلة حتى ساعات الفجر الأولى. وحين استيقظ عند السادسة صباحًا على صوت الصفارات، شعر بأن رأسه يزن عشرات الكيلوغرامات.

لم يجرؤ إتشيرو على رفع نظره والبحث عن ناومي في قاعة الطعام عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا. أخذ صينيته من فوق السطح المعدني وتوجه إلى الحمام وجلس يأكل ويفكر. أعاد الصينية إلى مكان الغسيل، وجلس شارد الذهن خلف إحدى الطاولات في غرفة الطعام. شعر بعدها بنقرة على رأسه من الخلف.

"آي" قال متألمًا، وإذا بناومي تضع صينيتها على الطاولة وتجلس قبالته.

ظل صامتًا وناومي تدس عودي الطعام في حبات البطاطا المسلوقة فوق صحنها دون أن ترفعها إلى فمها.

- لماذا اخترتَ أن تشاركني سِرَّك هذا يا إتشيرو؟ سألت ناومي وهي لا تزال تعبث بطعامها.
- لا أعرف. ربما فعلت هذا لأعاقب نفسي، فقد كنت جبانًا ولم أعترف بكل شيء أمام المجموعة. قال وهو يرسم دوائر بسبابته فوق سطح الطاولة، متجاهلًا نظرات ناومي الحادة.
- اسمع يا إتشيرو. لقد فكرتُ كثيرا في قصتك وقصة زوجتك. وأكره أن أقول لك إن زوجتك –فلترقد روحها بسلام– لم تكن بالبراءة التي وصفتَها.
- ولكن يا ناومي، أنت لا تفهمين...

وقفت ناومي فجأة محدثة صوت صرير نتج عن احتكاك أرجل كرسيها على الأرض، ثم رفعت إصبعها في وجهه:

- إسمع يا إتشيرو، هذه آخر مرة أسمح لك أن تقول لي إنني لا أفهم. ربما تَجَرُّدي وعدم توَرُّطي في القصة كلها، يجعلني قادرة على الفهم أكثر منك بكثير، فإياك أن تقاطعني ثانية! قالت مهددة.

هزَّ إتشيرو رأسه وشبك يديه فوق الطاولة وراح يحدق فيهما وقد ظهر في عينيه شيءٌ من الخوف الممزوج بالحزن. فجلست ناومي وأكملت:

- ما أحاول قوله هو إن زوجتك بتركها لتلك الرسالة، أرادت تدميرك عن سابق إصرار وتصميم. وباختيارها الانتحار بهذه الطريقة بالذات، أرادت منك أن تدفع أنت الثمن على مدى عمرك كله. أنا أعرف هؤلاء الأشخاص تمام المعرفة وأفهم كم يغبطهم الابتزاز العاطفي الذي يمارسونه على من حولهم...

أزاحت صينيتها إلى اليمين واتكأت بكوعيها على الطاولة دافعةً جذعها إلى الأمام لتصبح أقرب من إتشيرو. وإذا بهاناكو التي كانت تجلس مع عمال آخرين على الطاولة المجاورة تقترب من ناومي قائلة "عذرا على المقاطعة يا أصدقاء، ولكن هل ما زلتِ تريدين أكل الطعام المتبقي يا ناومي؟" أشارت ناومي للصينية بيدها مبتسمة "كله لك. استمتعي!" قالت لهاناكو التي حملت الصينية وعادت إلى مكانها. أكملت ناومي:

- هم أكثر دهاءً مما يخيّل لعقلك الذي ينهشه الشعور بالذنب. فهم ينصبون الفخاخ بعناية وينتظرون لحظةً تكون فيها منشغلًا بشيءٍ مصيري، أو مرتبكًا بسبب مشاكل حياتية أو مادية، ثم ينقضون عليك بقصص جمعوها بعناية ليثبتوا لك كم أنت مهمل وجاحد وحقير. إنه فن الانتقاء وصناعة الحبكة يا إتشيرو وهم فنانون بارعون!

راح إتشيرو يهز رأسه يمينًا ويسارًا احتجاجًا على كلامها، لكن ناومي منعته من مقاطعتها حتى فرغت من حديثها.

- حسنا، الآن بإمكانك أن تتكلم. قالت بعد أن أرجعت ظهرها لتسنده على الكرسي.
- هل تقولين هذا لتبرئتي يا ناومي؟
- لا لا مطلقا. أنت لست بريئًا يا إتشيرو. أنت مثل جميع البشر: مزيج من الحقارة والنبل، القسوة والتعاطف، وفي رصيدك مواقف محرجة وأخرى مشرفة. أنت شخص عادي! هذا ما أحاول أن أقوله لك منذ البداية، وهذا ما تحاول أنت أن ترفضه عن طريق تعظيم نفسك وتعظيم ذنوبك.

وقفت ناومي فجأة وراحت تُعرِّف بإتشيرو مستخدمةً صوت رجل ملوِّحةً بيديها وكأنَّها تُقدِّم شخصية تاريخية فوق مسرح عريق:

- "هنا إتشيرو العظيم، سبب تعاسة البشر وبؤس الآلهة. هنا إتشيرو العظيم، تعالوا تباركوا به قبل أن تحلَّ عليه اللعنة ويتحول إلى حجر. اسجدوا لإتشيرو الجبار!". ثم ضحكت بصوت مرتفع مما جعل رؤوس العمال في الصالة تتحول نحوها.

راقبها إتشيرو بمزيج من الإحراج والنفور، ولكنه علم، كونه مراقِبًا جيدًا، أنها تستخدم هذا الأسلوب الساخر الشرس مجددًا كي تحمي نفسها من التورط في العواطف فقرر أن يضغط عليها:

- وأنتِ يا ناومي، كيف تعرفين كل تلك التفاصيل عن هؤلاء الأشخاص الذين تتهمينهم بالابتزاز؟ سأل وقد شعر من نظرة ناومي أنه وضع يده على بقعة حساسة في وجدانها.
- سأخبرك لاحقًا. دعنا نلتقي الليلة في ذات التوقيت والمكان. قالت، من دون أن تنتظر جوابًا منه، وقفت ودفعت الكرسي الذي كانت تجلس عليه إلى الأمام ليأخذ مكانه تحت الطاولة، ثم توجهت إلى عنبر العمل.

ظل رأسها يضج بالأفكار طيلة ساعات العمل، أفكار حول الموت والحياة، وأخرى حول إتشيرو وزوجته. تذكرت "وتانابي"، الرجل العجوز الذي تبنَّاها وتولى تربيتها بعد أن مات والدها. لقد عرفت مع هذا العجوز، الذي أثنى الجميع على وداعته ونبله، أسوأ أنواع الابتزاز العاطفي. لم تصدق عينيها عندما عادت مرة إلى المنزل ووجدته متكورًا في سريرها يحتضن بيجامتها ويبكي لأنها قررت أن تنتقل من بيته في ريف "ناجانو" إلى مدينة كيوتو للالتحاق بالجامعة. أحبطها ذلك العجوز الذي حمَّلها عبء سد حاجاته العاطفية، جعلها تكره نفسها لأنها فعلت ما كان يفعله كل شخص في سنها.

"هل حقًّا ستتركينني أعيش وحدي وأموت وحدي هنا يا ناومي، وأنا الذي حميتك من الوحدة والتشرد بعد أن تخلى عنك الجميع؟" ظلت هذه الجملة تلاحقها ككلبٍ مسعورٍ أثناء سنوات دراستها الأولى، تؤنب نفسها على كل وجبة لذيذة تأكلها بعيدًا عنه، ولا تستطيع أن تستمتع بأي نجاح أو علاقة جديدة. حينها فقط أدركت أنها لم تكن دائمًا بهذا الذكاء والقدرة على التحليل، بل احتاجت إلى مساعدة من طبيب نفسي ليوضح لها الصورة ويبين لها أن العجوز هو الذي يؤذيها وليس العكس. ربما لهذا وجدت نفسها تبادر لمساعدة إتشيرو في حربه ضد الشعور بالذنب الذي ينخر قلبه. ارتاحت عندما ربطت الأمور بهذه الطريقة وبررت لنفسها اهتمامها بإتشيرو. التعاطف مع الآخرين والاهتمام لأمرهم هو آخر شيء تريده في أيامها الأخيرة. كان عليها أن تذكّر نفسها باستمرار أنهم جميعًا على بُعد خطواتٍ من الموت، وأن الدور قد يأتي على أي واحد من الزملاء فلا يكون موجودًا بينهم في اليوم التالي.

التقيا بعد منتصف الليل في الغرفة نفسها التي تقابلا فيها في المرة السابقة، جلسا يسندان ظهريهما إلى جدار المسرح البارد وراحت ناومي تخبره بكل شيء عن العجوز.

استطاعت رغم الظلام أن ترى وجهه يستدير ناحيتها أو ربما عرفت هذا من صوته:

- آسف يا ناومي، أنه كان عليك التعامل مع الابتزاز العاطفي وأنت في هذه السن. لا بد أن ذلك كان قاسيًا. صمت إتشيرو لبرهة، ثم أضاف "أظن أنني بدأت أفهم ما تعنينه بحديثك... أنت يا ناومي الشخص الوحيد الذي سيساعدني على مغادرة هذه الحياة بشيءٍ من العرفان".

أرادت أن تقول له: الآن، بدأت ترى الحقيقة، فأصبحتَ مستعدا لأن تعيش لا أن تموت! لكنها كانت تعلم أنه قد فات الأوان، فالتراجع عن هذا القرار لم يعد ممكنًا. في تلك اللحظة أدركت وبشكل مفاجئ –يشبه بدفئه وحرقته الرشفة الأولى من كأس الويسكي– كم هما محظوظان لينعما برفقة بعضهما في أيامهما الأخيرة! عدلت ناومي جلستها، أزاحت ظهرها عن الجدار، ثم راحت تربت على ركبة إتشيرو الذي كان يثنيها ويرفعها أمامه. "أنزلها" قالت، وعندما مد ساقه وضعت رأسها على فخذه، مدت ساقيها وعقدت يديها فوق بطنها، وبينما بقي إتشيرو صامتًا، خُيّل إليها أن أنفاسه، التي عادة ما تكون مسموعة بسبب احتقان جيوبه الأنفية، قد خفتت.

"تنفس يا إتشيرو! لا أريدك أن تموت اختناقا" قالت وقد أتبعت جملتها بضحكة خفيفة.

- أتعلم؟ سألته بعد لحظات.
- أمممم؟ همهم مستفسرا.
- حين رأيتك للمرة الأولى شعرت بنفور تجاهك لم أستطع تبريره، والآن أشعر في قربك بأمان لا أستطيع تبريره أيضا.
- أستطيع أن أفهم ما تقولين. فبعد كل ما حدث معي وكل ما بدر منك، كان يجب أن أتجنبك. ولكن شيئًا ما بداخلي لم يصدّق الفظاظة التي واجهتِني بها في البداية. بدأتُ أعتقد أن التواصل الحقيقي بين البشر يحدث حين يتخلى كل شخص عن الأسوار والأشواك التي تحميه من الآخرين.
- وأنا بدأت أعتقد أن الإنسان يصل إلى الانتحار بسبب ما فعله هو بنفسه وليس بسبب ما فعله الآخرون به.

لم يقل إتشيرو شيئًا، سمع الجملة وراح يقلّبها داخل رأسه بصمت. بعد لحظات، شعرت بيده تمرُّ على جبينها وتداعب شعرها. لا تذكرُ ناومي أن أحدًا قد داعب شعرها من قبل، وتعجَّبت كيف للإنسان أن يفتقد شيئًا بشدة من دون أن يكون قد اختبره من قبل.

***

٨

لا تحب هاناكو أن تعترف حتى لنفسها بأنها تجد عزاءً في التنظيف. وحين يتسرب إليها شعورٌ مبهمٌ بالقلق أو التوتر تسارع إلى خزانة المراحيض حيث توضع أدوات التنظيف، تأخذ خرقة مبللة وفرشاة ومكنسة ثم تسرح في الممرات وبين العنابر. تمسح الغبار، تنفض شراشف الأسِرَّة وتقلب الوسائد دافعة الحشوة القطنية إلى المنتصف عبر التربيت على الوسادة بيديها الاثنتين. اكتشفت هاناكو، من دون قصد، أن كل الأشياء الغالية على قلوب أصحابها يتم دسها تحت الوسائد. وجدت صورة لرجل خمسيني تحت وسادة المرأة التي جاءت لتنتحر من شدة الملل، يقف الرجل أمام معبد بقبة ذهبية، واضعًا يديه على خاصرتيه. ابتسامته العريضة، توحي بأنه كان يعيش حالة من الفرح العارم. هكذا، ظنت هاناكو، لكنها تساءلت: كيف لصورة التقطت في لحظة فرح أن تنتهي في هذا المكان؟!

تحت وسادة المرأة المصابة بالسرطان، وجدت صورة صغيرة لشابتين مراهقتين تجلسان في المقعد الأمامي لأفعوانية في مدينة ملاهٍ. من الواضح أن الشابتين كانتا في قمة السعادة، ترفع كل منهما يديها للأعلى وتضحكان بشدة. تأملت هاناكو الصورة كثيرًا، وتمنت لو تستطيع أن تسأل زميلتها لماذا اختارت هذه الصورة بالذات لترافقها إلى هنا. لم تستغرب حين وجدت نسخة من القرآن، بحجم الكف، تحت وسادة المرأة المسلمة بقدر ما استغربت حين وجدت مصباح الجيب تحت وسادة ناومي. هزت رأسها وابتسمت. "مجنونة ناومي" همهمت لنفسها قبل أن تكمل ترتيب السرير. هذا العبث غير المقصود بمقتنيات الآخرين جعلها تشعر بأنها أقرب إليهم وإلى مآسيهم. لم يكن من الصعب على هاناكو أن تقرر ماذا ستجلب معها إلى هنا، وماذا ستترك هناك. فحياتها كلها كانت مقتصرة على يوشيدا الذي يرقد الآن على صدرها على شكل ألماسة، أما الآخرون فكان لهم ما لم تحظَ هي به – حيوات حقيقية وتجارب واقعية. في تلك اللحظة بالذات انتبهت لهول فكرة أن يأتي أشخاص إلى هنا من أجل الانتحار تاركين أحباءهم وعائلاتهم وراءهم! يوشيدا كان كل عائلتها، وكانت مستعدة لأن تمضي بقية عمرها في خدمته.

اعتادت هاناكو تفحُّصَ بعض الأشياء التي تجدها خلال التنظيف، لكنها في معظم الأحيان كانت تنظف بطريقة آلية كأنها روبوت. تمسح الغبار، ترفع الأشياء من على الأرض، تكنس وتمسح مكانها ثم تعيدها. وتعيد الكرَّة كلما دخلت إلى غرفة جديدة. لم تقصد هاناكو أن تجد غرفة المدير. ولكنها عندما أدارت المقبض، وبعد أن فُتح الباب، أدركت أنها في المكان الذي يظهر خلف المدير عندما يتحدث إليهم من خلال الشاشة. استدارت لتتفحص بقية الغرفة، وعندما رأت مكتبةً تحتل أحد الجدران وتكاد تصل إلى السقف وضعت يديها على خاصرتيها وبدأت تفكر بالطريقة الأفضل لتنظيف تلك المكتبة. ولكن قبل أن تتوجه إلى المكتبة وبيدها الفرشاة القطنية المخصصة لنفض الغبار، استوقفها شيءٌ آخر. اقتربت من مكتب المدير ببطء، وبحذر شديد حملت الزجاجة الحلزونية التي لطالما رأتها في يد المدير. أمسكت بها ونظرت إليها بتمعن وخُيِّل إليها أنها جنين ابتلع حبله السّري. وضعتها مجددًا على المكتب وابتعدت خطوتين ومن حيث تقف بدت الزجاجة لها مثل متاهة كبيرة تعبث بعقلها كلما أطالت النظر إليها. ولكنها رأت حبيبات الغبار العالقة في التفافاتها ولم تستطع مقاومة فكرة تنظيفها.

استيقظ المدير متأخرًا في العنبر الممتلئ بالأَسِرَّة ذات الطابقين، والذي لا ينام فيه أحد غيره. ينام كل يوم في آخر سرير بجوار الحائط، ويتنقل باستمرار بين السرير العلوي والسفلي أثناء الليل. وقف أمام المرآة يتأمل بقعة كَلَف بجانب حاجبه الأيمن. لا يدري إن كانت تلك البقعة الداكنة قديمة، لكنه بدأ ينتبه لوجودها مؤخرًا بعد أن زادت مساحتها، وأصبحت واضحة للعيان. أشاح بوجهه، وبدأ بتنظيف أسنانه ثم ارتدى بزته الرمادية ومشى بخطى بطيئة إلى غرفة المكتب، وما إن فتح الباب حتى فوجئ بـ "هاناكو" تقف منحنية على مكتبه وتدير ظهرها له.

- ماذا تفعلين هنا؟ سأل بانفعال.

استدارت هاناكو ممسكةً بالزجاجة الغامضة التي يضعها المدير على يمينه دائمًا وهو يلقي كلمته إلى العمال.

- كنت أنظف .... قالت بتردد وهي تُخرج خرقة من جوف الزجاجة.
- من سمح لك بالدخول إلى هنا؟
- وجدتُ الباب مفتوحًا فدخلت.
- هكذا بكل بساطة؟

- نعم، فأنا لا أذكر أن حضرتك أخبرتنا بأنه ممنوعٌ علينا دخول مكتبك، ثم إذا كان الدخول ممنوعًا، لماذا لا تغلق الباب بالمفتاح؟ لاحظتُ أن المصنع كله عبارة عن غرفة داخل غرفة داخل غرفة.

نفضت الخرقة في الهواء وحكَّت أرنبة أنفها بظاهر يدها وأكملت "لاحظتُ أن جميع الغرف في هذا المصنع غير مغلقة ما عدا الغرفة المجاورة لعنبر نومك التي لا يدخلها إلا طبيب المصنع والممرضات. وتساءلتُ عن هذا الشيء القيِّم في الغرفة والذي يجعلك تقفلها بالمفتاح!

- "هل من عادتك الثرثرة وعدم التوقف عن طرح الأسئلة، عندما تجدين نفسك في موقف محرج؟" سألها المدير بازدراء ثم قال لها بصيغة الأمر "ضعي هذه الزجاجة مكانها".

وضعت هاناكاو الزجاجة برفق على المكتب، ثم سألت:

- ما هذه الزجاجة؟

ولكن المدير تجاهل سؤالها:

- أعرف من تكونين؟ أنت الراهبة التي طلبت أن يُسمَح لها بالاحتفاظ بالصليب وعدم مصادرته مع بقية أغراضها. أليس كذلك؟

تحسست هاناكو صليبها وكأنها تحاول التأكد من وجوده وحمايته ثم هزَّت رأسها موافقة.

- أترين؟ أنا لست قاسيًا إلى هذا الحد. إن كان موتك وأنت تضعين هذا الصليب حول عنقك يمنحك شعورًا بالراحة، فلا مانع لديّ، مهمتي هي تأمين انتقال مريح وخال من الألم لكم جميعا! قال وكأنه يتغزل بنفسه. وعندما همت هاناكو بالمغادرة سألها:

- لماذا أثارت الزجاجة اهتمامك؟

رفعت هاناكو كتفيها قائلة:

- رأيت فيها شيئًا من السحر، وحين أمسكتها، شعرت براحة شديدة. لكن سرعان ما انقبض صدري فجأة، كأنَّ فوهتها شفَّاط قوي يسحب الهواء كله من الغرفة.

- أيمكن لزجاجة أن تحرك شعورًا كهذا؟ سأل المدير وكأنه يحثها على قول المزيد قبل أن يتوجه نحو الكرسي وراء المكتب للجلوس عليه.

- "نعم" قالت هاناكو، وأمسكت الخرقة بيديها أمام بطنها الكبير. جالت بعينيها في أرجاء الغرفة كأنها تبحث عن شيء قد يساعدها على اختيار الكلمات المناسبة، ثم أضافت "حين كنت أتأملها من خلال الشاشة، ظننت أنها زجاجة داخل زجاجة، ولكني حين رأيتها بعينيَّ ولمستها بيدي، اكتشفت أنها ليست زجاجة، بل هي أنبوب يلتف حول نفسه، كأنَّه يحاول اختراق ذاته، بهدف العبور إلى الجانب الآخر منه. هذا المنظر سبَّب لي الاختناق! قالت وكأنها تشتكي.

بدت علامات الترقب على وجه المدير الذي رفع عود الكبريت إلى الغليون المثبَّت بين أسنانه:

- "الآن اجلسي" قال آمرًا وهو ممسكٌ بغليونه "وفكّري في شيءٍ جيدٍ تقولينه عن الزجاجة".

لاحظت هاناكو تغيُّرًا طفيفًا في نظرته. نظرة تفوح منها رائحة عدم الاستقرار النفسي وكأنه فجأة تحول إلى شخصٍ آخر غير الذي تعرفت عليه من خلال الشاشة، فجلست دون اعتراض.

- "إنه تصميمٌ جميل ويشبه عملًا فنيًّا سرياليًّا" قالت هاناكو باندفاع وكأنها تعتذر عما بدر منها سابقًا.

لكن المدير بدا غير راضٍ عما قالته:

- "والآن، قولي الحقيقة" قال وهو يستعجلها ملوحًا بيده "هيَّا، هيَّا دون أن تفكري، ما هي الفكرة التي تكونت داخل رأسك في أول لحظة رأيتِ فيها الزجاجة".

تلعثمت هاناكو، وقررت أن تقول الحقيقة، فكيف لها أن تخاف من الشخص الذي منحته تفويضًا بقتلها. أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت:

- إنه أنبوبٌ... لكنه ليس أنبوبًا.. أعني... لم أتمكن من أن أحدد أين يبدأ وأين ينتهي. لم أستطع أن أعرف الفرق ما بين أوله وآخره ولا ما بين داخله وخارجه.. الأنبوب إما أن يكون إناءً يحتفظ بشيء أو قناةً تنقل شيئًا من مكان إلى مكان. ولكن ما فائدة أنبوب يخترق نفسه ليصطدم بنفسه ولا يمكن له أن يحتوي على أي شيء؟

وقف المدير وبدأ يصفق بيديه. بينما اتسعت عينا هاناكو وهي تحاول أن تفهم كل ما يحدث.

- واو... أنتِ تطرحين السؤال الصحيح، هاناكو سان. شيءٌ رائعٌ حقًّا. امرأة قضت نصف حياتها في دارٍ للأيتام، والنصف الآخر في ديرٍ منعزل، لم تدرس الفلسفة ولا الفيزياء ولا تعرف شيئًا عن الأشكال الهندسية، لكنها استطاعت أن تفك لغز زجاجة كلاين!

أحَسَّت بشيءٍ من السخرية في كلامه، فهي لم تكن من النساء اللواتي يسهل عليهن سماع الإطراء أو تصديقه. نظرت إليه باستغراب وسألت:

- زجاجة كلاين؟
- نعم، هذا هو اسم هذه الزجاجة، التي بالفعل ليست زجاجة.

أراد أن يشرح لها أن كلمة "زجاجة" كانت خطأ إملائيًا، وبقي الخطأ قائمًا بعد الترجمة من اللغة الألمانية إلى اللغات الأخرى. اسمها الأصلي هو "سطح كلاين" ولأن كلمة "سطح" بالألمانية تشبه كلمة "زجاجة"، والشكل الهندسي يشبه الزجاجة، تُرجمت على أنها زجاجة، حتى أن الألمان أنفسهم، صاروا يسمونها زجاجة. حتى الزجاجة التي أمامهما الآن، ليست زجاجة كلاين الحقيقية، بل محاكاة لظلها في عالم ثلاثي الأبعاد. زجاجة كلاين غير موجودة إلا في خيال الرياضيين، ولا يمكن أن تتجسد إلا في عالم افتراضي رباعي الأبعاد، حيث يعبر عنق الزجاجة إلى داخلها دون أن يخترق جسدها. اختراق الذات دون أن ندميها، مجرد خيال فيزيائي.
لكن المدير احتفظ بهذه الشروحات لنفسه لأنه كان متأكدًا أن هذا الكلام أبعد وأكثر تعقيدًا من أن تفهمه امرأة بسيطة كهاناكو.

وقفت هاناكو بحذر لتفهم إن كان مسموحًا لها بالمغادرة، فقال المدير:
– "سؤال أخير هاناكو سان". أخذ نفسًا من غليونه وأرجع ظهره على الكرسي "بما أنك مدبرة منزل محترفة، لو أردتُ أن أملأ هذه الزجاجة، التي ليست بزجاجة، بشيء مثل الزيت مثلًا، فكيف يمكنني أن أفعل ذلك دون أن ينسكب الزيت؟

وحين رأى الضياع في عينيها قال لها إنه سينتظر إجابتها على السؤال، ووعدته هي أن تفكر بالأمر وتعود إليه بما قد يخطر ببالها.

ربما لو لم تكن هذه الزجاجة هدية من "كاتارينا" لما حمَّلها المدير هذا الكم من الأفكار والمشاعر. ولكنَّ الإنسان المثقل بحمولته الزائدة يفتش دائمًا عن أي شيءٍ ليشاركه هذا الحمل. فبعضنا يختار أغنية أو معزوفة أو مكانًا ما ليسقط عليه مشاعره ويعلنه نصبًا تذكاريًّا لعلاقة ما. ولكن المدير وجد في التواءات الزجاجة وفي تاريخه مع كاتارينا ما يجعلها مناسبة لتأويلاته ومآسيه. ما زال يتذكر اليوم الذي أهدته فيه كاتارينا هذه الزجاجة وكأنه حدث البارحة. كان ذلك يوم تقديمه لأطروحته لنيل الدكتوراه من جامعة هامبورج

عن الرمز الديني في فلسفة سورين كيركيجارد. قالت له كاتارينا –التي حضرت النقاش– إن الطريقة التي جادل بها أساتذته حول مفهوم التسامي الروحاني ذكرتها بزجاجة كلاين، فقد كان بارعًا في الدفاع عن كل حججه؛ لأنه حشر عنق كل حجة في مؤخرتها، ثم أخرجها من الطرف الآخر ليدعم بها الفكرة التي يريدها. لم يشعر بالإهانة حينها بل أثنى على كلامها واعتبره تعريفًا مبتكرًا للفلسفة بصفة عامة.

قبل أن تغادر هاناكو الغرفة، استدارت وقالت وهي تنظر إلى الصورة المعلقة خلف المكتب:

- هذه المرأة جميلة جدًّا. هل هي زوجتك؟

بلع المدير ريقه، وتنهد ثم قال:

- لا.. أقصد... إنها... صديقتي. أعز أصدقائي.

حين خرجت هاناكو من المكتب، أدار المدير شاشة الكومبيوتر وذهب إلى أرشيف التسجيلات ليرى ما إذا كانت هاناكو قد تسللت إلى مكتبه لغرض آخر. صب لنفسه كأسًا من الويسكي، وبدأ بمراقبتها وهي تقلب الأغراض وتمسح عنها الغبار. شعر بشيء من الخجل حين رأى هاناكو تفتح العلبة الزجاجية المخصصة لقطع الشوكولاته بالنعناع وتُخرج حفنة تقرّبها من أنفها، تشمها وهي مغمضة العينين ثم تعيدها إلى مكانها ولا تأخذ منها قطعة واحدة. ندم لأنه تعامل معها بقسوة واتهمها على الأقل بينه وبين نفسه بقلة الأمانة.
أطفأ الشاشة، نظر في الصورة المعلقة خلفه مطولًا. ما زالت تربكه نظرة كاتارينا وكل الكلام الذي لم تقله، لكنَّ عينيها تنطق به. تذَكَّر أنه رأى النظرة ذاتها في لقائهما الأول، كان يجلس في مقعده في قاعة المحاضرات في عامهما الأول بقسم الفلسفة في جامعة هامبورج، حين انتفضت أمامه، على بعد صفين من الكراسي، فتاة شقراء جميلة الوجه، ذات ملامح حادة وراحت توبخ رئيس القسم لأنه ناداها بـ "فرولاين"، وهي صيغة تصغير لكلمة امرأة، قائلةً:
"أنا لست فرولاين، وأكره صيغة التصغير هذه. أنا امرأة كاملة يا أستاذي وأرجو أن تعاملني كذلك!" فارتبك رئيس القسم ولم ينادِ طالبة بهذه الصيغة بعد تلك الحادثة أبدًا.

بعد انتهاء المحاضرة، تجمَّع الطلاب عند باب القاعة متأهبين للخروج، وجدها على يمينه تحمل حقيبة كبيرة فوق كتفها، وذراعها اليمنى غارقة داخل الحقيبة تبحث عن شيء ما. رفعت عينيها الزرقاوين عندما شعرت به يراقبها، نظرت إليه نظرة حادة. "كيف يمكنني مساعدتك؟" سألته بجفاء، فشعر بمدى تطفله

ووقاحته، وارتبك قليلًا. ودَّ لو يقول لها ببساطة من يتكلم عن زهرة يحبها إنه مفتونٌ بها منذ أن رآها تنتفض في وجه رئيس القسم وتؤنّبه، ولكنه اقتطع الجزء الشخصي الذي يتناول الإعجاب وقال لها "أهنئك على ردك على البروفسور". خُيّل إليه أنها ابتسمت له ابتسامة خاطفة ولكنها لم تقل شيئا. منذ تلك اللحظة، وطيلة خمسةٍ وخمسين عامًا انقَضَتْ، ما زال يرى الكلام الذي لم يُقَل في عينيها. حتى بعد أن تقاربا وأصبحا يمضيان معًا أيامًا وليالي، لم يستطع أن يتخلص من هاجس الكلام الذي لم تقله كاتارينا. يتذكر دائمًا قولها "وظيفة الفلسفة ليست إعطاء إجابات، ولكن طرح أسئلة وجودية تؤرق الراسخ من المعرفة وترجُّ أعمدة الحياة الجامدة"، ويتساءل ما إذا كانت كل الإجابات تكمن في مقولتها تلك.

فتح الدرج، أخرج منه مجموعة من الأوراق، ثم مد يده وتناول القلم الأنيق المغروس في كرة ذهبية موضوعة فوق المكتب وبدأ يكتب:

عزيزتي كاتارينا،

لن تصدقي ما حدث اليوم مع الراهبة هاناكو. فقد دار بيني وبينها حوارٌ فلسفيٌّ عميق، كالذي دار بيني وبينك يوم مناقشة أطروحتي حول زجاجة كلاين. أتذكرين؟ كنا قد تجنبنا الحديث حينها عن أن هذه الزجاجة محاكاة أو استعارة لوجودي ووجودك، منفصلَين أو مجتَمِعَين. وجودٌ مشوش مُربك لا يتجلى إلا حين يرحل عن العالم المادي ليصبح فكرة مجردة. هذه الزجاجة هي استعارة للفراغ المزدوج الذي يغلف حياتنا. الفراغ الذي يتكور فوق ذاته ليحمي نفسه من فراغ أوسع وأبشع. أنتِ المرأة التي ولِدَت بلا رحم، وظلت تنعى أمومتها المسلوبة في صمت وهي تعتبر جوفها ثقبًا أسود يبتلع كل أضواء الحياة. وأنا الذي نزعوا مني قلبي واستبدلوا به أشياء غريبة عليه وعليّ. في زجاجة كلاين المدخل هو المخرج، والخروج ممكن فقط في حالة السقوط. عنق الزجاجة هو ذراعها ورأسها وبطنها في الوقت ذاته، ومن يحاول الخروج فسيتهاوى دومًا إلى جوف الزجاجة، صعودًا أو هبوطًا، لا فرق. هي تشبه رقم 8 رمز الأبدية، رمز السقوط الأبدي والسجن الأبدي والعَود الأبدي. صَدَق "جاك لاكان" حين قال "زجاجة كلاين هي زجاجة الله".
لطالما شعرتُ أني مثل تلك الزجاجة تمامًا: مجرد ترجمة خاطئة لفكرة الله عن الحياة الحقيقية. شيءٌ ما في هذه الراهبة مَسَّني. مجرد أن راهبة تفكر في الانتحار رغم أنها لم تفقد إيمانها، يحرك فيَّ مشاعر متضاربة. ذكرتني بعبارة لا أعرف من قالها: "الإيمان الحقيقي هو أن تندثر وتتلاشى كي تُفسح مكانًا لإله قد لا يكون

موجودًا من الأساس". ذكرتني بإيماني وكفري بك ثم بإيماني وصلاتي معك. صلاتنا كانت أن أهذي بأي شيء، أو أتوقف عن الكلام تمامًا، ومع ذلك كنت تفهمينني.

صلاتنا كانت أن نضحك معًا. آه كم ضحكنا معًا. حين سألتِني "ما هو أكثر شيء يعجبك في ألمانيا؟" قلت لك "ورق التواليت ذو الراقات الأربعة". لا يمكنني أن أنسى ضحكتك التي هزَّت المكان حين سمعتِ إجابتي. أعترف أنها كانت إجابة مبتذلة من أستاذ فلسفة جاء من اليابان محبةً في كافكا. لكن إجابتي كانت كافكاوية إلى حد بعيد. هل تعلمين أن كافكا كان، على عكس ما يشاع عنه، يتمتع بحس فكاهي فريد. في مذكراته كتب أديبنا المفضل في يوم ١٨ نوفمبر عام ١٩١٤: "في الصباح اندلعت الحرب العالمية الأولى، وبعد الظهر ذهبت أنا لتعلم السباحة". كان لا بد أن أبدأ بكافكا حين سألتِني ماذا يعجبني في ألمانيا. أعلم أنه ليس ألمانيًا وإنما تشيكي أو على الأكثر نمساوي. ولكن لا أحد يستطيع أن يصف الجانب المظلم من ألمانيا أفضل منه. هذا العبقري الديستوبي هو حلقة الوصل بيني وبينك، بين الفلسفة والأدب، بين ألمانيا واليابان. وبعد أن أعطى كيركجارد الخوف الوجودي اسمًا، أعطاه كافكا هويَّة .المعركة التي خاضها كافكا ضد والده وضد عبثية الحياة هي معركتنا نحن أيضًا. كافكا، الحيوات المشلولة، الإمكانات غير المتحققة والحب الذي يعجز عن القفز فوق ظله. كافكا، ديون الآباء التي يسددها الأبناء. كافكا، المحاكمات ومعسكرات العقاب والإبادة الجماعية. كافكا العجز والخوف والرفض والتحوُّل. أليس هذا تاريخ ألمانيا وتاريخ اليابان؟ أليست هذه قصتنا؟

أعجبني أيضًا أن الألمان منظمون جدًّا مثل اليابانيين، حتى أنَّ البطة لا تعبر الشارع إلا إذا تحولت الإشارة للون الأخضر. يمكنكِ تعقب هذا التنظيم والسيستيماتيكية في فلسفة كل من "هيجل" و"فيشته"، وفي الطريقة التي نظم بها النازيون الهولوكوست.

لا بد أنك لاحظت أن كل رسائلي إليك كانت مجرد ثرثرة، ليس فيها بناء، ولا هدف لها. أنت تعرفين أني أحب أن أكتب لك، لكني لا أدري ماذا أكتب. كان بإمكاني أن أستعيض عن كل رسالة بكلمة واحدة: اشتقت إليك!

المخلص دائمًا

***

٩

لم تصدق ناومي عندما أخبرتها الراهبة هاناكو أنها رأت المدير وتكلمت معه.

- لا تخدعيني يا هاناكو الشقية! قالت وهي تسحب منديلًا ورقيًّا لتجفف يديها في الردهة الكبيرة أمام المراحيض.
- أقسم لك أنني رأيته وتحدثت معه، حتى أنه أوكل إليَّ مهمة إيجاد حلٍ لمسألة غريبة. قالت هاناكو وهي تتكئ بيديها على عصا الممسحة.

كان تنظيف المراحيض، مرة واحدة في النهار، هو العمل الذي تقوم به هاناكو من أجل الحصول على وجبة إضافية، تمامًا مثل ناومي التي تعمل ساعات إضافية من أجل كأس الويسكي. لكن الوجبة الواحدة لم تكن تكفي هاناكو ذات البطن المكتنز والمؤخرة الكبيرة.

- مسألة ماذا؟ ولماذا يسألك أنت؟ سألت ناومي مستفسرة.
- سأشرح لك لاحقًا كل شيء، وقد أحتاج إلى مساعدتك لأعرف بماذا أجيبه.
- ألم تطلبي منه أن يعفيكِ من مهمة تنظيف المراحيض وأن يوزع علينا الطعام كلٌّ حسب وزنه؟ سألتها ناومي.
- "لم يخطر ذلك ببالي وأنا أتحدث إليه. لقد كان متوترًا وأخافني" تنهدت هاناكو "ولا أجد غضاضة في تنظيف المراحيض، في نهاية الأمر أنا مجرد خادمة".

كم هي صادقة وبعيدة عن التكلف، هذه الـ "هاناكو". فكرت ناومي وهي تربت على كتفها.

- أراكِ لاحقًا يا هاناكو. قالت ناومي وفتحت الباب لتخرج، لكنها عادت والتفتت نحو هاناكو ويدها لا تزال على مقبض الباب نصف المفتوح وسألتها "كيف بإمكاني أن أرى المدير؟ أتظنين أن هذا ممكن؟".

- لا أعرف يا ناومي. بإمكاني أن أسأله إذا ما ساعدتِني في إيجاد جواب للمسألة التي يريدني أن أحلها! قالت هاناكو وهي تغمس الممسحة ذات الخيوط القطنية المتهدلة في دلو الماء.

لم تعرف ناومي ما إذا كان بإمكانها أن تصدق هاناكو. فالحالة النفسية التي قد تنتج عن احتجاز بعض الأشخاص في أماكن مغلقة وأجواء غير طبيعية قد تسبب الهلوسات. هذا أول ما خطر ببال ناومي حين أخبرتها هاناكو عن طلب المدير. ناومي لا تحب أن تقلل من شأن هاناكو، لكنها لم تستطع إلا أن تتساءل كيف لشخص بشهادات المدير وثقافته أن يستشير راهبة –لم تختبر في حياتها سوى الخدمة– في مسألة مهمة؟ وقررت أن تنتظر لتسمع القصة كاملة.

***

بعد أن أعاد إتشيرو قراءة كلمات زوجته الأخيرة عدة مرات، نسي ما كان عليه قبل أن يصبح الشخص الذي أشارت إليه في رسالتها. صدَّقها لأنها كانت بوصلته وكل حياته، ولم يتجرأ أن يدافع عن صورته حتى أمام نفسه. نسي كل المحاولات التي قام بها لإسعادها والمرَّات التي كان فيها زوجًا صالحًا، كتلك المرة التي أخذ فيها زوجته وهي معصوبة العينين إلى بقعة ساحرة، وحين أزال العصابة وجدته يحتضنها من الخلف ويراقب معها منظر الغروب الخلاب. كان إتشيرو قد اهتم بتحضير كل مستلزمات النزهة من السندويتشات والنبيذ والمكسرات والحلوى. جلسا هناك يتحدثان لعدة ساعات، قالت له يومها إنها تشعر في هذه اللحظة، بأنها أسعد امرأة في الوجود. نسي المرات التي صدته فيها عندما أراد أن يقترب منها ليمارس معها الجنس، قائلة إنها لم تعد تشعر بأنوثتها وأنها تفضل أن تخسر بعضًا من وزنها الزائد قبل العودة إلى العلاقة الحميميَّة بينهما.

"الإنسان يصل إلى الانتحار بسبب ما فعله هو بنفسه وليس بسبب ما فعله الآخرون به" احتفظ إتشيرو بجملة ناومي وراح يقلبها داخل رأسه طيلة النهار. فهو لا يبرئ نفسه، لكنه يعلم الآن أنه سمح لزوجته بأن تحمّله كامل المسؤولية، وتتنصل هي من أي دور لها في تدهور العلاقة. راح يعد الكرات ويوزعها على الأسطوانات وهو يفكر بكل ما فعله بنفسه إلى أن وصل إلى قرار الانتحار. حاول أن يتذكر كيف كانت حياته قبل زوجته ناومي، فلم يخطر بباله سوى الأذى الذي ألحقه به الآخرون منذ صغره، بدءًا بوفاة أمه

مرورًا بتنمُّر زملائه عليه وصولًا إلى هذا النهار. ولكن، وبعد أن أعاد الشريط داخل رأسه لعشرات المرات –حد إصابته بالغثيان– بدأت تتكشف له حقائق أخرى، فرأى نفسه –بما يشبه أحلام اليقظة– في اليوم الأول من العام الدراسي، منزويًا خائفًا وجاهزًا لتلقي الإهانات والركلات من المتنمرين. لا بد أنهم استجابوا لخوفه الذي جذبهم إليه بحكم الطبيعة التي ترشد الحيوان المفترس إلى فريسته! نعم، هو المسؤول الأول والأخير، كان مشاركًا ومبارِكًا ومستكينًا لكل ما حدث له بتواطُئِه مع المنتهكين والمتنمرين. لقد تواطأ معهم مرتين: مرة بالخوف ومرة بالصمت.

توقف إتشيرو عن العمل وطأطأ رأسه ضاغطًا عليه بيديه وكأنه يحاول ايقاف سيل الأفكار التي اقتحمته في تلك اللحظة. انتبهت ناومي التي كانت تجلس في الجهة المقابلة إلى الحركة التي قام بها إتشيرو، وشعرت بالقلق. كانت على وشك أن تترك مكانها وتذهب للاطمئنان عليه، قبل أن تتذكر أن قوانين المصنع تمنع العمال من التحدث والتفاعل فيما بينهم أثناء ساعات العمل، فبقيت في مكانها والأفكار تتصارع داخل رأسها منتظرة لقاءه.

لم ينقذ إتشيرو إدراكه بأن زوجته كانت شريكة في فشل العلاقة بينهما. وحتى بعد أن تناقص شعوره بالذنب تجاه زوجته، ارتفع حيال ابنتيه اللتين لم تحظيا بأبوين سَويَّين. ولكنه خاف أن يصارح ناومي بمشاعره وأفكاره حين سألته في اليوم التالي مبتسمة "ها.. أخبرني؟ هل أنت بحال أفضل؟" هز رأسه بالإيجاب واحتفظ بالباقي لنفسه. تمنت ناومي لو تراه في المساء في مخبئهما السري وراحت تنتظر أن يقترح هو أمر اللقاء. ولمَّا لم يفعل شعرت بخيبة كانت غريبة عليها.

في المساء، أصغت ناومي باهتمام إلى هاناكو عندما أخبرتها بتفاصيل لقائها مع المدير وعزمت على مساعدتها لإيجاد حل لتثبيت الزجاجة. فأتت بقلم وورقة ورسمت الزجاجة، استخدمت معادلات رياضية وفيزيائية لتحديد وزن الكتلة وقياس الزوايا، ولكن حين نظرت هاناكو إلى الورقة، شعرت بأن أحدًا رمى بكرة من الخيطان المتشابكة داخل رأسها.

- ما هذا يا ناومي؟ كيف سأشرح له ما لست أفهمه؟ قالت وهي تجلس على سريرها مقابل ناومي والورقة بينهما في المنتصف. كرمشت الورقة ودستها في فمها ومضغتها، ثم بصقتها.
- سأجيبه بما أعرف، وليفعل بي ما يريد. قالت هاناكو بلا مبالاة من عرف اليأس ومضغه وبصقه.

تذكرت أن تطرق الباب هذه المرة قبل أن تلمس المقبض. وعندما سمعت المدير يأذن لها بالدخول، أدارت المقبض وفتحت الباب. كان هادئًا هذه المرة، وبدا على وجهه شيء من الحزن.

- ها.. الأخت هاناكو، هل توصلتِ إلى إجابة؟

هزت رأسها بالإيجاب من دون أن تقول شيئا، اقتربت من المكتب وطلبت منه أن يسمح لها بلمس الزجاجة، فلما حنى رأسه للأسفل، فهمت أنه قبل طلبها، قلَّبت الزجاجة بين يديها وقالت:

- عليك أن تقلِبها، وتحتفظ بها مقلوبة؛ لأن الفوهة هي المقعدة في الوقت نفسه. لكن المشكلة أنك لا تستطيع أن تثبتها على عنقها الملتوي لأنها حتمًا ستسقط! وضعت هاناكو الزجاجة على الطاولة وتراجعت خطوة إلى الوراء، كأنها تريد أن تلتقط لها صورة، عندها شعرت بشيء من الخيبة في نظرات المدير وكأنه كان يتوقع منها جوابًا آخر، فتنحنحت وأكملت:
- أعتقد أن الحل الوحيد هو أن تتركها مقلوبة بعد أن تملأها بالزيت، ثم تغلق فوهتها بخرقة وتضعها في إناء مملوء بالزيت أيضًا بحيث يغطي نصف الزجاجة. فقط في وضع وَسطيّ بين الطفو والارتكاز يمكن لشكلٍ معقّدٍ كهذا أن يحتفظ بتوازنه.

استدار المدير قليلا ونظر إلى صورة المرأة الأوروبية المعلقة على الحائط وراءه وانفلتت من بين شفتيه ابتسامة مثل نور أول النهار الخافت وقال:

- "ها أنت تجدين حلًّا هندسيًّا وفلسفيًّا لهذه المعضلة التي حيَّرت الرياضيين والفلاسفة. بالفعل، تعلمنا في الجامعة أن البنية غير المكتملة تحتاج إلى بنية أخرى تستند عليها لتعوض نقصانها وعدم اتزانها" قال وقد اختفت مسحة الحزن من عينيه.

فكَّر بأنه أحيانًا يكون الحل في درج المطبخ وليس في بُعدٍ رابعٍ متخيل أو في نظريات رياضية أو فلسفية. لطالما انتقد أفلاطون الرياضيين الذين يتحدثون عن أشكال هندسية لم يروها بأعينهم ولا وجود لها على أرض الواقع.

حكّ ذقنه وتابع: "أتعلمين يا هاناكو– سان، هذه الزجاجة ليست فقط أعجوبة رياضية، ولكنها تعلمنا الكثير. تذكرنا بأن الحياة ليست خطًّا مستقيمًا، بل متاهة من المسارات والاحتمالات، وكثير منها يظل غير مرئي أو مغلق أو غير مفهوم بالنسبة لنا. وكما أن زجاجة كلاين ليس لها بداية معروفة ولا نهاية، فإن مسارات

الحياة غالبًا ما تكون معقدة وغير واضحة. نحن نبحث عن الوضوح والتبسيط، عن مدخل ومخرج، عن أول وآخر، لكن الواقع يستعصي على هذه الثنائيات البسيطة. تُظهِر لنا هذه الزجاجة أن الحقيقة لا يمكن العثور عليها دائمًا في الهياكل الفكرية البسيطة والمستقيمة. إنها رمزٌ للنظام الأعمق الخفي للكون الذي يتحدى تصنيفاتنا وحدودنا وتوقعاتنا البسيطة.

لم يبدُ أن هاناكو قد فهمت كل ما قاله، لكنها أومأت برأسها وقالت: "نعم، طُرُق الرب لا يمكن فهمها".

– "أجل، شيء من هذا القبيل"، قالها بابتسامة وتابع بحماس:

– " يمكنك أن تأتي إلى مكتبي متى شئتِ، هاناكو سان!". مد يده إلى علبة الشوكولاته وأخرج منها بضع حبات ومد يده لهاناكو "هذه لك".

نظرت هاناكو إلى الصليب المعلق فوق صدرها، وابتسمت وهي تتخيل يوشيدا يسمع كلمات الإطراء التي قالها المدير بحقها. نظرت إلى المدير بامتنان وتناولت حبات الشوكولاته من يده.

- شكرًا. بإمكاني أيضًا أن أطهو لك الـ "تمبورا"؟
- "تمبورا؟" لا، نحن لا نستخدم الزيت لطهو الطعام هنا.
- ولم لا؟
- هذه هي القواعد؟
- وما فائدة القواعد إن كنا سنموت قريبا؟ ثم ألست أنت من خلق هذه القواعد؟ لماذا تعذب نفسك وتعذبنا معك؟

كانت هاناكو قد أجَّلت تلك الأسئلة كثيرًا، لكنها الآن وجدت الفرصة مواتية لتسألها وترتاح. ولطالما تساءلت وهي تعيش في الدير عن القواعد التي تحكم علاقتها بيوشيدا وتساءلت أيضًا عما إذا كان الله يعلم بوحدتهما التي تسببها قواعده. لكنها سرعان ما خجلت من نفسها عندما تبادر إلى ذهنها أن الله قد يكون مستمتعًا برؤيتها تتعذب.

- لم تأتوا إلى هنا من أجل نزهة أو أكلة شهية، ولكن لأنكم أغلقتم كل الأبواب في وجه الحياة. الطعام اللذيذ هو بوابة جديدة للحياة. من الأفضل أن تموتوا داخل أنفسكم قبل أن تموتوا في الحقيقة.
- الموت واحد، لماذا علينا أن نفلسف كل الأمور؟!
- أقصد أن من يشتهون الموت، يجب ألا يشتهوا شيئًا آخر بجواره.

- ألهذا لا تأكل إلا من طعام العمال ولا تنام إلا في سرير صغير مثلهم، رغم أنك تمتلك الجزيرة كلها؟
- ربما.

وقبل أن تغادر هاناكو الغرفة، استدارت وسألت:

- سيدي المدير، لقد قلتَ إنك كفيلٌ بنا وستنظف وراءنا بعد موتنا، ولكن من سيتكفل بك أنت ومن سينظف وراءك؟

استغرق هذا السؤال قليلًا من الوقت حتى وصل إلى المدير، فقد كان هذا السؤال هو آخر ما يتوقعه من أحد العمال، خاصة هاناكو. أزاح زجاجة كلاين من أمامه وأعاد ترتيب بعض الأشياء على الطاولة ليخفي ارتباكه وليبحث عن جوابٍ مناسب. ثم رفع نظره وقال:

- التغاضي عن طرح بعض الأسئلة هو دربٌ من دروب الحكمة. وأنتِ، كراهبة، لا بد أنكِ تعلمتِ كيف تئِدين الأسئلة الخطيرة في مهدها!

هزت هاناكو رأسها وخرجت من الغرفة شاردة الفكر محاولة تفكيك شيفرة إجابته.

***

١٠

كان الجميع بانتظار قدوم هذا اليوم، بعضهم يشعر بالخوف ويتجنب التفكير فيه رغبة في قضاء ما تبقى من الأيام أو الأسابيع الأخيرة بما تيسر من السلام والسكون. والبعض الآخر يترقب هذا النهار بصبرِ مؤمنٍ ينتظر رحمة الله أن تحلّ عليه. ولكن هؤلاء العمال، وبعد أن قرروا التدخل وكتابة آخر مشهد في مسلسل أقدارهم، تفوقوا على المؤمنين بيقينهم أن الخلاص آتٍ لا محالة وليس مجرد رجاء.

جلس الجميع في قاعة الاعترافات واجمين. ظهر المدير على الشاشة متكئًا على مكتبه وأمامه الزجاجة الحلزونية وبجوارها الوعاء الزجاجي المملوء بالأوراق المطوية. شيء ما في وجهه كان مختلفًا. شيء من الذعر كان يظهر ويختفي من عينيه وهو ينظر إلى الكاميرا ويتحدث. بعد أن ذكر بتروِّي أن طبيعة هذه الحلقة ستكون مختلفة، مدَّ يده إلى الوعاء، ارتجفت ذراعه قليلًا ثم أخرج ورقة وقرأ الاسم:

"السيد ياماموتو".

وقف ياماموتو مندهشًا وقال "لقد سبق وشاركت قصتي مع الزملاء من قبل، سيدي المدير".
حكَّ المدير ذقنه بيده وقال وكأنه مدرّس يحاول أن يحافظ على رزانته "لم يقع الاختيار عليك اليوم كي تحكي حكايتك، بل لتنهيها".

- لا أفهم.. ماذا تقصد بذلك؟
- حانت ساعتك يا سيد ياماموتو. لعبة الحظ اختارت أن يكون اليوم هو يوم الوداع.

أعقب كلام المدير صمتٌ غريبٌ على القاعة وكأن الجميع قد تحولوا إلى تماثيل من الثلج في سهل جليدي شاسع ومهجور. ما لبث أن دخل رجلان يرتديان بنطالين وسترتين باللون الأبيض تشبه ثياب الممرضين وتوجها إلى ياماموتو الذي كان واقفًا وعلامات الصدمة تغلف وجهه، وكأنه فُوجئ بما سيحدث له. اصطحباه إلى غرفة جانبية، وهو ينظر إلى من في القاعة وكأنه يستنجد بهم.

كانت عودة العمال إلى عنبر العمل، وبعد أن تجسد الموت منتصبًا أمامهم على هيئة ياماموتو، من أصعب الأحداث التي اختبروها في المصنع حتى هذا اليوم. اجتاحت ناومي حالة من الهلع جعلتها غير قادرة على التنفس، فأسرعت إليها سو يوون التي رأتها تشهق، وضعت على فمها كيسًا من الورق، وجعلتها تقوم بتمارين التنفس السريع. لم تتخيل ناومي أنها ستتأثر إلى هذا الحد عند إعلان اسم الشخص الذي سيقتل. ناومي اللامبالية، التي لا يهمها أمر الآخرين ولا تعنيها مآسيهم، تتحول فجأة إثر هذا الحدث إلى إنسانة لم تكن تعرفها. اكتشافها لوجود ناومي أخرى داخلها، تظهر لها في آخر أيامها، أصابها بحالة من الذعر. وعندما تخيلت الحالة التي ستكون عليها حين يمد المدير يده ويسحب ورقة تحمل اسمها أو اسم إتشيرو، تقطعت أنفاسها ثانية، وتسارعت نبضات قلبها حتى ظنت أن جميع من في القاعة يسمع صوت صرختها المكتومة التي يعج بها صدرها.

جلست "سو يوون" بجانب ناومي في عنبر العمل لتطمئن على حالها، فهي لم تكن ترى مفاجأة فيما حدث، فقرار الإعدام لم يصدر اليوم بعشوائية ورق الحظ، بل هو نهاية متوقعة لفيلم الحياة، قررها ياماموتو وكل من وقع على العقد، واليوم هو فقط يوم التنفيذ. ثم إن موته بهذه الطريقة لا يختلف عن موت معظم البشر الذين لا يعرفون متى وأين ستُزهق أرواحهم. هذا ما خطر ببالها وهي تراقب بصمت أنفاس ناومي تنتظم

من جديد. ومع ذلك فقد حركت الطريقة التي علم بها الجميع نبأ إعدام ياماموتو في دواخلهم مشاعر متضاربة لم يكونوا جاهزين للتعامل معها. حالة من الصمت الحزين خيمت على العمال في العنابر. لقد مرَّ الوقت بسرعة، وأنساهم روتين العمل الممل أنهم أيضًا سيموتون قريبًا. تمنَّى بعضهم أن يكون هو صاحب الحظ في اليوم التالي ليسدل الستار على آخر مشهد، وتنتهي آلامه إلى الأبد. بينما أراد البعض الآخر الحصول على مزيد من الوقت كي يعيدوا ترتيب دواخلهم قبل تلك اللحظة التي لا رجوع عنها.

وبينما هم منشغلون بعدّ الكرات وطرد الأفكار التي أعادت الموت إلى بؤرة اهتماماتهم، شاهدوا ياماموتو وهو يعود إلى عنبر العمل مرتديًا أوفرولًا أحمرَ. جلس في مكانه المعتاد مستسلمًا بعد أن قال بصوت خافت "سيتم تنفيذ عملية الموت الرحيم الليلة عند منتصف الليل بعد أن ينتهي الجميع من العمل" ثم عاد ليجلس ويبدأ بجمع الكرات المعدنية في أسطوانة صغيرة. حاول الجميع تجنب النظر إليه، لكن لون أوفرولة طغى على المكان كله وجعل اللون الرمادي الذي يكسو الغرفة يبدو وكأنه مجرد قطعة من القماش رُسم عليها رجل يتكور فوق نفسه وسط فراغ شاسع.

تساءلت "سو يوون" وهي تحملق في أوفرول ياماموتو، عن علاقة اللون الأحمر بالموت، وكيف صار هذا اللون فجأة هو سيّد الغرفة. هل لأنه لون الشمس التي يفتقدونها منذ وصولهم إلى هذا المكان؟ أم أن ما يميزه هو أنه مجرد لون آخر غير اللون الرمادي السائد هنا؟ أم لأنه لون الخطر، لون الدم الذي يفصل بين الحياة والموت؟ ومن باطن حالة الحيرة المختلطة بالفضول وُلِد في رأسها سؤال آخر: لماذا يكون لون الدم أحمر؟ ما هو السر وراء هذا اللون؟ لماذا لا نرى لونًا غيره كلما أغلقنا أعيننا ووجهناها صوب الشمس؟ لون الخمر أحمر. رباط التضامن مع مرضى الإيدز أحمر. وردات الفلانتين حمراء. الكلمة التي تحولت إلى لحم، حمراء. والدم الذي سال من اللحم على الصليب أحمر. لون الحب والخوف والغضب والتضحية أحمر. ضوء الفانوس خارج بيوت العاهرات أحمر. الضوء الصغير الذي كان يومض فوق رأسها، في عيادة طبيب النساء على أطراف مدينة سيول، أحمر. فهي لم تعد تتذكر شيئًا من معالم تلك العيادة سوى الضوء الأحمر الذي يضاهي حجمه حبة أرز صغيرة، كل الأشياء الأخرى اختفت: الأرائك والستائر، حتى المكتب ولون ورق الجدران. لم يبق هناك سوى الملمس الجلدي البارد للسرير والآلة الحادة التي تعبث بدواخلها لتنتزع منها الجنين. ما زالت تتذكر ضحكة الطبيب الشاب أيضًا، اسمه اختفى وكذلك بقية ملامح وجهه، ما عدا ضحكته التي تبدو اليوم وكأنها ضحكة القط شيشاير في قصة "أليس في بلاد العجائب"، ضحكة

ماكرة معلقة في الهواء، بلا وجه. أسنانه البيضاء ما زالت تلمع في ليل ذاكرتها، تذكرها بالثمن الذي دفعته من أجل خدمة الإجهاض التي قدمها لها. نام معها قبل أن يجهضها من أجل أن يحميها من الالتهابات، هذا ما قاله بعد أن أخرج عضوه منها ورفع سحاب بنطاله. قال أيضًا إنه وافق على إجهاضها فقط لأنها لا تزال في السادسة عشرة ولأن الطفل هو نتيجة حالة اغتصاب. ضحك بعدها عاليًا وأضاف "إن ما يفسده رجل لا بد أن يصلحه رجلٌ آخر". لم تخبره أن قوَّاد أمها اغتصبها ولا أخبرته أن هذا القواد ظهر في حياتهم على شكل منقذ ليصلح ما أفسده والدها الذي تخلى عن أمها الحامل واختفى من حياتها إلى الأبد.

تفكر الآن في كلمة "يصلحه" وتضحك. هل فعلًا أصلحها الطبيب حين نام معها مقابل خدمة الإجهاض أم أنه حولها إلى عاهرة. فمنذ ذلك النهار فهمت سو يوون أن تلك البقعة في جسدها بإمكانها أن تجعل الأشياء تتحقق. أحيانًا تحسم أمرها وتقنع نفسها بأن الطبيب كان السبب، وأحيانًا أخرى تسخر من هذا الاستنتاج وترى بوضوح أنها اختارت مصير أمها وكأنها تأبى أن تنفصل عن تلك المرأة ومعاناتها حتى بعد موتها بسنوات.

تتذكر والدتها كثيرًا هذه الأيام، تراها وهي جالسة في فترينة في الحي رقم ٥٨٨ على أطراف مدينة سيول، بينما يمر الزبائن المخمورون بروائحهم الكريهة وأسنانهم الصفراء ليتفحصوا البضاعة. كم تمنت لو أنها تملك مالًا كافيًا كي تشتريها من قوَّادها وتحررها من الفترينة وتهرب بها إلى المنزل، تمامًا كما اشترت لها أمها الدمية المعروضة في فترينة محل الألعاب في عيد ميلادها الثامن. أحيانًا كانت تقف هناك، تتأملها بحمالة الصدر الرخيصة التي تعرف ملمسها ورائحتها، وبحذائها ذي الكعب العالي، الذي كانت تلبسه بعد أن تعود أمها إلى غرفتها وتحاول التبختر فيه وتدرك كم كانت تحب تلك المرأة. تلك المرأة الشاحبة التي كانت تُعرض في الفترينة كانت أمها! ولأنها لم تكن قادرة على شرائها، سمحت لصورتها أن تحفر في ذاكرتها إلى الأبد.

فكرت سو يوون مليًّا قبل أن تأتي إلى مصنع الانتحار. استنطقت ذاكرتها لأيام مستعيدة كل الانتهاكات التي تعرضت لها لتبرر أحقيتها في طلب الموت، وبينما تستدرج ذاكرتها عثرت على شيءٍ آخر. شيء حاد ولامع في قعر الماضي المظلم. شيء يغيّر اتجاه الإصبع الممدود لإدانة الآخرين. لقد رأت ذلك الإصبع يتحرك ويغير اتجاهه، يرفع اللوم عن المنتهكين، يبرر أفعالهم، يُنصفهم، يؤيد خياراتهم ويتجه

نحوها هي، يدينها هي. يقول لها إنها هي كانت السبب. بدا الأمر واضحًا جليًّا ولا يحتاج إلى كثير من التدبر، وإلَّا فكيف يمكن أن يكون كل من التقت بهم، سفلة ومغتصبين؟! ربما عيناها، بنظراتهما الجائعة المتوسلة التي تشبه نظرة قطة حديثة الولادة تحت وابل من المطر، هما السبب. ربما كان عنقها الرفيع، هو ما يجذب كل رجل ذي بنية قوية، لكسره والتلذذ بغرس أسنانه فيه. ربما كان لسانها المعقود، صمتها المتواطئ هو ما كان يشجِّع المنتهِكين على الاعتداء عليها. أخذت سكينًا، توجَّهت إلى المرآة، نظرت في انعكاس صورتها وراحت تبحث عن ذلك الجزءِ الخائنِ مِنها، الذي يستدرج المعتدين، لتبتره بيدها. تأملت وجهها بدقة، وكأنَّها كلبٌ بوليسيٌّ يتأهب للانقضاض على المهربين. نظرت إلى ملامحها في المرآة وصرخت: أيٌّ منكم كان يشي بي ويفضح سري طوال تلك السنوات؟ أيٌّ منكم حوَّل كلَّ منقذٍ احتميت به إلى نذل مغتصب؟

بدأت صورهم تمرُّ أمامها وتحلُّ مكان وجهها. مرَّ وجه مغتصبها ثم وجه والدها الذي تعرفه من الصور، ثم وجه الطبيب الذي لجأت إليه لينقذها من الحمل، ثم اختفت وجوه الرجال ليظهر وجه صاحبة الوكالة التي أُعجِبت بجمالها ووعدتها ببداية جديدة في اليابان. اليابان كانت كلمة السر التي فتحت بوابة الأمل في روحها. فوافقت دون تردد؛ لأن هذا ما أرادته أمها لها! "ستذهبين للدراسة في اليابان وتصبحين طبيبة"، كانت أمها تقول تلك العبارة، وشيءٌ غامض يخالط صوتها، شيءٌ يشبه "الهانغوا"، الحلوى الوحيدة التي عرفتها سو يوون أيام طفولتها. لذلك أحبت هذه العبارة وكانت تنتظر سماعها، لأنها كانت تجعل أمها سعيدة ولأنها تحب الهانغوا. كل ذلك كان مجرد وهم، فرحلتها إلى اليابان لم يكن لها طعم الأرز المقلي بالسكر، بل طعم الذل والدم والمَنِيّ.

غاب وجه صاحبة الوكالة في المرآة، وظهر وجه أمها الشاحب الحزين المنكسر. رفعت السكين وغرست رأس شفرتها المدبب أسفل ذقنها ولكنها لم تجرؤ على غرزه أكثر. سال الدم على عنقها وصدرها، واختفى وجه أمها في المرآة. انتابتها بعدها نوبة من الهستيريا، جعلتها تتمرغ على سجادة غرفتها القذرة وهي تقهقه مثل المخمورين وكأنها تذكرت للتو أنها ابنة عاهرة. ازدادت حدة الهذيان الذي أصابها، وبدأت تصرخ في عتمة تلك الغرفة: وجدتها! وجدتها! إنه الصمت. إنه هروبي الذي يوقظ الرغبة في الانقضاض عليَّ حتى في أودع المخلوقات. لقد أمضيت عمري مثل فأرٍ مذعورٍ، لا يريد الاعتراف بحقيقته، فيهرب منها، يهرب من حمضه النووي وجيناته الموروثة التي صنعته. لا بد أن لهذا الفرار رائحة تجذب المتربصين وتخرج

مخالبهم من مخبئها. أنا ابنة أمي المنسحقة، ابنة المرأة الحزينة التي حلمت بإرسالي إلى اليابان. أنا ابنة العاهرة التي لم تمت!

أعادها صوت بكاء خافت إلى قاعة العمل، فمطت عنقها لتستطلع مصدر الصوت. جرت بنظرها فوق الرؤوس المحنية، لكن الصوت توقف قبل أن تحدد مصدره. وبقيَ لون الأوفرول الأحمر كصرخة عالقة بين العمال، صرخة يتلقونها بعيونهم بدل أن يسمعوها.

***

عند منتصف الليل، وفي غرفة جانبية، عند نهاية أحد الممرات التي تظهر ثم تختفي باستمرار تحت القبة العملاقة، رقد ياماموتو على ظهره فوق حصيرة تاتامي وهو عارٍ تمامًا. بدا مسترخيًا بعينين فارغتين تنظران إلى اللاشيء بعد أن تم حقنه بحقنة مهدئة لتجنُّب نوبات الهلع التي قد تصيبه. لقد وعدهم المدير بموتٍ مريحٍ لا ألم فيه، وهو رجل لا يخلف وعده أبدًا. جثا المدير خلف ياماموتو وهو يرتدي كيمونو أسود، وفي الخلف كرسيان متواجهان. جثا كل العمال على الأرض أيضًا وهم يراقبون ما يحدث أمامهم. ومثل معظم اليابانيين، كان العمال قد حضروا مراسم تطهير ووداع الميت من قبل ولكن هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها الميت عاريًا وواعيًا أمام أعينهم! راحوا ينظرون إلى جسد ياماموتو الممدد أمامهم على خشبة المسرح التي ترتفع عن الأرض بمقدار متر أو أقل. انتبهت ناومي إلى أن هذه هي الغرفة نفسها التي تلتقي فيها بإتشيرو سرًّا، ثم عادت تتابع المشهد أمامها حين بدأ المدير بالكلام.

"لا أدري من منكم حضر مراسم تطهير وإعداد الميت من قبل" استهل المدير كلامه، ثم واصلَ "كما يعرف الجميع، يموت المرء أولًا، ثم تُجرى له مراسم الغُسل والوداع. ولكن هنا يحدث كل شيء بالعكس. إذا كنَّا جميعًا نعلم أن السيد ياماموتو سيموت بعد دقائق، فلماذا نحرمه من أن يحضر معنا مراسم تطهيره قبل ذلك؟".

تناول المدير فوطة صغيرة ودسَّها في وعاء فيه ماء مخلوط بمطهر ورفع الفوطة، وبعد أن عصرها ببطء، بدأ يمسح وجه ياماموتو بها، ثم صدره وتحت إبطيه. أعاد الفوطة إلى الوعاء، عصرها من جديد قبل أن

يمسح بطنه ثم مناطقه الحساسة. ظل ياماموتو شاخص البصر يحملق في نقطة ما في سقف القبة وكأن مراسم التطهير تحدُث لشخصٍ آخر. أعاد المدير الفوطة إلى الوعاء مرة أخرى ثم أخرجها وعصرها ومسح بها رِجليْ ياماموتو وقدميه. وبعدها حرك جسد ياماموتو لينام على جنبه ويواجه الجمهور في القاعة. أشاح بعضهم بوجهه عن المشهد ليتجنب النظر إلى عيني ياماموتو الغائرتين، بينما ظل البعض يحملق فيها وفي أعضائه التناسلية.

إتشيرو، الذي كان يشعر بالعار من جسده لسنوات طويلة، أراد أن يعرف ماذا كان في رأس المدير، حين عرض جسد ياماموتو عاريًا بهذا الشكل. فالذين يقومون بهذه المراسم يعملون على تنظيف جسد الميت من تحت الكيمونو، ومن باب احترام الميت، يحرصون على ألا تظهر أية بقعة من جسده أمام عيون عائلته وأصدقائه. نظرت ناومي مطولًا إلى إتشيرو الذي كان جالسا بجانبها، ولما رأته يحدق في الأرض شاردًا، خافت أن يعيده هذا المشهد إلى هاوية الاكتئاب. أما هي فما كان يقلقها ويحبطها في آن معًا هو خوفها على إتشيرو. فكرت في عبثية أن تعيش في هذا العالم وتعتزله من غير أن تجد أحدًا تهتم لأمره، وأن يظهر هذا الشخص عند المحطة الأخيرة وأن تشعر بمسؤولية غريبة تجاهه.

بعد أن فرغ من تنظيف ظهر ياماموتو، مال المدير إلى الخلف وأخذ كتلة من القطن وراح يمزقها ويحشوها في فتحات جسد ياماموتو. أغمض ياماموتو عينيه عندما شعر بقطعة القطن تدس في مؤخرته ولكن لم يصدر عنه أي صوت.

أعاد المدير الجسد إلى وضعية الاستلقاء وأخرج فرشاة وعلبة بودرة من حقيبة سوداء صغيرة وقام بترطيب وجه ياماموتو وكأنه متعهد جنازات محترف ثم مسح بالفرشاة على وجهه وزينه ببعض المساحيق الأخرى. بعدها رفع كُمَّي الكيمونو الأبيض الذي يرقد فوقه الميت الحي وأدخل ذراعي ياماموتو فيه وأغلقه.

وقف مزهوا بإنجاز المهمة. "والآن، يمكنكم وداع السيد ياماموتو بعبارة واحدة"، قال المدير موجها كلامه إلى القاعة.

نظر العمال، بعضهم إلى بعض، وراحوا يتهامسون ثم انطلق صوت هاناكو:

- الرب يباركك، سيد ياماموتو، سوف أصلي من أجل راحة روحك.

شيء من الرقة ظهر في عيني ياماموتو عندما سمع كلماتها.

- "الوداع يا سيد ياماموتو، أتمنى أن تتصالح مع نفسك قبل أن تموت"، قالت سو يوون، فهز ياماموتو رأسه.
- "أنا آسف لأن حياتك أخذت هذا المنحى" قال إتشيرو بانكسار.

كان كوباياشي آخر من غادر مقعده. لم يستطع الخروج قبل أن يدقق النظر إلى جسد ياماموتو الممدد على أرض المسرح، فتخيَّل نفسه وقد تحول من زومبي إلى شخص يواجه الموت، ويتسلق أسواره للمرة الأولى، تخيل نفسه مكان ياماموتو وراح يكتب في رأسه:

"بعد قليل سينتهي كل شيء، سأسترق النظر إلى هذا المكان الذي يختبئ فيه جبار الجبابرة الذي يسمونه الموت. سأحملق في عينيه، وأبدأ معه حوارًا لا ينتهي، حوارًا بين طرفين، وليس مونولوجًا كما كنت أفعل دائمًا، وكما كانت تفعل جدتي مع تمثال بوذا، وكما يفعل كل المصلين في المعابد والكنائس والمساجد. سأسأله لماذا حياتنا وصلواتنا ولهاثنا ليست سوى حوارٍ من طرف واحد مع الموت. ماذا لو اطلعنا على أسراره ونحن على قيد الحياة؟ هل يمكن أن نفقد طعم الحياة حينها، أم كنا سنعيشها بلا خوف وبلا حسرة؟ ماذا لو متنا ثم عدنا ونحن نتذكر مَن كنا قبل الموت وبعده؟ ماذا لو لم يكن هناك شيءٌ خلف هذا الجدار سوى صمت أزليٍّ كالصمت الذي يغلف مشاعري؟ ماذا لو كانت حياتي بعد الموت، تكرارًا لأمواج الرتابة والملل نفسها التي ترتطم بوجهي كل يوم منذ وُلِدت؟

اقترِب أيها الموت وقل لي شيئًا! دعني أشم رائحتك! لماذا لا نتبادل الأدوار ولو لدقيقة واحدة؟ دعني أقبض روحك لأرى الذعر في عينيك! أغسل جسدك وأحشر قطعة قطن في مؤخرتك، أذيقك بعض الألم الذي يذوقه من يرحلون وذووهم. دعني أقص عليك قصة تُبكيك، أو نكتة تُضحِكك حد الدموع، أصب لك كأسًا ونشرب معا نخب جدتي. أخبِرني عن جدتي أيها الموت، كيف هي الآن؟ هل غفرت لوالدي خطاياه بحقها؟ هل سامحت نفسها، لأنها أمه التي أنجبته؟ هل سألت بوذا ماذا فعل بأطنان الأرز التي كدستها أمام تمثاله؟".

"انتهى وقت الوداع" هتف المدير "تفضلوا بالرجوع إلى مخادعكم" أضاف وتابع العمال وهم يغادرون القاعة الواحد تلو الآخر. وعند الباب، يتناول كل واحد منهم حفنة من الملح من وعاء وضع هناك، يمارسون طقوسًا تعودوا أن يقوموا بها طوال حياتهم عند وداع الميت، ينثرون الملح على عتبة عنبر النوم قبل دخوله

لطرد الشؤم وإبعاد الموت عنهم. قلبت ناومي عينيها عندما رأت هذا المنظر وبدلًا من رمي حفنة الملح على العتبة، دستها في جيبها وغمغمت" أنتم فعلًا روبوتات" وأكملت طريقها إلى سريرها. بعد أن أغلق الحراس الباب من الخارج بالمفتاح، مد المدير يده لياماموتو وساعده على الوقوف ثم أومأ له بالجلوس على أحد الكرسيين. أخرج حقنة من حقيبته الصغيرة وضغط بإبهامه قليلًا على المكبس من الأسفل، فخرجت بعض قطرات من السائل الشفاف، وسقطت إلى جوار الكرسي. جلس المدير على الكرسي المقابل ممسكًا بالحقنة وموجهًا رأسها إلى أعلى.

- قبل أن تموت أود أن أعرض عليك شريطَ فيديو مسجلًا عن طبيعة العمل الذي كنت تقوم به في هذا المصنع، قال المدير بصوت فيه كثير من الجدية التي لا تتناسب مع الضبابية التي سيطرت على ياماموتو نتيجة المخدر الذي حُقن به قبل مراسم الوداع.
- "لا، أريد أن أخبرك بشيء آخر قبل ذلك" قال ياماموتو بصوتٍ بطيء وكلمات ممطوطة وكأنها موضوعة على خاصية "السلو موشن".
- تفضل!
- غير مكتملة.... القصة.
- ماذا تقصد؟ أي قصة؟ قال المدير وقد تغيرت نبرة صوته.
- "أعني... لم أقرر الانتحار فقط لأنني فقدت وظيفتي "قال ياماموتو بكثير من الجهد" ولكن لأنني ارتكبت بعد ذلك جريمة لا تُغتفر".
- فلتعترف بجريمتك إذًا. هذه فرصتك الأخيرة!
- "بعد أن تراكمت عليَّ الديون، وبعد أن خشيت أن يفتضح أمري أمام زوجتي والأولاد، فكرت في طريقة سريعة تدر عليَّ بعض المال" أغمض ياماموتو عينيه وتنهد وكأنه لا يريد أن يكون حاضرًا عندما يعترف بفعلته. "قمت بعمل دنيء وجبان لا يليق برب أسرة ولا بإنسان سويّ".
- ادخل في الموضوع، سيد ياماموتو، ليس لدينا الكثير من الوقت.
- في يوم العطلة كانت زوجتي تخرج للتسوق وتتركني في البيت مع ابنتي "أياكو". وكنتُ....
- كنتَ ماذا، أرجوك أكمل دون توقف!
- كنتُ أحررها من ملابسها و.....
- هل اغتصبت ابنتك؟ أهذا ما تريد قوله؟

- "لا.. لا.. لم أغتصبها" قال وكأنه شعر بالإهانة. أغمض عينيه مجددًا "كنت أصورها عارية وهي تستحم وأعرض صورها وفيديوهاتها على شبكة كانت تشتري صورًا كهذه بمبالغ كبيرة".
- كم مرة فعلت ذلك؟
- "مرَّات عديدة" بدأ ياماموتو يتكلم وبسبب رغبته في الكلام والمواضيع المؤلمة التي يتناولها، حاول التغلب على مفعول المخدر، "كنت أقول لنفسي إنني لا أؤذيها، بل أحميها من الفقر بتصرفي هذا. ولكنها ذات يوم، لم تخرج لوداعي في الصباح كما كانت تفعل دائمًا، ولم تؤد لي التحية العسكرية كما اعتادت، وحين سألتها ما الخطب قالت لي "أنا لا أحبك". لا أدري إن كانت فطنت إلى أن سلوكي معها كان سلوكًا غير أخلاقي، أم أنها كانت مجرد تقلبات مزاجية كالتي تصيب الأطفال في عمرها عادة. ومع ذلك اخترقت هذه الجملة قلبي وظلت تعذبني بلا رحمة. بدأتُ أخاف أن تعرف أمها ما حدث، أو أن تكبر البنت وتكتشف أني كنت أبيع جسدها لراغبي الشهوة المنحرفين والموتورين. وضعتُ نصف الأموال التي جمعتها في حساب زوجتي البنكي، وفتحت حسابًا جديدًا باسم أياكو لتغطية مصاريف دراستها الجامعية حين تكبر. حاولتُ أن أقنع نفسي أن هذا هو الحل الأفضل لجميع الأطراف. لم أستطع أن أكف عن التفكير في تلك الحماقة التي ارتكبتها، وحين طلب مني الموظف الذي وقعت معه العقد الذي جاء بي إلى هنا، أن أعطيه عنوانا ليرسل رسائل بِاسمي، رجوته أن تكون كل رسائلي موجهة لأياكو فقط وأن يكتب في نهاية كل رسالة: أحبك رغم كل شيء، قال ياماموتو وقد امتلأت عيناه بالدموع.

- هوّن عليك يا سيد ياماموتو، هناك حماقات أخرى ارتكبتَها لا تعلم عنها شيئًا، قال المدير الذي كان يستمع لاعترافات ياماموتو بلامبالاة، ثم قام بتشغيل شريط فيديو مسجل على الشاشة المواجهة للمسرح، وبينما يتابع ياماموتو الفيديو، دس المدير حقنة الموت في وريده، ليهتف وجسده يرتجف وعينه مثبته على الشاشة: "لا.. لا.. غير معقول.. أنا لم أفعل ذلك"، لكن السائل السام كان قد بدأ يتمكن منه فأغمض عينيه وارتجف مرَّة أخرى ساقطًا في سبات عميق لا عودة منه.

***

عزيزتي كاتارينا،

فعلتُها اليوم مجددًا، لست أدري كم صار العدد، فقد توقفت عن عدّ الأشخاص الذين أسكتُّ أنفاسهم بيدي منذ سنوات. لا أستطيع أن أصف لك شعوري وأنا أراقب صحوة الحياة في عيونهم حين يدركون أنهم كانوا أمواتًا مسيَّرين قبل عملية الإعدام. يشاهدون بذعر ذلك الجزء المحجوب عنهم من حيواتهم، وكيف تم استخدامهم بدهاء قبل أن تنقطع أنفاسهم إلى الأبد. هذه اللحظات التي يرتجفون فيها وهم يواجهون حقيقتهم للمرة الأولى، هي مكافأتي الوحيدة عن العمل المضني الذي أؤديه هنا. لقد أصبحتُ قاتلًا محترفًا، يا كاتارينا، والفضل في ذلك يرجع إليك وحدك. لا أستطيع أن أقدم لك الشكر بما يكفي، فأنتِ من أيقظ هذا الوحش فيَّ ونبهني أنني خُلقتُ قاتلًا.

لا أخفيكِ سرًّا أنك ملهمتي الوحيدة لإنشاء هذا الجزء الجديد من المصنع، الذي خصصته لتسهيل الانتحار. كنتِ تتحدثين عن كل شيء آخر ببرود عقلاني صاعق، لكنك كنتِ تتحدثين عن الموت بخفة رواقية مذهلة، رغم أنك لا تطيقين الرواقيين وفلسفتهم. عندما وصلت الدفعة الأولى من المرشحين للموت قبل أعوام إلى المصنع، كنتُ قلقًا، ولم أستطع النوم لأكثر من أسبوع. ولكن قبل تنفيذ أول إعدام تذكرت كلماتك "الانتحار هو الانتصار الوحيد لمن تفننت الحياة في هزيمتهم". أعجبتني نظرتك للانتحار كطريقة وحيدة لمقاومة الحياة والموت في فعل واحد. احتجت لفترة من الزمن، كي أفهم ما كنت تقصدين، ولكن حين لفظ مرشح الموت الأول أنفاسه الأخيرة، انتابتني حالة من الراحة الغريبة فعرفتُ ما كنت أجهله. عرفتُ أنني وإياه انتصرنا معًا على الموت والحياة. أدركتُ حينها ما كان ينقصني طوال عمري الممتد.

أدركتُ أن الإنسان قاتلٌ بطبيعته، أقصد الإنسان الصحيح، لأن في القتل، قدرة على الإبقاء. إبقاء المريض يتطلب نزع الجزء المعطوب من جسده. إبقاء الحديقة يتطلب تشذيب ما زاد عليها من عشب ضار وأغصان زائدة. أما أنا، وبعد أن نَمَت دواخلي كلُّها دون أدنى تشذيب، تكاثفت وتشابكت أغصاني وحل الصراع فيما بينها على البقاء، ولم يعد بإمكاني حتى فض النزاع. كنتُ كيانًا معتلًّا لأنني قضيت على هذه الأرض أكثر من ستة عقود قبل أن أقتُل. حبست القاتل الذي بداخلي لسنوات طويلة خلف أسوارٍ من المثالية والروحانية الزائفة. ولكني بفضلكِ أنتِ، فهمتُ أن المثالية ليست إلا طريقة خبيثة لإخفاء ما يختلج بدواخلنا من عنف وكراهية ومحاولة للهروب من طبيعتنا الأولى خلف جدران الفضيلة الهشة. كنتِ أنتِ السبب في أن أرى أنَّ في القتل رحمة، وفي البقاء جريمة. لم أجد توازني في هذه الحياة إلا حين تحولتُ إلى أداة من أدوات

الإبادة الجماعية. ربما يكون هذا هو الفارق بين المشرّع والفنان؛ المشرع يجرِّم، الفنان يرى الجمال حتى في الجريمة.

كنت أدورُ في حلقةٍ مفرغةٍ يا كاتارينا، لم يوقفها إلا القتل. كنت أبحث في الحياة عن معنى لم أجده إلا في غرفة الموت. كنت رجلا تخطى الستين من عمره، وما زال يتحدث عن واقعة فطامه. يتحدث عن أمه التي تركته ونسيت أن تقطع حبلها السُّرىّ منه. يتحدث عن صرخة ميلاده الأولى التي خرجت بلا صوت، فظل يكررها مرارًا وهو يركض. كنت أبحث عن الحياة بين صفحات الكتب أو في أحضان النساء، أو بين جموع ثوار سنة ١٩٦٨. آهٍ يا كاترينا! كم كنا ساذجين يوم ثُرنا على الدولة وعلى الرأسمالية وضد الحروب. كم كنا ثائرَين عظيمَين وعاشقَين خائبَين! كنا نبحث عن الحياة في مظاهرات باريس وكومونة برلين، ونسينا الحياة التي تسكن فينا، الحياة التي لم تكن إلا شريانًا من الدم وشلالًا من الأنفاس تتدفق داخلنا بقوة تفوق احتمالنا لها. لم نتحمل هذا القدر من الحياة الذي يجري فينا، فرمينا كثيرًا منها إلى الخارج، وقلنا إنها في داخلها. لقد وقفنا في وجه السلطة والرأسمالية والإمبريالية؛ فقط لأننا لم نتحمل الحياة في أكثر صورها عريًا وتجردًا. الكارثة هي أن معظم البشر لا يكتشفون هذه المأساة إلا في اللحظة التي يلفظون فيها أنفاسهم الأخيرة. الدراما الحقيقية يا كاتارينا كانت يوم أن حبانا الله بهذا العيب الخلقي واحتفظ بالحكمة لنفسه!

تذكرتُ اليوم حواراتنا في السنة الجامعية الأولى. كانت حول الفلسفة الوجودية في رواية التحول لكافكا. تذكرت مزاحك وأنت تُحرِّفين مطلع الرواية فقلتِ "ذات صباح استيقظ جريجور سامسا من أحلام مضطربة ليجد أن أباه قد تحول إلى وحش مفترس". استغرق الأمر سنوات حتى فهمت أنها لم تكن مزحة، بل وصفًا دقيقًا لقصتك وقصتي. كنا، كلانا، مثل كافكا وبطله سامسا، نعاني من خوف وجودي. أنا وأنت، مثل سامسا وكافكا، تحتم علينا أن نعيش حياة لا تليق بنا كي نسدد ديون آبائنا. ففرضنا على أنفسنا عزلة قاسية جعلتنا جنسا آخر لا ينتمي إلى البشر في شيء. استيقظ سامسا ذات صباح وفوجئ أنه يرى العالم من منظور حشرة، واستيقظتِ أنت مرة لتعرفي أنكِ كنتِ تحاكمين "هيدجر" في أطروحاتك لأنه كان يدعم النازية، في حين أنك كنت تجلسين كل يوم مع والدكِ على الطاولة نفسها دون أن تسأليه مرة واحدة عن دوره فيما حدث في داخاو وأوشفيتس ولا عن تاريخه الأسود في الحزب النازي. تعجَّبتُ كثيرًا من تشابه قصتينا وتذكرتُ تعليقاتك الطريفة التي لم تكن مزاحًا. "مشكلة الإنسان أنه لا يستطيع أن يكون حشرة"، أتذكر عبارتك هذه كل مرة وأنا أقارن حياتي قبلك بحياتي بعد لقائك.

قبل أن ألتقيكِ، كنت أميل إلى فلسفة كيركيجارد الوجودية التي تفسح مجالًا للتجربة الروحانية، فيما كنتِ تميلين إلى وجودية سارتر التي لا مكان للروح فيها والتي يتكون حسب مبتدعها جوهر الإنسان، مثل شخصيته، من خلال تجاربه في الحياة. وأنا تكونت وتحوَّلت من خلال تجاربي معك يا كاترينا. لم أكن قبلك إلا سحابة قاحلة لا تمطر أبدًا. سحابة تكوَّرت حول نفسها وعاندت الرياح. كنتُ وليدًا أرعبته مخالب الوجود فأراد العودة إلى ظُلمة ما قبل الحياة، لكنه ضل الطريق نحو رحم أمه. فقررتِ، وأنت التي وُلدتِ بلا رحم، أن تعيدي حملي وولادتي من جديد، وأن تسيّري الرياح لتلين سحابتي، وأن تستحمي عارية تحت مطري، وجدتِ مفتاح وجودي تحت أنقاض مدينتي المكلومة، وشكلتِني على هواكِ. والأهم من كل ذلك أنك جعلتِني قاتلًا في النهاية. أنا أدين لك بحياتي كلها يا كاترينا!

***

١١

لم يستطع إتشيرو إخفاء الحزن الذي سيطر عليه طوال ساعات العمل، ومع أن ما حدث كان متوقعًا، إلا أنه أحس بصدمة لا يعرف سببها. تساءلت ناومي، وهي تختلس النظر إليه، إذا ما كان موت ياماموتو هو ما جعله على هذا الحال. وفي أثناء اصطفاف العمال أمام الكاونتر لأخذ صواني الطعام، دسَّت ناومي جسدها بين إتشيرو والعاملة التي كانت تقف أمامه. وحين أدارت رأسها، فاحت رائحة الصابون من شعرها ووصلت إلى أنفه. قالت له "تعال إلى طاولتي قبل أن تذهب بطعامك إلى المرحاض". لم تترك له فرصة ليسألها عما تريد منه، وسرعان ما انسحبت وسارت بسرعة لتجلس في المكان المعتاد على طرف صالة الطعام.

بعد أن تسلّم صينيته، لحق بها وقبل أن يجلس بجوارها، سألها، "ماذا هنالك يا ناومي؟". وضعت ناومي يدها في جيبها وأخرجت القليل من الملح بين سبابتها وإبهامها ثم رفعت يدها عاليًا، وقامت برش الملح فوق طعامه بحركة استعراضية. تنهد إتشيرو وقال:

" شكرا يا ناومي، ولكني لا أريدكِ أن تعملي لساعتين إضافيتين من أجل أن تضعي رشة من الملح على طعامي في النهاية!".

ابتسمت ناومي وبنبرة فيها بعض السخرية، قالت "هذا ملح مراسم وداع ياماموتو، وليس الملح الذي نشتريه من المصنع. أنا لست بلهاء لأرميه على العتبة لأطرد الموت ونحن هنا من أجل أن نموت!" تنبه إتشيرو لهذه المفارقة وابتسم قائلا: معك حق يا ناومي. نحن نتصرف وكأننا منوّمون في معظم الأحيان، نكرر ما تعوّدنا فِعلَه بحركات آلية تلقائية دون أن نمعن التفكير!" قال إتشيرو ثم همّ بالانسحاب إلى المرحاض.

"إتشيرو..." نادت عليه ناومي بعد أن ابتعد عنها بضع خطوات. وحين استدار وهو يحمل الصينية بيديه، بدا لها صبيًّا صغيرًا ومطيعًا، فشعرت برغبة مفاجئة في عناقه. "هل نلتقي الليلة؟" سألته بهدوء، وهي ممسكة بعيدان الطعام بينما يستريح كوعاها على الطاولة.

هزّ إتشيرو رأسه موافقًا ومضى إلى المرحاض لتناول طعامه هناك.

لم يكن من السهل على ناومي أن تحافظ على تماسكها في الأيام التي تلت إعدام ياماموتو. حاولت أن تتذكر مآسيها بدقة وأن توقظ في ذاكرتها أكثر اللحظات التي عاشتها ألمًا. فكرت في أمها كثيرًا كي تتشبث بقرارها في الانتحار، ولتقترب من الموت من دون ارتجافة الخوف تلك. لكن الخوف لم يتركها وشأنها. بعد أن استحمت، وضعت نفسها في السرير عند الساعة الحادية عشرة، ورقدت منتظرة أن ينام الجميع وتذهب هي للقاء إتشيرو. تقلبت كثيرًا في تلك الساعة، حاولت أن تُبعد عن رأسها الفكرة الأشد رعبًا، وهي أن يأتي دوره في الإعدام قبل دورها. لا تعرف متى وكيف أصبح إتشيرو بهذه الأهمية في حياتها. ركلت البطانية بعنف وتمتمت ببعض الشتائم من دون أن يصدر منها صوت مسموع. لكن هاناكو التي كانت مستيقظة، كلمتها همسًا، وسألتها "ما الخطب؟" فأشارت لها بيدها من أعلى وكأنها تقول إن كل شيء على ما يرام.

ولأن ناومي تثق بهاناكو كثيرًا، لم تشعر بالقلق أن تراها وهي تتسلل من السرير في هذا الوقت. ولكن علاقتها بها أيضًا أصبحت تصيبها بالمرارة. ولطالما تساءلت لماذا لم تلتقِ سابقًا بصديقة مثلها لتخفف عنها شعور الوحدة القاتل الذي ظل يغلف حياتها؟ أين كان هؤلاء الأشخاص حين كانت الحياة ممكنة؟

عندما فتحت باب غرفة غسل الموتى، أضاءت مصباح اليد وبدأت تتفقد الغرفة، وجدت إتشيرو ينتظرها جالسًا فوق المسرح المرتفع مدليًا ساقيه على الحافة. اقتربت منه وأدارت ظهرها ووضعت باطني كفيها بجانب ساقيه، وقفزت للأعلى لتجلس إلى جواره.

"أطفئيه كي تحافظي على البطارية" قال مشيرًا إلى المصباح المضاء الملقى على يسارها.

ففعلت، ثم مالت قليلًا وأسندت رأسها على كتفه اليسرى. رفع يده وتحسس وجنتها ثم ربت عليها مرتين وأعاد يده إلى حجره، لكن ناومي بحثت عن يده وحملتها وأعادتها إلى وجنتها.

"اشتقت إليكِ" قال إتشيرو في الظلام.

"لماذا لم تطلب لقائي؟" سألت ناومي بشيء من العتب، ثم رفعت رأسها عن كتفه وتمددت على الأرض كما تفعل عادة، ووضعت رأسها في حجرِهِ باسطةً ساقيها على المسرح.

"هذه اللعبة خطرة يا ناومي" أجاب إتشيرو بعد دقيقة من الصمت. ولمَّا لم تقل شيئًا أكمل، "نحن راشدان، أتينا إلى هنا لسبب واضح لا يحتمل التأويل. فلماذا نعذب أنفسنا وقد فعلنا كل ما بوسعنا لنهرب من العذاب؟" قال ذلك بنبرة ودودة خالطها شيء من الحرقة والرجاء.

"اصمت وقبّلني" قالت ناومي وهي ترفع رأسها وتطوق عنقه بذراعيها. لم يقاوم إتشيرو قُبلتها لكنه لم يقدم على تقبيلها كما هي الحال مع رجل لم يلمس امرأة منذ أكثر من سنة. مرر يده على المسرح باحثًا عن المصباح في الظلام وحين وجده أناره وسلطه على وجهها. رفعت ناومي كفها لتحمي عينيها من الضوء الذي اجتاحها فجأة.

"أغمضي عينيكِ" قال لها والضوء لا يزال مثبتًا على وجهها. لم تؤنّبه كما تفعل عادة في المواقف التي تزعجها، بل أغمضت عينيها آمِلةً أن تفهم إلامَ يصبو. شعرت بشفتيه الدافئتين فوق شفتيها فانفلتت منها تنهيدة. أعجبها أنه بادر بتقبيلها هذه المرة، فبقيت ساكنة. "كنتُ أريد أن أرى وجهك، فأنا أحب أن أرى ما أقبّل" همس إتشيرو بصوتٍ اختلطت فيه الرقة بالغموض.

عندما سمعت ناومي هذه الكلمات وقفت فوق المسرح وبدأت بخلع ثيابها، فكت أزرار سترة البيجاما أولًا ولما نزعتها عن جسدها، شعرت بالهواء حول ثدييها العاريين وكأنه أصبح للهواء وزن. ثم سحبت البنطال إلى أسفل وتخلصت منه بدفعه بقدميها. كل ذلك كان يحدث في الظلام وراء ظهر إتشيرو الذي كان موجهًا نور المصباح إلى أسفل، يتابع حركتها من خلال ظلالها على الحائط دون أن يراها. وبعد أن تمددت ناومي

على حصيرة التاتامي فوق المسرح، قالت "إن كنَّا سنموت فلنقارع الحياة في جولة أخيرة". طلبت منه أن يطفئ المصباح، ثم لمست أسفل ظهره من مكانها كي يحدد موضع يدها وقالت "ناولني المصباح، فالآن جاء دوري في اختيار المكان الذي ستُقبِّله".

أضاءت المصباح وسلطته على جبينها، فظهرت عليه دائرةٌ صغيرةٌ ذات لون يميل إلى البياض. ابتسم إتشيرو وسحب رجليه إلى أعلى ووضعها على المسرح، ثم انحنى واتكأ على كوعه وقبَّل جبينها. أطفأت المصباح ليحل ظلام دامس، وحين أشعلته كانت بقعة الضوء على وجنتها، فلما قبَّل بقعة الضوء، أطفأته مجددا، ليظهر الضوء على بطنها هذه المرة، فعرف إتشيرو حينها أنها عارية بالكامل، ودون أن يقول شيئًا، اقترب ببطء ولامس بطنها بشفتيه من غير أن يقبله. أغمضت ناومي عينيها وتنهدت برفق. أحست برغبة عارمة في النوم في حضنه الآن، لكنها قررت أن تكمل اللعبة. أعادته بالطريقة نفسها إلى شفتيها وانخرطا في قبلة طويلة شعرت معها ناومي بثقل أنفاسه. وما لبثت أن أنزلت الضوء إلى صدرها فقبَّل ثدييها مطولًا، وحين التصقت به وشعرت أنه أصبح جاهزًا لمطارحتها الغرام، أنزلت الضوء إلى باطن فخذيها وأطفأت المصباح وأفلتته من يدها تاركة إتشيرو يرتجل. سمعت القنديل يتدحرج مبتعدًا عنهما واستسلمت للّذة.

***

في صباح اليوم التالي، غادرت العاملات عنبر النوم عدا أسوكا المصابة بالسرطان. ولما انتبهت سو يوون لذلك اقتربت من جسدها الهزيل الراقد تحت الغطاء وربتت على كتفها، لكن أسوكا لم تستيقظ ولم تستجب لها، فضغطت على كتفها، ولما لم تحرك ساكنًا، قلبتها على ظهرها. كان وجه أسوكا مصفرًّا وشعرها القصير مبعثرًا ما جعلها تبدو كفرخ طائر سقط سهوًا من عش أمه. وضعت سو يوون أذنها عند فم أسوكا المفتوح فسمعت ما يشبه الحشرجة العميقة. نهضت مسرعةً وهرعت إلى مكتب المساعد على بُعد بابين من عنبر نوم النساء. "الرجاء المساعدة" هتفت سو يوون لاهثةً وهي تقف عند الباب وتشير بإصبعها نحو عنبر النوم. نظر المساعد إليها بعينين خاليتين من أي تعبير، فأضافت "العاملة أسوكا كاواكامي لا تستيقظ، انجدوها!" أنزلت ذراعها التي كانت ممدودة باتجاه أسوكا واتكأت بكتفها على إطار باب المكتب بانتظار

أي ردة فعل منه، وعندما حمل سماعة الهاتف وقال لها إنه سيرسل من يأخذها إلى مكتب طبيب المصنع، عادت سو يوون إلى عنبر النوم وجلست بجوارها.

لم تمض دقائق حتى دخل ممرضان يمسكان بحمالة لنقل المرضى، طلب أحدهما من سو يوون أن تغادر العنبر وتعود إلى العمل مؤكِّدًا لها أنهما سيهتمان بنقل زميلتها لتلقي الرعاية اللازمة. في طريقها إلى عنبر العمل شدت سو يوون كُمَّها ومسحت دمعتين تدحرجتا على وجنتيها وهي تنظر إلى أسوكا نظرة أخيرة عند الباب. بدأت سو يوون بالتقرب من أسوكا منذ تلك الليلة التي سمعتها تبكي وربتت على كتفها. وكانت كلما حلَّ الليل –خاصة في الأيام التي تظهر فيها علامات التعب الشديد على ملامح أسوكا– قرّبت أذنها من أنفها لتتأكد من أنها ما زالت تتنفس. كانت تسمع أنينها وهي نائمة وتفكر بحجم الألم الذي تشعر به، وتتذكر أمها التي ماتت بالمرض نفسه.

نُقلت أسوكا بأمر من المدير إلى الغرفة المجاورة لعنبر نومه. تلك الغرفة نفسها التي سألته عنها هاناكو والتي لا يدخلها إلا الطبيب والممرضات. في داخل الغرفة يوجد سريران تفصل بينها ستارة بيضاء معلقة بسكة فضية مثبتة في السقف قابلة للجر يمينًا ويسارًا. على أحد السريرين، وراء الستارة، بجوار الحائط ترقد امرأة عجوز ذات شعر أبيض في غيبوبة لا يعرف أحدٌ من الأطباء والممرضات القائمين عليها متى بدأت. يخرج من تحت المئزر الأبيض الذي ترتديه عدد من الأنابيب تنقل إليها الأمصال والأغذية وعلى أنفها وفمها قناع يزودها بالأكسجين. من لون ذراعيها الرفيعتين، الداكن، يُخيَّل للناظر أن تلك المرأة، مومياء حُنطت قبل آلاف السنين.

نقل الممرضان أسوكا من الحمالة إلى السرير الآخر، طلب أحدهما من الممرضة التي كانت تجلس في الزاوية وراء طاولة صغيرة تراصت عليها العقاقير والحقن أن تعتني بالمريضة وتضع لها قسطرة البول وتعلق لها المصل ريثما يجلب لها ملف أسوكا كاملا. تغيبت أسوكا عن العمل لثلاثة أيام، وفي كل ليلة كانت زميلاتها المؤمنات يصلين لها في العنبر قبل الإخلاد إلى النوم. وفي إحدى تلك الليالي، وبينما كانت المرأة المسلمة تقرأ القرآن وهاناكو جاثيةً على الأرض مغمضة عينيها مسترسلة في الصلاة، جلست ناومي فوق سريرها وراحت تراقبهما في صمت وهي تتساءل عن عبثية الصلاة من أجل إنسانة جاءت لتموت.

أرادت أن تضحك بصوت عال عندما تخيَّلت أسوكا تستيقظ من الغيبوبة في يوم ما، وفي اليوم التالي يسحب المدير ورقة فيها اسمها من أجل تنفيذ عملية الإعدام.

بعد أن أنهت هاناكو صلاتها، وحركت يدها على شكل صليب أمام رأسها وصدرها، سألتها ناومي:

- ألا يؤلم عنقك هذا الصليب الكبير؟
- لا، لا يؤلمني. لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة من دونه، ولا أنام إلا وهو في حضني.
- اعذري تطفلي يا هاناكو، لكن لماذا تُقدِم امرأة مؤمنة مثلك على الانتحار؟ لا أعلم الكثير عن الديانة المسيحية، لكني سمعت أن إلهكم نزل إلى الأرض ومات على الصليب من أجل خلاصكم، فلماذا تطلبين الخلاص من مدير المصنع؟

وقفت هاناكو بتثاقل وأسندت يدها إلى السرير لتخلص ركبتيها من الخدر بعد أن بقيت جاثية عليها عدة دقائق. وحين جلست على سريرها تنهدت قائلة:

- طرق الرب عجيبة وغامضة يا ناومي. وما يدريكِ لعل المدير هو الطريق التي اختارها الرب ليقصر المسافة بيننا وبينه. لم آتِ إلى هنا طلبًا للخلاص، ولكن لتقصير المسافة!

هزت ناومي رأسها وكأنها تحاول أن تفهم.

- لم أنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية من قبل. ولكن... لماذا يأخذ الإنسان على عاتقه عبء تقليص تلك المسافة؟ لماذا لا يقترب الإله من الإنسان بدل الاختباء في السماء؟ أزاحت ناومي خصلة من أمام وجهها، ثم قالت "انظري كيف تعذبت أسوكا لسنوات طويلة بالسرطان، ثم جاءت إلى آخر الدنيا لتتسول الموت. ماذا يقول المؤمن في مواجهة كل هذا العذاب؟ أهو غضب من الله أم اختبار أم لامبالاة؟".
- يمكن أن أعطيك جوابًا مسيحيًّا نموذجيًّا عن دور الألم في تطهير النفس والسمو بالروح، وعن المسيح نفسه الذي صُلِب وتعذب ومات، ولكن في الحقيقة ليس لديّ جواب عن ذلك. ذات مرة رجع الأب يوشيدا وكان حزينًا، وعندما سألته ماذا به، قال إنه ذهب لمواساة امرأة حاولت الانتحار. قالت له المرأة إنها تشعر أن الله خذلها، فقد كرَّست حياتها لعبادته ولفعل الخير ولم تستمتع بشيء في حياتها، وفي النهاية أصابها مرضٌ نادرٌ لا دواءَ له ولا شفاءَ منه وعاشت سنوات طويلة تعاني وتتألم، وعندما فشلت في الانتحار، جاءها الأب يوشيدا ليخبرها أن محاولة انتحارها خطيئة. سألته المرأة: إذا كان

الله يعلم ما بي من ألم، وإذا كان رحيمًا بحق، فلماذا لا يخفف آلامي أو يأخذ روحي أو على الأقل يتركني أقتل نفسي لأرتاح؟ ماذا يستفيد الله من أن تمتد حياتي بكل هذا القدر من الألم؟

- وماذا قال لها القس؟

تنهدت هاناكو ثم استطردت:

- لم يقل لها شيئًا. وحين عاد إلى بيت الرعية قال لي ما لم يستطع أن يقوله للمرأة ولا لغيرها من المؤمنين. قال إنه لا يملك جوابًا عن هذا السؤال. وإنه لا يستطيع أن يقول للناس بضمير مرتاح إن الله له حكمة من عذابهم وآلامهم ومن الفيضانات والزلازل ومن موت الأطفال جوعًا أو حرقًا في الحروب. واعترف لي حينها، بأن القساوسة عادة ما يخدعون الناس حين يخبرونهم أن المؤمنين لا ينتحرون، ولكنه في الحقيقة كان يعلم أن هناك مؤمنين كثرًا ينتحرون لأنهم بعد معاناة طويلة يظنون أنهم ليسوا جديرين بحب الله ورأفته، فإن كان الله هو من يشفي المرضى ولا ينظر لهم بعين الرحمة ويشفيهم، يواسي غيرهم ولا يواسيهم، فهذا دليلٌ يدينون به أنفسهم قبل أن يقرروا الانتحار.

صمتت هاناكو فجأة بعد أن لاحظت أنها بالغت في المشاركة، وأنها لربما قالت أشياء لم يكن من حقها أن تقولها. أرادت أن تخبر ناومي أنها شعرت أن يوشيدا في سنواته الأخيرة قد بدأ يشك في أشياء كثيرة كان يؤمن بها في شبابه. وأنه بدا لها غير متأكد إذا كان الانتحار خطيئة. استنتجت من كلماته أنه لم يعد يظن أن الرهبنة والتنسك هي أفضل الطرق إلى عبادة الله. وأنه أيضًا بدأ يشك في وجود الله نفسه. في الماضي كانت تسمعه دائمًا يردد دعاءً يقول فيه "يا إلهي، امنحني القوة كي أغيّر ما يجب أن أغيّره، وامنحني الصبر كي أتحمل ما لا أستطيع أن أغيّره، وامنحني الحكمة كي أميّز هذا من ذاك". ولكن قبل موته بسنوات رأته هاناكو وهو يجثو وحيدًا على ركبتيه أمام المذبح في الكنيسة مناجيًا الرب "يا إلهي، إن كنتَ موجودًا حقًّا، فأخرجني من ورطتي تلك!"، ولكنها قررت الاحتفاظ بسر يوشيدا، فعلاقته بربه كانت شأنًا خاصًّا به.

قطعت ناومي تأملاتها عندما سألتها:

- وماذا عنك يا هاناكو؟ ألم تُصِبك الشكوك بشأن مجيئك إلى هنا؟ أليس قتل النفس محرمًا في المسيحية، خاصة أنك راهبة نذرت نفسها لخدمة الرب؟

مررت هاناكو إصبعها على طول حاجبها من أوله حتى آخره، بحركة فيها شيء من التوتر ثم طقطقت أصابعها وقالت:

- لا أعتقد أن قتل النفس أو حتى قتل الآخر حرام. لو كان القتل عملًا إجراميًّا، لكان الرب، حاشاه عن ذلك، أكبر مجرم، لأن لا أحد يقتل أكثر منه. كل نفس تموت، إنسان أو حيوان، الرب هو قاتلها، وبما أن الرب رحيم، فالقتل قد يكون أيضًا شكلًا من أشكال رحمته.

ابتسمت ناومي وكأنها أحبت ما سمعت، لكنها أرادت أن تستكشف هاناكو أكثر:

- ولكن ماذا لو عاتبك الله يوم القيامة على قتل نفسك؟ ماذا ستقولين له؟ سألتها ناومي وكأنها تحاور طفلًا.
- سأقول له: أنتَ من خلقتني هكذا، بلهاء لا أجيد تقدير الأمور. أنا بضاعتك وها قد رُدّت إليك، ويمكنني أيضًا توجيه اللوم لك على فساد بضاعتك!
- رائع يا هاناكو. إجابتكِ حاضرة دائمًا، أنتِ ممن لا يخاف المرء عليهم حتى من الجحيم. أظن لو كانت هناك جنة، فأنت أول من يدخلها.
- أشكرك يا ناومي، هذا لطف كبير منك يا عزيزتي، وماذا عنك أنت؟
- أنا ماذا؟
- إلى أين تريدين الذهاب بعد الموت؟
- أتمنى ألا أذهب إلى أي مكان. أريد أن أموت لأنني لا أريد الذهاب إلى أي مكان.
- ولكن ماذا لو متِ، ووجدتِ نفسك في العالم الآخر أمام الله، ماذا ستقولين له؟
- أمممم، لا أدري. ربما سأقول له "شكرا على الويسكي!".
- هاهاهاها!

انطلقت ضحكة مدوية من بين شفتيْ هاناكو وهي تقول "ظريفة جدا".

- وماذا عنك أنتِ؟ ماذا لو لم تجدي إلهك الرحيم على الجانب الآخر من الموت؟ سألتها ناومي.
- لا أدري. حتى لو لم يكن الله موجودًا، أريد أن أكون جديرة به. قالت هاناكو وقد لمع في عينيها ما يشبه اليقين.

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيْ ناومي وقالت:

- أنتِ إنسانة مذهلة حقًّا يا هاناكو. لم أرَ في حياتي كلها امرأة مثلك.
- لا تبالغي، العالم ممتلئ بمن هن مثلي وأفضل مني، ولكن ربما كان عليكِ أن تأتي إلى جزيرة بعيدة كهذه لتعرفي ذلك. مرة أخرى: طرق الرب عجيبة وغامضة. قالت قبل أن تستدير وتربت على وسادتها عدة مرات وتلقي برأسها عليها.

***

في اليوم التالي، وعندما بدأ الاجتماع المسائي المعتاد، أعلن المدير عن وفاة أسوكا "لقد كانت وفاةً طبيعية، ما يعزينا أن زميلتكم ماتت دون ألم، فقد أعطيناها الجرعات اللازمة من المورفين لتفارق هذه الحياة بسلام" قال المدير بهدوء شديد وسط صمت العمال الذين شعروا بالموت يقترب منهم من أبواب كثيرة. سو يوون لم تستطع منع دموعها من السقوط من عينيها وهي تبكي في صمت، وعندما انتبه الرجل الجالس إلى جانبها، سألها إن كانت بخير، رفعت يدها وكأنها تقول له: اتركني وشأني. أما ناومي، فقد عادت إليها نوبة الذعر التي أصابتها بعد موت ياماموتو، ولما رأت هاناكو ما حلّ بصديقتها، رفعت قطعة من الورق المقوى أمام وجهها، وبدأت بالتلويح بها لتساعدها على التنفس.

تمنت ناومي في تلك اللحظة أن تكون مؤمنة هي أيضًا. تخيلت نفسها كيسًا بلاستيكيًّا فارغًا في مهب الريح، يعلق في نبتة شوكية، وما إن يفلت منها، حتى ترميه الريح على أخرى. ولكن بماذا سيساعدها الإيمان؟! فكرت وهي تنظر إلى هاناكو التي يغيب وجهها ويطل من وراء قطعة الكرتون التي تلوح بها. ها هي هاناكو المؤمنة، التي لم ينقذها إيمانها من الشعور بالعجز والمرارة ولا نفعها الرضى والتسليم بمشيئة الله في استكمال حياتها بعد موت يوشيدا. ها هي متورطة في مأزق لم يُخرجها منه إيمانها.
حين تجتاحها نوبات الهلع تلك، تتمنى ناومي أن تموت في التو واللحظة، أو أن يأتي دورها غدًا، لترتاح من الشعور بالخوف الذي يجعلها تختبر الجحيم في كل مرة تقع في براثنه. ولكنها عادت وفكرت في إتشيرو. "يجب أن يعيش" همست بصوت لا يسمعه أحد؟ واستغربت من إصرارها على إنقاذ إتشيرو بينما لا تفكر هي في نفسها، ولا في تغيير قرارها بمغادرة هذه الحياة.

عندما انتهى وقت الدوام الأصلي، خرجت ناومي من عنبر العمال، فقد قررت يومها ألا تعمل لساعات إضافية. كانت قد سألت هاناكو وقت الغداء عن كيفية الوصول إلى مكتب المدير، ووصفت لها الأخيرة الطريق بالتفصيل "لا أستطيع أن أصطحبك إلى مكتبه بنفسي كيلا يغضب مني" قالت هاناكو معتذرة. لم يزعج ذلك ناومي، فهي تريد أن تراه على انفراد لأنها كانت مستعدة لفعل أو قول أي شيء ليستجيب لها.

قبل أن تبدأ حلقة الاعتراف بساعة تقريبًا، ذهبت ناومي لمقابلته. اختارت هذا التوقيت بالذات كي تضمن وجوده في المكتب.

ترددت كثيرًا وهي واقفة أمام الباب. تحيّرتْ ما إذا كان عليها أن تطرق الباب وتنتظر الإذن بالدخول كما يتصرف الناس عادة، أم تفتح وتدخل دون استئذان كي تتجنب الصد. هذا القرار الذي يبدو سهلًا وبديهيًّا في أي مكان آخر، يتحول إلى سجال في هذا المصنع الذي لا يمُتُّ إلى قوانين الحياة التي عرفتها بصلة، مكان يوقظ كل شياطين الإنسان المحبوسة في لاوعيه ويجعلها تنقلب ضده. ضمت قبضتها ورفعت يدها ثم أغمضت عينيها وطرقت الباب.

في الداخل كان المدير يتابع حركتها من على شاشة المراقبة، وهي واقفة أمام الباب مثل الصنم، ويراهن على الوقت الذي ستحتاج إليه قبل أن تطرق الباب أو تستدير لتعود أدراجها. شعر بشيء من النصر حين طرقت الباب، فمد يده وضغط على زر على يمينه، وبعد أن فتح الباب، رأى ناومي واقفة هناك صامتة يعلو وجهها قليل من الحيرة.

- "تفضلي" قال المدير بنبرة جادة "كيف لي أن أساعدك؟" أضاف قبل أن يمد يده ويمسك غليونه.
- أتيت لأطلب منك أن تسمح لإتشيرو بالمغادرة؟
- "إتشيرو؟!" قال المدير وهو يضيّق عينيه محاولًا تذكر الوجه الذي يحمل اسم إتشيرو. "هل هو من أرسلك؟" سأل المدير باهتمام.
- "لا" قالت ناومي ونظرت إلى الأرض.
- ما اسمك أنت؟
- ناومي. واتانابي ناومي.
- "اسمعي يا واتانابي سان. قوانين المصنع واضحةٌ والعقد الذي وقعتموه واضحٌ أيضًا. ليس هناك بندٌ يسمح للعامل بالتراجع عن قراره بعد أن يدخل إلى هذا المكان!" قال وسحب نفسين قصيرين من غليونه.
- أي عقد لا يمكن فسخه أو تغيير بنوده فيما بعد هو عقد باطل بنص القانون. ألا تظن ذلك؟
- لا أظن أن قوانين العالم الخارجي تنطبق على هذا المكان. هذا المكان عالم قائم بذاته. قال رافعًا حاجبيه.
- ولكن....

- "لقد حدث هذا الأمر مرتين من قبل" قال المدير مقاطعًا "مرة سمحتُ بمغادرة امرأة حامل لم تكن تعلم بحملها حين وصلت، ونظرًا إلى أن الجنين لم يوقع العقد بنفسه فلم أشأ أن أقرر مصيره نيابة عنه وتركتها تذهب".
- ماذا عن الحالة الثانية؟ سألت ناومي باهتمام.
- سوف أكتفي بالقول إن العامل استطاع أن يعطيني مبررًا مقنعًا لطلبه مغادرة المصنع. قال وهز رأسه وكأنه تذكر شيئًا يعنيه.
- لكن حق التراجع عن الموت قد لا يقل أهمية عن حق طلبه. قالت ناومي بنبرة فيها شيء من التحدي.

ضحك المدير مطولًا. وحين توقف عن الضحك سألها:

- أين كان كل هذا العزم والإصرار حين كنتِ في الخارج؟ ثم لماذا تطلبين الإذن لأحد سواكِ؟ هل تودين أنت التراجع عن قرار الانتحار؟
- لا. أجابت ناومي باقتضاب.
- هل يعرف إتشيرو سان أنك هنا لتحصلي على العفو له؟ سألها بشيء من الاتهام.
- لا. قالت وهي تبعد خصلة من شعرها إلى الوراء.
- "أجد هذا الأمر برمَّته طفوليًّا وغير منطقي" قال ببعض الانفعال "إذا أراد إتشيرو سان التراجع عن قراره، فليأتِ هو إلى هنا ويكلمني، وإن أردتِ أنتِ التراجع، فاقنعيني بالأسباب. هذا كل ما لديّ. والآن يمكنك الانصراف". قال وهو يمد ذراعه مشيرًا براحة كفه المفتوحة نحو الباب. وقبل أن تخرج أضاف المدير "يمكنك أن ترشديه إلى خارج المصنع بمساعدة مصباح جيبك عندما يغرق المصنع في الظلام!".

توقفت ناومي لوهلة دون أن تلتفت نحوه ولم تشكره قبل أن تغادر صامتة. ركضت في الممرات وهي ترفع إصبعيها الأوسطين وتنظر إلى السقف والجدران بحثًا عن الكاميرات. أطلق المدير ضحكة وهو ينظر إلى الشاشة التي تُظهر أقسامًا مختلفة من المصنع في مربعات، ثم أخرج علبة الدواء من جيبه وتناول حبتين استعدادًا للانضمام إلى الاجتماع بعد نصف ساعة.

***

يظهر عادة أحد العمال الجدد بعد كل حالة إعدام بأسبوع تقريبًا. كانوا جميعا متشابهين في صمتهم وانكسارهم وفي النظرة الهلامية في عيونهم. ولكن هذا لم يكن حال القادم الجديد الذي دخل يلف جسده بقطعة نايلون بيضاء تغطي كتفيه وتصل إلى أسفل ساقيه بينما يمسك بطرفيها بيده اليسرى أمام صدره. تبادل العمال والعاملات النظرات باستغراب عندما رأوه وتجنب بعضهم الضحك. لم يكترث القادم الجديد لأحد وتوجه إلى أحد المقاعد الشاغرة بخطوات واثقة وقامة منتصبة حد المبالغة. بان القلق في ملامح وجه كوباياشي الذي تكوم في مقعده قبل أن يغطي نصف وجهه براحة كفه وكأنه غارق في سيل من الأفكار العميقة.

أطل المدير من على الشاشة وحيًّا الجميع، ثم طلب من الوافد الجديد التعريف عن نفسه. وقف الرجل ممسكًا بطرفي قطعة النايلون البيضاء التي تلف جسده وقال "أنا الإله" ثم جلس. لتخرج بعض ضحكات مكتومة من أجزاء متفرقة من الصالة، فيما ظهر بعضٌ من الإحباط على وجه المدير.

"محاولة جيدة أيها الإله، ولكني أريد أن أعرف من أنت وليس ما يدعوك به أصدقاؤك" قال المدير ساخرًا.

وقف الوافد الجديد مجددًا:

- لقد قايضت اسمي مع الله ولم يتبقَّ لي سوى هذا الاسم take it or leave it قال ملوحًا بيده الأخرى باستخفاف، ثم جلس.
- حسنا أيها الإله أخبرنا قصتك؟ قال المدير مستسلمًا.
- قصتي بعد أن أصبحت إلهًا أم قبلها؟ أظن أنكم جميعا تعرفون تجربة الإله المحدودة في السماء ولا داعي لأن أقصها عليكم؟ قال وما زالت الجدية تسيطر على ملامحه.
- "قبل أن تصبح إلهًا" قال المدير وكأنه وجد مخرجًا لهذه الورطة.

أمسك "الإله" بطرفي قطعة النايلون وربطها حول عنقه ليحرر يديه وإذا به يبدو مثل سوبرمان ولكن بوشاح أبيض بدل الأحمر، ثم بدأ بالكلام:

" كانت الحياة أسهل بكثير قبل أن أصبح إلهًا... البشر جاحدون ولا يدركون مستوى الحرية التي يتمتعون بها في تجاربهم الإنسانية. أعني... الجميع يتوقع من البشر أن يخفقوا! في النهاية هم بشر. لكن الإله يتصف بالكمال، وهذه لعنة لأن ما يبدر عن الإله يجب أن يكون كاملًا مثله وكل المشاكل التي تمر عليه يجب أن تتحلل وتصبح هواءً".

رفع المدير يده مقاطعًا "قلتَ إنك ستخبرنا عن تجربتك قبل أن تصبح إلهًا. وعن الأمر الذي أتى بك إلى هنا".

" أترى؟ هذا الاستعجال المقيت، صفة بشرية ولذلك أنا أسامحك. أما أنا فكل شيء محسوبٌ عليّ. لقد بدأ كل شيء عندما أراد أحدهم أن يقوم بعملٍ خيّر. كنتُ مسلتقيًا في كيس نومي على قارعة الطريق أمام مبنى البلدية حيث أنام عادة، وإذا برجلٍ يهز كتفي. استفقت من سباتي ظنّا مني أن أحدهم يريد أن يقدم لي وجبة ساخنة أو يعطيني بعض النقود. ولكنّ رجلًا بدا لي مخمورا قال إنه يريد أن يرفع المعاناة عن أحدهم لبضع ساعات وقد اختارني أنا. جلست وألقيت ظهري على جدار الرصيف وجلس هو بجانبي، ودون أن يقول المزيد، فتح علبة صغيرة وأخرج منها لفافة وقال "الآن سأُدخِلك الجنة أيها المختار". آخر ما أذكره هو أننا قمنا بتدخين اللفافة معًا ولكني لا أذكر شيئًا بعد ذلك ولا كم من الوقت مكث الرجل جالسا بجانبي".

انحنى ليمسّد قطعة النايلون البيضاء وكأنه يحاول أن يبقي على هيئة تليق بإله وأكمل:

"مرَّت عليَّ رؤى تعجز كل اللغات عن وصفها. رأيت نفسي سمكة تسبح في قعر محيط مظلم لا يصله ضوء الشمس. سبحت مع الأسماك من كافة الألوان والأشكال، التهمتني سمكة كبيرة كانت تشبهني كثيرًا وتمنيت ألا تكون تلك السمكة أمي. بعدها رأيت نفسي غزالة في غابة استوائية، تأكل العشب وتحدق في عيني غزالة أخرى، اعتراني شوق للجري من دون توقف، لكن حيوانًا مفترسًا انقض عليَّ وقضم عنقي".

"لا بد أنه مجنون" همست ناومي لإتشيرو الذي وضع سبَّابته أمام فمه يطالبها أن تصمت وتصغي، فقلبت عينيها وعقدت يديها أمام صدرها لأن صبرها بدأ ينفد.
"ما هذه الهلوسات؟!" هتف أحد الرجال مستنكرًا.
ولكن المدير بدا كأنَّه مستمتعٌ بقصص هذا الرجل العجيب، فطلب من الجميع أن يصمتوا وأذِن له أن يكمل.

" ثم ظهر الله وأخبرني أنه اصطفاني وجعلني أرى عدة حيوات، ثم تنهد وقال لي إنه متعب. وعندما سألته إن كان بإمكاني تقديم المساعدة، قال إنه يود لو نتبادل الأدوار. لا أعرف لماذا قبلت! أتخيله الآن جالسًا

مكاني أمام مبنى البلدية ينعم بزجاجة بيرة باردة ووجبة كنتاكي وأنا أجري مثل كلبٍ مسعورٍ لإصلاح إخفاقاته".

كان كوباياشي لا يزال يغطي نصف وجهه بيده، وتمنَّى لو أنه يملك آلة تسجيل ليحتفظ باعتراف "الإله" كاملًا، لكنه ظل ساكنًا محاولًا ألا يلفت انتباه الحضور.

"انظروا إلى كمية الفساد والدمار التي ألحقها الإنسان بالأرض! انظروا إلى الجشع والطمع والحروب والاستغلال! إنه لشيء مقزز ومخجل أن أُتَّهم أنا بكل هذا وقد تلقيت المنصب مؤخرًا، وأُجبِرتُ على تحمل عواقب أفعال ذاك الذي يتجرع البيرة الآن في مكاني".

رفع أصبعه وكأنه زعيم يلقي خطبة على الجماهير:

"هناك دائمًا حلول. والحل لمشكلتي هو حل جذري: حين يموت الإله ليخلصكم ينتهي كل شيء ويعود العالم إلى صورته الأولى ويتحوَّل إلى ذرات غبار كوني".

قام بخفض سبابته، ثم قال وقد رق صوته "ولهذا أيها البشر، أنا في هذا المصنع. كي أنقذكم وأنقذ العالم وأنقذ الإله من ورطته. الآن بإمكانكم التصفيق!" أنهى الخطبة وجلس فوق كرسيه.

لقد سبق لكوباياشي أن التقى بـ "الإله" في أحد مستشفيات الأمراض النفسية منذ نحو عشرة أعوام، ولكن في تلك الفترة كان يظن نفسه جنديًّا يابانيًّا أثناء الحرب العالمية الثانية. كان يختبئ في كل مرة يسمع فيها صوتًا عاليًا ظنًّا منه أن الغارة الجوية قد بدأت. لكن هذا القادم الجديد، لم يكن جنديًّا يومًا ولا إلهًا، بل شخصًا قليل الحظ، تغيَّرت حياته بعد عودته من رحلة عمل إلى منزله في مدينة كوبي عام ١٩٩٥، وجد أن منزله وعائلته والشارع، بل الحيّ كاملا، قد اختفت تمامًا من على وجه الأرض، بعد الزلزال الذي ضرب المدينة. كان، قبل ذلك الحادث المأسوي، مهندسًا معماريًّا ناجحًا ومواطنًا صالحًا، لكنه لم يتعافَ أبدًا من خسائره التي لم تقتصر فقط على ممتلكاته وعائلته، بل امتدت لتشمل أيضًا، سلامته العقلية. لقد عرف كوباياشي كل تلك المعلومات نتيجة لتسلله إلى غرفة سجلات المرضى وسرقة المعلومات من أجل مشروعه الروائي، وكُشف أمره بعد أن نشر الرواية، وذاع بعدها صيت كوباياشي مما سبب فضيحة كبرى للمستشفى.

لم يكن كوباياشي يتوقع أن أمرًا كهذا سيحدث ويعكّر عليه خطته هذه المرة. لقد جاء إلى المصنع بالنوايا القديمة نفسها، عازمًا على كتابة رواية عن الانتحار مُمنّيًا نفسه بإيجاد طريقة للخروج من هنا ونشر الرواية وتحقيق نجاح أكبر مما حققه بعد نشر روايته عن مستشفى الأمراض النفسية. شعر بالقلق من وجود هذا الشخص هنا مما قد يحول بينه وبين مراده، لكنه لم يكن متأكدا إن كان "الإله" سيتعرَّف عليه. لقد بدا له فاقدًا للمنطق والأهليَّة، وقرر أن يتجنبه تمامًا إذا كان ذلك ممكنًا.

وفي اليوم التالي، رفض "الإله" أن يقوم بعمله الذي يتطلب منه عدَّ الكرات وتوزيعها على العلب، بل راح يعد العمال ويصنفهم بين صالحٍ وطالح، وبين الفينة والأخرى، ينظر إلى كاميرات المراقبة محتجًّا: "الآن تبدلت الأدوار، كنت أنا أراقب البشر واليوم هم يراقبونني، لا شيء يبقى على حاله والقادم أسوأ".

***

١٢

أيقظت قصة الكوريَّة سو يوون سيلًا من الذكريات والمشاعر لدى المدير، وبعد أن أطفأ الشاشة، حلَّ ربطة عنقه، رجع بكرسيه إلى الوراء، ووضع قدميه فوق المكتب. أغمض عينيه وهو يتذكر يوم طلب من كاتارينا أن تصطحبه إلى شارع هيربرت في الـ "ريباربان" في هامبورج. ربما كان ذلك في الزيارة قبل الأخيرة إلى ألمانيا قبل عشرين عامًا، إلا أنه ما زال يتذكر التفاصيل بوضوح، وكيف رفعت كاتارينا عينيها بأهدابها المشبعة بالماسكارا، عن فنجان القهوة ووبخته قائلة:

"هل أنت مجنون؟ أنا أستاذة فلسفة في الجامعة وتريدني أن أتسكع معك في حي العاهرات؟".

- وهل أنتِ أفضل من نيتشه؟ هذا الإنسان الخارق أيضًا كان يزور العاهرات. ربما واتته فكرة أخلاق العبيد وهو يتمرغ في حضن واحدة منهن. قال وهو يحاول استفزازها.

دار بينهما حوارٌ حاد حول الدعارة، وصعقه رأيها، وفوجئ بتأييدها لحق النساء في بيع أجسادهن وحق الرجال في شرائه. نظر إليها وهو لا يصدق أن هذا ما تؤمن به، أيُعقل أن ترضى كاتارينا الـ "فيمينست" الشرسة أن تبيع النساء أجسادهن؟

لم تكن مفاجأة كاتارينا أقل من مفاجأته حين علمت أنه يؤيد بشدة منع الدعارة وإغلاق كل أماكن البغاء. فهو الياباني، الذي تُعتبر فتيات الـ "غيشا" في ثقافته، قديسات، هو الذي كلما نزل بمدينة، لا يزور منها إلا المقابر وحيّ العاهرات. لم تتوقع كاتارينا أن يكون هذا هو موقفه من موضوع الدعارة.
استخدم يومها الدستور الألماني للدفاع عن حجته. أخذ رشفة كبيرة من فنجان القهوة الذي بردت حرارته قليلا. قال لها إن المادة الأولى من الدستور الألماني تنص على أنه لا مساس بكرامة الإنسان. وإنه لا يعتبر الدعارة انتهاكًا لكرامة المرأة التي تعمل في هذه المهنة فقط، بل إنها انتهاك لكرامة الرجل أيضًا، الذي يسمح لنفسه أن يشتري جسد امرأة بالمال.

ابتسمت كاتارينا غير مصدقة ما تسمعه، ومسحت فمها بفوطة بيضاء مخلفةً عليها قليلًا من أحمر الشفاه، قالت "إن الدستور يضمن أيضًا حرية الاختيار، فماذا عن المرأة التي قررت بنفسها أن تعمل في هذه المهنة، وماذا عن الزبون الذي يذهب بإرادته إليها ويدفع لها مقابل الحصول على خدماتها".
جاءت إجابته كما كانت تتوقعها: "المشكلة ليست فيمن يفعلن ذلك باختيارهن ولكن فيمن يُجبرن على فعل ذلك". وأضاف، ليثبت وجهة نظره، أن معظم النساء اللاتي يعملن في هذه المهنة فتيات من شرق أوروبا، يعشن تحت رحمة عصابات الجريمة المنظمة ويتم استغلالهن من القوَّادين ومن النفوذ المالي، والسياسي أحيانًا.

هزت كاتارينا رأسها باستنكار، كأنها اكتشفت في تلك اللحظة، أن الأمور اختلطت عليه، "إن هذه قضية أخرى لا علاقة لها بالدعارة كمهنة، بل يمكن النظر إليها، على أنها نوع من تجارة الرقيق، فهي تقوم على إجبار النساء على القيام بهذا العمل. أما إذا كان ذلك يتم بمحض إرادة المرأة، فهي حرة. ولو منعت الدولة الدعارة لأن فيها استغلالًا، فعليها أن تمنع أيضًا بناء البيوت، لأن معظم العمال في هذا المجال يتم استغلالهم، وكثيرٌ منهم مهاجرون غير شرعيين كما هو معروف".

كانا يؤمنان بالاشتراكية، لكنهما يختلفان حول الفرق بين السلعة والخدمة. فهو يعتبر العاهرة تبيع جسدها كبضاعة، وهي تعتقد أنه لا فرق بين العاهرة التي تبيع خدمة جسدية وبين عامل البناء الذي يبيع مجهوده البدني أو الأديب الذي يبيع أفكاره. كلها خدمات تخضع لآليات السوق ويتحكم فيها العرض والطلب.

أصرَّت كاتارينا على أن المشكلة ليست في بيع الجنس، وإنما في اختلال موازين القوى بين الرجل والمرأة اللذين لا يلتقيان على أرض مستوية منذ فجر التاريخ. وأن المشكلة الكبرى هي ورق البنكنوت الذي يتكدس في جيوب الرجال ولا يجد طريقه إلى جيب المرأة إلا عن طريق الرجل. "لو كان علينا أن نمنع شيئًا، فلنمنع النقود التي تسمح لرجل بشراء امرأة. فلنهدم البنية المجتمعية والاقتصادية التي تجعل النساء يبحثن عما يريده الرجال ويقمن بتنفيذه سواء باختيارهن أو رغمًا عنهن. لننسف التاريخ كله الذي أودى بنا إلى هذا المستنقع الآسن!" قالت كاتارينا وهي تدفع فنجان القهوة إلى منتصف الطاولة بحركة عفوية ثم تضع ساقًا على ساق.

آهٍ! كم أَحبَّ إيسامو اندفاع كاتارينا والشريان الذي ينفر في جبينها وهي تتحدث عن موضوع يعنيها وكأن حياتها كلها متوقفة عليه.

وكما اختلف معها حول قضية الدعارة، لم توافقه على رأيه في فيلم "هيروشيما مون آمور". فقد وقع هو في أسر البطلة التي قصوا شعرها وأودعوها في قبو، وتماهى مع قصة حبها الأولى مع الضابط الألماني ثم مع الرجل الياباني، ووجدت كاتارينا أنه من السذاجة تمجيد كل علاقة مستحيلة. "لا أفهم كيف يُتيَّم فيلسوف أكاديمي بفتاة مخبولة تهدي قلبها لكل رجل يَهمُّ بالمغادرة" قالت له مرة وكأنها ترسل برأيه ومشاعره إلى بلاعة المياه.

ورغم ذلك، رافقته ثلاث مرات لمشاهدة الفيلم، واستمتعت بالشِّعر فيه. ونجح أيضًا في إقناعها بمرافقته إلى شارع هربرت. كان الجو باردًا، وارتدت يومها معطفًا رماديًّا وقبعةً حمراء تُبرز عينيها اللتين كان لهما لون البحر في النهار ولونٌ فستقيٌّ مضيء في المساء. وقفا عند الحائط الذي يسد مدخل الشارع المظلم وقد كُتب عليه "ممنوع دخول النساء والشباب تحت ١٨ سنة". هتفت له "انظر.. ممنوع دخول النساء. حتى العاهرات لا يطقن رؤية امرأة. هل رأيت جبروتًا أكبر من ذلك؟".

"منذ متى وأنتِ ترتدعين من كلمة ممنوع؟" قال وهو يمسك بيدها. ثم ذكَّرها بمظاهرات باريس وبرلين، التي شاركا فيها عام ١٩٦٨، وكيف ثارا ضد الدولة وضد جيل الآباء المتصلب أخلاقيًّا والمتحجر اجتماعيًّا. ضحكا وهو يذكرها بالمرات التي رشقا فيها الشرطة بالحجارة وطالبا بنهاية الرأسمالية والإمبريالية العالمية.

مالت برأسها قليلًا على كتفه وقالت "ولكننا بعد ذلك الرفض بسنواتٍ قليلة أصبحنا جزءًا من الرأسمالية، حين قبلنا بالعمل أساتذة للفلسفة في جامعاتٍ حكومية، أنا في هامبورج وأنتَ في هيروشيما".

أمسك بيدها ودخلا الشارع القصير الخالي إلا من بعض المارة. نادت عليه إحدى الفتيات من داخل إحدى الفترينات القليلة المضاءة، وقفت ترقص بثيابها الداخلية، "تعال وارقص معي أيها الرجل الوسيم". كانت ألمانية على ما يبدو، ولم يبدُ عليها أن أحدًا أجبرها على الجلوس في الفترينة ودعوة الرجال لمشاركتها الرقص. قبضت كاتارينا على يده بشدة ورمقته بنظرة حادة "إياك أن تفعل، وإياك أن تصدق أنك وسيم!" قالتها بلهجة ساخرة. وبالتأكيد، لم يكن ليفلت يده من يدها في الشارع المظلم ويدخل إلى كابينة عاهرة. كانت كاتارينا تعلم جيدًا أنه لم يذهب إلى ذاك الشارع طلبا للجنس. فهي تعلم أن رؤية العاهرات لا تثير غرائزه بقدر ما تواسيه. فتيات الفترينات بالذات كن يثرن في داخله شجنًا لا يعرف مصدره. كان يلاحقهن في كل مكان، في سيول، في آخن، براونشفايج وأمستردام.

"هل تعلمين أن فترينات العاهرات تحاصر الكنيسة القديمة في أمستردام من كل الجهات؟ لا بد أن من اختار هذا التجاور بين بيت الله وبيوت العاهرات، كان على دراية كاملة بالطبيعة البشرية" قال لها وهما في الطريق إلى المنزل.

أنزل المدير قدميه من على المكتب، فتح الدرج، وأخرج دفترًا وبدأ بكتابة رسالة:

"عزيزتي كاتارينا،

لا جديد، البشر لا يزالون كما هم، يقضي كل واحدٍ منهم عمره يطلي الخذلان بالصبر والنكران، إلى أن تصيبه لحظة من الوعي، تكشفه أمام نفسه، ليخرج من حالة الإنكار التي كانت تمنعه من مواجهة الحقيقة، فيأتي إليَّ طالبًا الخلاص عن طريق الموت. لا أحد يفكر في الانتحار لأن شيئًا ما حدث له، ولكن لأنه في لحظة واحدة اكتشف كل ما لم يحدث له. وفي اللحظة نفسها يكتشف الجريمة التي ارتكبها بحق نفسه، وأن الوقت قد فات كي يبدأ بإصلاح ما أتلفه طيلة حياته. هؤلاء الناس لا يحتاجون إلى مصنع للانتحار، بل إلى جهاز يخفف درجة الإدراك عندهم ويحتفظ بهم في وعي طفولي محدود، برغبات ومشاعر بدائية. الرأس هو بيت الداء، كما كنتِ تقولين دائمًا، والشعور بالذنب هو أصل كل المصائب.

ما زلت أذكر حواراتنا الطويلة حول الوعي والإدراك. كنتِ تقولين إن الوعي هو عيب خلقي نتج عن كبر دماغ الإنسان بسبب أكل اللحوم، وإنه أكبر نقمة أصابت البشر. "مشكلة الإنسان أنه عالق في المنتصف بين الغوريلا والملاك، فلا هو يعود إلى أصله الحيواني كُليَّةً، ولا يسمو إلى الصورة التي رسمتها الأديان عن الإنسان المثالي ولا حتى لما تصوره نيتشه عن الإنسان الخارق". كنتُ، كعادتي، أعترض دائمًا وأقول إن هناك فرقًا بين إدراك الإنسان لورطته في الحياة والوعي. الوعي كما كنتُ أرى هو فرصة الإنسان للتحرر من الأسر. الوعي هو السمو فوق مشاكل الحياة وفوق الأفكار وليس الغوص فيها. كنتِ تبتسمين حين تسمعينني وأنا أتحدث بشغف عن هذا الموضوع، وتقولين "كريشنامورتي أفسدك. هذا الرجل الذي يتحدث عن الأفكار مثل رجل آلي هو إنسان خارق بلا شك، لكن دماغه المركَّب الذي يرى كل شيء بوضوح ويضع كل شيء في موضعه الطبيعي هو العيب الخلقي الحقيقي. ما يقوله الغورو المتوحد يصعب تحقيقه على أرض الواقع، لأن الغوريلا التي بداخلنا تنتصر دائما في النهاية على الملاك".

اليوم روَت لنا إحدى العاملات قصتها في حلقة الاعتراف. كانت عاهرة قبل أن تأتي إلى المصنع. ذكرتني قصتها بنقاشاتنا الحادة حول تلك المهنة. بقيتُ ولسنواتٍ أتساءل عن سر افتتاني بمهنة ترفضها بوصلتي الأخلاقية. ربما لأنني أيضًا، وعلى الرغم مما تعلمته وعلَّمته، وبرغم كل الثورات والجنون انتهى بي المطاف في فترينة باردة مُعدَّة لي مسبقًا. ربما لأنني بعد أن شرحتُ للطلبة أفكار سارتر الثورية في الجامعة، اضطررت لترك التدريس والانتقال إلى هنا؛ لإدارة مصنع أبي بعد أن مات فجأة، وتحتم عليَّ أن أتخلى عن كل المعايير الأخلاقية التي كنت أتشدق بها. بعتُ نفسي للدولة ثم للأسرة ثم لبقايا ذنوب أبي خوفًا على سمعة العائلة التي لا يطيق فيها أحدٌ رؤية الآخر. وحالي هنا هو حال الجميع في هذا العالم الذي كلما ازداد تقدمًا وتطورًا، ازداد تشظيًّا وصار يحبس الناس في كبائن صغيرة تسحق الروح.

المعذرة، استخدمت الكلمة التي لا تحبينها. "ماذا تقصد بالروح؟" كنتِ تهزئين بي كلما نطقت بهذه الكلمة، ولطالما قمتِ بتحذيري من الوقوع في المرض الألماني الذي يحوّل الفلسفة إلى أفكار دينية. فكرة الضرورة الإلزامية عند كانط، فكرة روح العالم عند هيجيل، والعود الأبدي عند نيتشه، كانت مجرد رواسب من اللاهوت المسيحي والحركة الرومانسية التي قاومت التنوير، هذا ما كنت تقولينه لي. لذلك قررتِ أن تكون رسالة الدكتوراة الخاصة بك عن تفكيك الفكر الديني عند هيدجر الذي قال ذات مرة إن فلسفته كلها ليست إلا مجرد انتظار حتى يتجلّى الله في حياته.

أما أنا فكتبتُ عن "كيركيجارد" الذي كان يحاول انتزاع الإله من براثن رجال الدين. كنت أقول لك "كوني رحيمة مع كيركيجارد وهيدجر، فكلاهما كان يقاوم نزع السحر عن العالم و"تشييء" الروح بالعقلانية. اليوم صرتُ أنا سارتريًّا لا أؤمن بوجود الروح، وصرتِ أنتِ تضخّين روحك في كل شيء حولي".

***

١٣

شيء ما تغير داخل كل العمال بعد اعتراف سو يوون وأصبح الهواء داخل الصالة ثقيلًا كالصمت الذي خيم على المكان عقب انتهائها من سرد حكايتها. أصابت هاناكو رجفة قوية لم تكن تتوقعها، خاصة وأن سو يوون فتاة صامتة لا يشي مظهرها الهادئ وانطواؤها بشيء عن رحلتها المؤلمة. ما إن فرغت سو يوون من سرد قصتها، حتى نهضت هاناكو من كرسيها بتلقائية، وتوجهت إلى كرسي سو يوون، وقدمت لها حبتَي الشوكولاتة المتبقية معها، قائلة "أتمنى أن يخفف عنك مذاق الشوكولاتة كما يخفف عني"، وانصرفت بعدها مباشرة. لم تفهم هاناكو لماذا أثرت فيها قصة سو يوون إلى هذا الحد، فهي لا يربطها بعالم الدعارة شيء ولا حتى من بعيد. ولكن، ربما في مكان ما في داخلها، أدركت أنها أيضًا كانت داعرة بطريقة لم تخترها تمامًا كما لم تختر سو يوون طريقها. ربما جمعهما الصمت في مواجهة الانتهاك. ولكنَّ الفرق بينها وبين سو يوون أنها كانت دائما تعطي ظهرها للشخص الذي يفرغ شهوته على جسدها المغطى بثوب الراهبات، بينما تواجه سو يوون زبائنها عارية وتضاجعهم وجها لوجه وتقبض ثمن خدماتها نقدًا. إتشيرو أيضا شعر بانقباض قوي عند رأس معدته وبرغبة في التّقيُّؤ. نظرت إليه ناومي وأومأت برأسها وكأنها تقول له إنها فهمت أيضًا. فهمت كما فهم الباقون أن جميعهم كانوا محكومين بالصمت وأن الصمت لعنة تستحوذ على الإنسان وتمسخه، تسلب إرادته وقدرته على الدفاع عن نفسه ثم تمتد كالعفن لتنال من صورته عن نفسه وعن حقه في الحياة.

انتبه كوباياشي أنه لم يكتب في دفتره عن سو يوون وعملها في الدعارة، وبدأ يحوم حولها آملًا في الحصول على معلومات حول ذلك العالم الشاسع والغامض. تخيله مثل مملكةٍ للنمل، تعمل بانتظام تحت الأرض وتحكمها "هيراركية" دقيقة. وتوقع أنه بحديثه مع سو يوون، سيتمكن من إزالة الطبقة القشرية التي تغطي

مملكة النمل، ويمكنه بعد ذلك، مراقبة ما يحدث فيها من الأعلى، تماما كما تفعل الآلهة مع البشر. حين كانت سو يوون تسرد قصتها، رأى فيها فيلمًا مصورًا يُعرض أمامه، لكنه شعر بأن الرواية ناقصة، وهناك مقاطع تم حذفها. فهو لم يكن مهتما بما حدث لها، بقدر ما كان يفكر في الأسباب التي كانت وراء تلك الأحداث. وعندما حل موعد الغداء، تناول صينيته ووقف بانتظارها، وما إن رآها تتجه إلى إحدى الطاولات، حتى تبعها على الفور.

- أتمانعين؟ قال وعود نكش الأسنان يطل من بين شفتيه.
- ستأكل وأنت محتفظٌ بالعود بين أسنانك؟ أجابت وهي تشير إلى المقعد المقابل داعية إياه للجلوس.

ابتسم كوباياشي وأخذ العود ودسه في جيب الأوفرول، وبدأ يأكل وهو يختلس النظر إليها بين الفينة والأخرى.

- هل خطر لك يومًا أن بائعات الهوى ومؤلفي الروايات يبيعون وهم الحب لزبائنهم؟
- لا أعرف شيئًا عن الروائيين، ولكن ليس كل من يأتي للعاهرة يأتي بحثًا عن الحب. معظمهم يبحثون عن اللذة في جسد امرأة، لتفريغ شهواتهم فيه، لا أكثر، مثلما يفعل الجائع الذي يشتهي وجبة من الدجاج المقلي، فيذهب إلى المطعم ويشتريها ليأكلها. قالت بتجرد يخلو من الخجل والحسرة، ما أيقظ في كوباياشي رغبة عارمة في الولوج إلى أعماقها ومعرفة المزيد.

- هل كنتِ تشعرين بالاشمئزاز من زبائنكِ؟ سألها دون مقدمات.
- لا. كنت أعتبر نفسي أُمًّا تنظف خراء أطفالها، أو ممرضة تغسل أجساد مرضاها. وأنت ألا يزعجك أن يناديك معظم العمال بالـ "زومبي"؟ سألته وهي تنظر مباشرة في عينيه.
- لا. هذا وصف وليس تنابزًا بالألقاب، أنا أفتقر إلى المشاعر وهذا الأمر حقيقة. قال ببرود.
- غريب هذا المكان! هناك أناس يريدون الموت من فرط الشعور بالألم والخوف والحسرة، وهناك أنت الذي يريد الموت بسبب غياب المشاعر! قالت وكأنها تكلم نفسها.
- ما هو أصعب موقف تعرضتِ له في عملك؟ سألها وكأنه لم يسمع ما قالته. رأى من حركة حدقة عينيها أنها تحاول التذكر فانتظر صامتًا. وبعد حوالي دقيقة قالت:
- ذات مرة جاءني زبون وكان مضطربًا. طلب مني أن أنزع ثيابي بسرعة ثم عانقني طويلًا، وأثناء المضاجعة توقف فجأة وبدأ يبكي ويقول إنه قتل والده قبل أن يأتيني مباشرة. لم أستطع أن أحدد

إذا كان قد فعل ذلك حقًّا، أم أنه كان مخمورًا، لكنني شعرت من طاقته المتفجرة وغليان الدم في عروقه أنه ربما يكون صادقًا.

- هل شعرتِ بالخوف منه؟ قال الزومبي وكان من شدة اهتمامه بالخبر قد أَنزل عودي الطعام من يده وأسند كوعيه إلى الطاولة مصغيًا بإمعان.
- شعرتُ بالخوف من أبيه. الأب الذي قد يصل به الحال أن يجعل ابنه راغبًا في قتله لا بد أن يكون أبًا مرعبًا.

ارتبك كوباياشي لأنه لم يكن يتوقع هذا التحول في الحديث. أراد أن يكمل استجوابه، لكن الأسئلة التي كان ينوي طرحها لم تعد حاضرة في ذهنه، فاستأذنها ليغادر الطاولة وأكملت هي تناول وجبتها.

***

نجح كوباياشي في تجنب "الإله" منذ وصوله قبل عدة أيام. فكان كلما رآه تظاهرَ بانشغاله بشيء ما كي يتجنب أي مواجهة تُمكِّن الإله من التعرف عليه. في صالة الطعام، كان كوباياشي يجلس على طرف الصالة موليًا وجهه للجدار، وحين دخل الإله إلى غرفة الغسيل أدخل كوباياشي رأسه في النشافة متظاهرًا بالبحث عن فردة جراب مفقودة.

كل شيء كان يسير على ما يرام إلى أن اقترب الإله من كوباياشي في عنبر العمل وصاح عاليًا "لقد وجدتُ صديقًا قديمًا". انكمش كوباياشي الجالس بمحاذاة الجدار يعد الكرات، وتظاهر بأنه لا يعرفه. لكن الإله ظل يصيح ويرقص بجانبه وسط ذهول العمال، وحين وقف كوباياشي ليغادر المكان، وضع الإله ذراعه حول كتفي كوباياشي ومدَّ ذراعه الأخرى وراح يتحدث عن عظمة كوباياشي:

"صديقي هذا عبقري! أخبرهم يا كوباياشي عن الرواية التي كتبتها عن المصحة النفسية! يا رجل، لم يعرف أحدٌ منَّا أنك كنت تمثل!" عاد وحضن كوباياشي بكلتا ذراعيه، وبدا وجه كوباياشي شاحبًا وهو يحاول التملص من ذراعي "الإله"، وكأنه فأر علق في المصيدة، وهو في الطريق إلى قطعة الجبن. ربت الإله على كتفه بقوة "قل شيئًا يا رجل! لقد قلقنا عليك عندما شاهدنا التقرير على التلفزيون وبعد أن رفعَتْ عليك إدارة المستشفى قضية في المحكمة. هل سجنوك؟" كان جميع العمال قد توقفوا عن العمل لسماع ما يقوله

الإله. لم يكن الصياح جديدًا على الإله، إنما كان لكلامه اليوم وقعٌ آخر. تهامس العمال فيما بينهم "لا بد أنه مجنون". قال أحدهم "لا، مستحيل، أشعر أن هناك شيئًا من الحقيقة في كلامه" رد عليه آخر.

ارتعشت ذراع المدير وهو يتابع هذه المسرحية من مكتبه، وتساقطت من جبينه قطرات من العرق البارد. فهذا ما يحدث له عادة حين يُدرك أنه خُدِع، وحين يفوته ما يجري تحت سقف مصنعه. ثم إن كوباياشي أخبر الجميع بقصته واعترف بكل شيء، فلماذا أخفى هذه المعلومة الخطيرة؟ وقبل أن يأخذ حبة مهدئ ويفتح محرك البحث ليقرأ عن كوباياشي ويستقصي الحقائق كاملة، ضغط على زر على يمينه، وما هي إلا ثوان حتى دخل المساعد.

"توجه فورا إلى خزانة كوباياشي وأحضر كل ما تجده من مقتنيات. فتش سريره أيضًا وقلِّب فراشه وأفرغ وسادته من كيسها" قال للمساعد الذي انصرف على الفور لينفذ الأوامر.

بدأت عينا المدير بالاتساع وهو ينظر إلى الشاشة حيث توالت أمامه المقالات ومقاطع الفيديو التي تتناول قضية كوباياشي. عرف أن كوباياشي جاسوس محترف يتسرب مثل الرطوبة إلى أماكن ممنوعة ليصطاد رواية يعوِّض بها نقص الحياة في شراييه. ضرب بقبضته على الطاولة وصرخ في فراغ مكتبه، "الوغد". طرق الموظف على الباب ودخل يحمل بيمينه دفترًا وبيساره كيسًا يحتوي على مقتنيات كوباياشي "لا شيء في الكيس سوى الأشياء التي أعطيناه إيّاها، ولكن هذا الدفتر قد يكون مهمًا" وضع المساعد الدفتر أمام المدير ووقف منتصبًا عاقدًا يديه وراء ظهره.

هدأ المدير قليلًا من تأثير حبة المهدئ، وبدأ بتقليب صفحات الدفتر. أطلق ضحكة متوترة قصيرة. "أيظن هذا الوغد أن الدخول إلى هنا يشبه دخوله إلى أي مكان آخر؟!! سيكون موته غدًا أجمل رواية يتابعها عمال المصنع" قال وهو يرمي الدفتر فتزحلق على الطاولة وسقط على الأرض.

كان المساعد لا يزال واقفًا أمامه كالصنم. "أعطني الدفتر واخرج" أمره المدير.

عرف كوباياشي حين عاد إلى سريره أن أمره قد انكشف. وبدأ يفكر فيما يمكن أن يفعله المدير، وما هو نوع العقاب الذي قد يناله، وما هي الحيلة التي قد تخرجه من هذه الورطة. حاول أن يفهم مشاعره، وإذا به

يلاحظ أن الرغبة الوحيدة التي تسيطر عليه الآن، هي إنهاء الرواية ونشرها. فهو لم يأتِ إلى هنا ليموت، ولكن إذا كان موته ضريبة كتابة الرواية، فلن يذهب قتله هباءً على الأقل. تقلَّب طوال الليل وانتظر أن يتم استدعاؤه إلى مكتب المدير، لكن هذا لم يحدث، وتُرِك كوباياشي لأفكاره تجلده، وللسيناريوهات التي تتصارع داخل رأسه.

في اليوم التالي وأثناء اجتماع المساء، جلس المدير وراء مكتبه، وبعد أن حيَّا الجميع، وضع يده داخل الإناء الزجاجي وخلط الأوراق ثم سحب واحدة. "السيد كوباياشي..." قرأ ثم صمت لبرهة، وفيما كان كوباياشي يتساءل عن هذه الصدفة شبه المستحيلة، قال المدير "حان وقت موتك". ارتفعت الأصوات في الصالة، معترضة؛ ليس لأن كوباياشي يعنيهم، بل لأنهم شعروا أن المدير يعبث بقوانين المصنع. "كيف يُفضح أمر كوباياشي البارحة ويأتي دوره اليوم في القرعة؟!" قال أحدهم وكأنه مراهقٌ اكتشف للتو ثغرة في إيمانه بربه.

"ما الفرق؟!" سألت ناومي التي تجلس إلى يمينه وأضافت "كلنا سنموت على أية حال وقريبًا. نحن البشر لا نلبث أن نرفع أيَّ قانون مهما كان عشوائيًّا ومجنونًا إلى مرتبة التقديس!".

"ولكن القانون هو القانون" قال العامل مُصرًّا على رأيه.

"لا بد أنك كنت تثق كثيرًا بهذا المدير المضطرب حتى أُصبت بخيبة أمل عندما عبث بالأدوار؟!" قالت ناومي كأنها تكلم نفسها.

في الساعات التي سبقت إعدامه، عاش كوباياشي أصعب لحظات حياته. أعاد تصفية حساباته مع أحداث الحياة التي عاشها والتي لم يعشها، الحياة التي كان يستجديها بالقراءة، ثم أصبح يستعطفها ويتوسل إليها بالكتابة. وبعد أن أعياه التعب، تسلل إلى سريره ونام قليلًا. جرت الأمور كالعادة، أمضى نهاره بالأوفرول الأحمر بين العمال وفي المساء تم اصطحابه إلى المكان المخصص لمراسم الغُسل والوداع. تجنب كوباياشي النظر في عيني المدير وهو يغرس إبرة الحقنة المهدئة استعدادًا لتعريته وغسله حيًّا على مرأى من زملائه.

بعد مراسم الغسل، خرج العمال من الغرفة وبدؤوا برش الملح على عتبة عنابرهم. جلس المدير بالكيمونو الأسود بمواجهة كوباياشي الذي غطي جسده بكيمونو أبيض، ثم أجلسه على كرسي الإعدام.

- "أنا لست خائفا منك" قال كوباياشي للمدير من دون مقدمات.

- كيف ظننت أنه بإمكانك أن تأتي إلى هنا وتخرج بسلام لتنشر روايتك اللعينة؟ سأل المدير بشيء من نفاد الصبر.
- كنتُ أظن أن المشروع كله مجرد تجربة اجتماعية لإثناء العمال عن الانتحار. حين دخلتُ إلى المصنع، تأكد لي هذا الظن بسبب غياب الشمس والملح والطعام اللذيذ والهواء المنعش ولون السماء وتحريم الجنس، وظننت أن كل هذا، مجرد حيلة ليفتقد العمال هذه الأشياء، ويحلموا بالعودة إلى الحياة الطبيعية من جديد. قال كوباياشي بوضوح وكأن المهدئ لم يؤثر على نطقه كما يفعل مع الآخرين.
- Surprise! صاح المدير. "الأمر برمته حقيقي والآن سترى بنفسك!".

حدق كوباياشي في قطرة السائل وهي تخرج من رأس الحقنة التي تُوقف عمل الأعضاء، فشعر بما يشبه صعقة الكهرباء في رأسه. بدأت أنفاسه تتسارع، ونبضات قلبه تزداد.

"قبل أن تموت سوف ترى شريطًا مسجلًا"، قال المدير وقد تغيَّر صوته وأصبح جديًّا خاليًا من مظاهر الغضب والانفعال.

- أود أن أحكي لك قصة أخيرة! أرجوك! الآن تذكرت. الآن فقط! قال كوباياشي بشيءٍ من الذعر.
- نوبات الذعر هذه طبيعية قبل الموت ولهذا أعطيتك مهدئًا. ربما غضبي منك جعلني أقلل الجرعة لا شعوريًّا حتى أنعم برؤيتك تتعذب.
- حسنا أنا أتعذب، ولكن دعني أخبرك بالقصة. قال كوباياشي بانكسار لم يعرفه في حياته ولم يسمعه أحد في صوته من قبل.

شعر المدير أن هناك شيئًا يستحق الإصغاء له، فوضع الحقنة على الطاولة ثم شبك ذراعيه وقال "تفضل".

بدأ كوباياشي بسرد قصته مع والده وكأن ماضيه استيقظ فيه دفعة واحدة، وكأن دواخله أصبحت مستعمرة نمل تعج بالحركة، ومنظر الحقنة التي ستطوي صفحة حياته هو ما أزاح القشرة التي حجبت الرؤية عما يحدث في داخله. أخبره عن المرة الأولى التي رأى فيها والده يغتصب أخاه في مرآب المنزل وجسده الصغير محنيٌّ فوق دراجته. ربما كان هو في السادسة وأخوه في الخامسة. أقنع كوباياشي نفسه لسنوات أن ما رآه كان مجرد خيال أو حلم، فقال مرة إن الضوء كان خافتًا ومرة أخرى قال إن جاكيت والده المعلق فوق مسمارٍ على جدار المرآب هو ما جعله يتوهم الأمر. وبعد أن طارده المشهد في يقظته بين المنزل والمدرسة،

بدأت الكوابيس تنقضُّ عليه في الليل. المكان لا يتغير، يحلم دائمًا بأنه في المرآب والدرَّاجة أيضًا لا تغيب عن الكابوس، ولكن فوق تلك الدرَّاجة كانت الأجساد تتغير، فأحيانًا كان يرى شقيقه ينظر إلى عينيه ويبكي واللعاب والمخاط يسيلان من فمه وأنفه، يمد يده نحو كوباياشي المختبئ أسفل السيارة. في أحيان أخرى كان يحلم أنه هو صاحب الجسد المنحني فوق الدراجة وأخوه يختبئ تحت السيارة. وبعد فترة قصيرة من إصابته بحمى شديدة، تركته طريح الفراش لأيام، أصبح متأكدًا في قرارة نفسه، أن الذي أُغتُصِبَ فوق الدراجة لم يكن أخاه، بل هو، كوباياشي. بعد مرور سنوات لم يعد متأكدًا من أي شيء: هل اغتصب الأب أخاه أم اغتصبه هو؟ ومن هو صاحب الذنب الأكبر؟ من كان يتفرج من تحت السيارة أم الذي قام بعملية الاغتصاب؟ وهل تخيُّل أنَّ أباه اغتصبه هو، كان تعاطفًا مع أخيه، ليفتدي أخاه فيكون هو الضحية؟ أم أنه هو من تعرَّض للاغتصاب، فتخيَّل أن شخصًا آخر هو المغتصَب بينما كان هو مجرد شاهد؟ على كل حال كان تعطيل الحواس والمشاعر هو الحل الذي ابتكره وجدان كوباياشي للتعامل مع هذه المعضلة. قرأ ذات مرة، في كتاب عن اضطرابات ما بعد الصدمة "مِن السهل علينا أن نتذكر ثاني أكثر المواقف رعبًا في حياتنا بتفاصيل واضحة، أما الموقف الأكثر رعبًا فيبقى قابعًا في مركز الذاكرة، ولا يخضع لها. الصدمة الأقوى في حياتنا هي التي تدير الذاكرة وليس العكس".

أصابت المدير حالة من الذهول وهو يصغي إلى كوباياشي الذي انتبه لعلامات الدهشة التي علت وجهه، فشعر بشيء من الرضا والراحة.

- جئتُ إلى المصنع لأكتب رواية عن الموت ومن يشتهونه، لكني اكتشفت أن المصنع ومديره هما المادة الأفضل للرواية! اكتشفت أن العالم يحتاج أن يعرف القصة الحقيقية لهذا المصنع لأنها فريدة وملهمة. قال كوباياشي بكثيرٍ من الصدق والشفافية.

لكن المدير بقي صامتا.

- "مصنع الانتحار هو قلب هذا العالم النابض ومرآته الصادقة" أكمل كوباياشي "لقد فهمتُ بعد أن أتيت إلى هنا، لماذا لم تعجبني معظم الأعمال الفنية والروايات والقصائد رغم جودتها الفنية العالية وحبكتها ولغتها الفريدة. اكتشفت أن جميع تلك الأعمال كانت تفتقر إلى الجوهر أو السّر، حلقة الوصل بين الحلم والذاكرة والفن. العمل الفني العظيم، هو العمل الذي تنسجم فيه تناقضات العالم: الحب والدمار، الميلاد والقتل، الخير والعذاب، الجمال والشر. أنت ومصنعك عملان فنيان فريدان.

أرجوك دعني أكتب هذه الرواية، ولتكن تحيةً لك ولفلسفتك وجهودك، وأعِدُك أني لن أنشرها إلا بعد موتك! قال كوباياشي متوسلًا.

التوقيت هو الذي يجعل أي شيء مستحيلًا أو ممكنًا. ربما لو ظهر كوباياشي قبل شهر لرفض المدير طلبه وأعدمه على الفور. ولكن الشهر الأخير كان شهر مراجعة الحسابات، وسحب الدفاتر العتيقة من أدراج الذاكرة. الأفكار والمشاعر التي اقتحمت المدير في الشهر الأخير، جعلت صورته عن نفسه تهتز كما لم يحدث من قبل، وأصبح على غير عادته، غاية في الهشاشة. وها هو الآن يجد نفسه أمام شخص يرى فيه قياديًّا عظيمًا، يود تخليد تجربته في رواية. قلّب المدير صفحات الدفتر، قرأ بعض المقاطع بصمت، واكتشف عندها، كما يعرف أيّ إنسان قارئ مثله، أن كوباياشي يمتلك مهارة رفيعة في الكتابة. وبما أن كوباياشي باق هو ودفاتره تحت نظره، فسيتمكن من مراقبة كل كلمة تُكتب عنه أو عن سواه. بعد أن هز رأسه، قال "موافق" وأغلق الدفتر وأعطاه لكوباياشي وأضاف "حسنًا، أظن أن الأيام القادمة ستحمل مفاجآت روائية صادمة، فلتحسن توظيفها!" قال تلك الجملة وهو يضغط على جهاز معلق على خاصرته، ليأتي المساعد ويأخذ كوباياشي إلى عنبره.

***

١٤

ليس هناك أسوأ من الوقوع في الحب حين لا تكون حياتك ملكًا لك، هذا ما كانت تفكر فيه ناومي وهي تبحث بلهفة عن إتشيرو في كل مكان. شعرت أن الخطر يقترب من أحدهما عندما فهمت أن اختيار كوباياشي للإعدام تم على خلفية خداعه للمدير. واشتد شعورها بالخطر، عندما رأت كوباياشي في اليوم التالي في عنبر العمل بعد أن حضرت مراسم تطهيره وإعداده للإعدام والحرق في الليلة السابقة. ناومي تعلم جيدًا أنها وإتشيرو قد خالفا تعليمات المدير أيضًا ولا يمكنها الآن إلا أن تتوقع الأسوأ.

بحثت عنه في عنابر العمل، ثم عنبر النوم، ولم تجده، فذهبت إلى غرفة الغسيل، مرورًا بصالة الطعام الفارغة. كانت هاناكو تزيل قطع قطن صغيرة التصقت على فلتر مجفف الملابس. "هل رأيت إتشيرو؟" سألتها ناومي وكأنها تحقق معها.

- ماذا عن مرحبا، أو كيف حالك هاناكو أولًا؟ قالت هاناكو مداعبة.
- ليس الآن، عليَّ رؤيته حالًا!
- لماذا عليكِ أن تعملي كل ليلة يا ناومي؟ سألت هاناكو معاتبة، وأضافت "هناك ما أود إخبارك به".
- أعدك أننا سنتحدث لاحقًا ولكن الآن يجب أن أجد إتشيرو. قالت ناومي محاولة التخلص منها.

"رأيته يدخل إلى ردهة المراحيض منذ حوالي ربع ساعة. لست متأكدة إن كان لا يزال هناك" أجابتها هاناكو وهي تغلق الفلتر وتعيده إلى مجفف الملابس. لم تكن هاناكو متأكدة ما إذا كان عليها إخبار ناومي بما رأته في مكتب المدير، لكنها وبعد أن قرأت مسودات الرسائل التي وجدتها فوق مكتبه، شعرت بشيء من الشفقة يخالطه شعور مبهم بالخوف على المدير. صحيح أن معرفتها بالعالم محدودة، لكن الهلوسات والكلام غير المترابط الذي قرأته في تلك المسودات، جعلها تستنتج أن المدير ليس بخير. لم يغِب عن ذهنها أن ناومي تكره المدير وسوف تقول "فليذهب ذلك العجوز إلى الجحيم" إذا ما صارحتها هاناكو بقلقها عليه. لكن حاجتها لمشاركة مخاوفها مع أحد تثق به، كانت أقوى من كل اعتبار.

أكملت ناومي مسيرها في ردهة المراحيض وهي تدفع بالأبواب بإصبعها واحدًا تِلو الآخر، ولما شعرت بالتوتر، وتمكّن منها الإحباط، نادت بأعلى صوتها على إتشيرو، فسمعت صوت طرقة على أحد الأبواب، كأنه يرشدها إلى مكانه.

- ماذا تفعل هنا يا إتشيرو؟
- أختبئ. قال من خلف الباب.

أغمضت ناومي عينيها وكأنها تتجنب ألمًا ما. كيف لم يخطر ببالها أن الخوف يعيد إتشيرو إلى المراحيض وأن حبهما، الذي نبت مثل زهرة نادرة فوق قبرٍ وحيد، سيوقظ فيه كل المخاوف الممكنة.

سندت ظهرها إلى الباب وشبكت ذراعيها.

- "لن أستسلم" قالت باقتضاب.
- لا أعرف إن كنا نستحق الرحمة يا ناومي.

استدارت ناومي وركلت الباب:

- "هششش. لا تقل هذا!"
- أعني... لقد أتينا إلى هنا بكامل إرادتنا وقوانا العقلية. قال وكأنه يعاتب نفسه.
- أتينا بسبب حالة انفعال، والحياة أكبر بكثير من أن نحكم عليها من خلال لحظة انفعال مهما كانت مبررة! لم نصدِّق أنه بإمكاننا أن نشفى ونحب ونثق في الحياة مرة أخرى. وها هي الحياة ترينا من جديد، أن كل شيء ممكنٌ بعد أن حَكَمنا على أنفسنا أن نسلك طريق اللاعودة. سنتكلم مع المدير. لن أستسلم! أصرَّت ناومي وكأنها تقاوم المنطق في كلامه.
- لا أدري يا ناومي... هناك فكرة تدور في رأسي وأريد أن نتشاركها، ولكني لا أريد أن أغضبك. قال بتردد.
- أعدك أني لن أغضب. قالت ناومي وقد طغى القلق على ملامحها.
- ألا تظنين أن قصة الحب التي نحاول أن نقنع أنفسنا بها ليست سوى محاولة هروب جديدة، ليست سوى مخبأ آخر من العالم، كقدومنا إلى هذا المصنع، وكاختبائي في هذا المرحاض. قال من خلف الباب الذي ما زال مغلقا.
- ربما كان الأمر كذلك في البداية. ولكني أدركت فيما بعد أن هذه العاطفة، مهما كان اسمها، قد حركت بداخلنا شيئًا لم نكن نعرف بوجوده من قبل، شيئًا جوهريًّا وحقيقيًّا. ربما لم يكن هذا المصنع هو المكان الأفضل لنشأة قصة رومانسية، لكن مَن قال إن قصص الحب يجب ألا تبدأ إلا عند ضفاف الأنهار أو أمام مناظر الغروب الخلابة؟! هل ننكرُ على الخائفين والمكلومين حقهم في أن يحبوا ويتعافوا بالحب؟ سألتْه بهدوءٍ تام فيما تضع راحتيها على باب المرحاض كأنها تحاول أن تلمس إتشيرو.
- أظنني خائفًا من خسارة جديدة. لم يعد بقلبي مكانٌ لحزن جديد، قال إيتشيرو بصوت مخنوق.

صمتا بعدها عدة دقائق، جلست ناومي أثناءها على الأرض ملقيةً بظهرها على إطار باب المرحاض، وضمت ركبتيها إلى صدرها.

- لا تلومنَّ نفسك على هذا الخوف. فهو شعور طبيعي بعد كل ما مررتَ به وبعد كل ما شهدنا عليه في هذا المصنع. لكن، أرجوك، لا تسمح للخوف أن يكون مرشدك في لحظة مصيرية كهذه. قالت ناومي بثقة.
- ماذا تقصدين؟ سألها.

- هل تثق بي يا إيتشيرو؟

فتح الباب من على يمين ناومي، فوقفت ودفعته بيدها، عانقها إتشيرو وامتلأت عيناه بالدموع.

- هل يعني هذا العناق أنك تثق بي؟
- بالطبع أثق بك. قال إتشيرو وهو يجفف بكُم قميصه دمعتين تدحرجتا على وجنتيه.

جلست ناومي على الأرض مجددًا وجلس إتشيرو إلى جانبها. كانت مروحة السقف تعكس ظلها على الأرض وتشكل خطوطًا متلاحقة. نظرت ناومي مطولًا إلى تلك الظلال وسألت:

- هل ندمت يا إتشيرو على المجيء إلى هنا؟
- لا أعلم ما إذا كنت سأخرج من هنا حيًّا، ولكن هذه التجربة علمتني الكثير عن نفسي وعن الآخرين".

قال إتشيرو وقد بدأ قلقه يتبدد بسبب وجود ناومي إلى جانبه، ثم استطرد "ما الذي حدث يا ناومي؟ أنا وأنت ما زلنا نفس الشخصين اللذين جاءا إلى هنا من أجل الموت، فما الذي تغيَّر؟".

- أظن أننا كنا نرفض أن نعيش حياة لا يحبنا فيها أحد. الرفض كان لغياب الاحتواء والحب وليس رفضًا للحياة نفسها، قالت ناومي ثم انتفضت واقفة كأنها تذكرت أن عليها القيام بشيء ما، وأضافت: "تعال الليلة إلى مكاننا المعتاد بعد منتصف الليل، واجلب معك كل ما يعنيك من غرفتك" قالت ناومي راجية.
- أنتِ كل ما يعنيني في هذا المصنع.

انحنت وطبعت قبلة على قبة رأسه وعادت إلى عنبر العمل.

***

عند منتصف الليل وجدت إتشيرو ينتظرها عند المسرح كما اتفقا. "تذكر أنك تثق بي!" قالت له محذرةً وكأنها تخبره أن شيئًا كبيرًا على وشك أن يحدث. لكن إتشيرو الذي كان يفهم حجم الورطة التي أوقعا نفسيهما فيها، لم يكن مهتمًّا الآن إلا بالاحتماء بناومي، واستسلم لفكرة أنه لا يستطيع أن يقف وحده في هذه الحياة منذ أن استبدل بغياب أمه الطعامَ وبالمواجهة الاختباءَ في المراحيض، واستعاض عن حزنه

على زوجته وابنتيه بمخطط الانتحار. لم يقل لها إن روحه الشريدة اختارتها هي، لتكون مغارته الجديدة، لم يخبرها بأنه سيلتحف جنونها وينام في عراء الحياة بسرور، وسوف يكتفي بما تمنُّ عليه من الحب أو المزاجية أو أي شعور آخر.

اهتدت ناومي بالنور الباهت لمصباح الجيب، وتبعها إتشيرو في الظلام. خلف الستار الأسود الذي يتدلى من خلفية المسرح، بابٌ يقود إلى محرقة الجثث. عرفا ذلك من الفرن الكبير الذي يتوسط الغرفة والمخصص لحرق جثث المنتحرين على درجات حرارة عالية. لاحظت ناومي غياب النوافذ الزجاجية التي عادة ما تكون في المحارق العادية من أجل المشاهدين من أفراد العائلة والأصدقاء. ولكن لا يأتي إلى هذا المكان إلا من لم يتبق له أحد يقف وراء زجاج جثمانه المحترق. مرَّا بجانب الفرن، وعلى الجانب الآخر من الغرفة كانت هناك حاويات بعدة أشكال وأحجام من أجل تجميع الرماد ودفنه. لمعت تحت ضوء المصباح عِددٌ بلونٍ فضي ومجارف صغيرة، معلقة على الجدار ليتم جمع الرماد فيها ونقله إلى الحاويات. استشعرا طريقهما في الظلام بحذر شديد، الباب الخلفي لمحرقة الجثث يفضي إلى غرفة الدفن، وقفا هناك ينظران إلى الأدراج التي تبدأ عند مستوى الأرض وتنتهي عند السقف. شعر إتشيرو بالضيق حين تعرَّف على المكان وتخيَّل آلاف الأشخاص المدفونين حوله. أشارت ناومي بضوء المصباح الذي بدأ يخفت، إلى ممرٍّ ضيقٍ سقفه منخفض جدًّا يشبه النفق. "لا بد أن هذا الممر يقود إلى خارج المصنع" قالت ناومي بصوتٍ أقرب إلى الهمس، ثم انحنت وبدأت بالزحف داخل الممر، ولمَّا لاحظت أن إتشيرو لم يلحق بها، زحفت رجوعًا ووقفت. كان إتشيرو لا يزال واقفًا في الظلام وشيء من الرعب يسيطر عليه، وضعت المصباح تحت إبطها، وأمسكت بكتفيه وهزته: "أرجوك لا تجبُن الآن، أنا بحاجة إليك يا إتشيرو". أمسكت بيده وبدأت بالزحف مجددًا وهي تختلس النظر إلى الخلف لتتأكد من أن إتشيرو بخير، ويزحف وراءها في الممر المتعرج الذي جعل أنفاسهما تضيق، وكأن الهواء سُحب من المكان. كانت ناومي تتوقف كل بضع دقائق، تلتقط أنفاسها وتتخلص من الخدر الذي حلَّ بركبتيها ثم تواصل الزحف وهي تشعر كأنها تخطو أُولى خطواتها في الحياة. بين كل الأفكار التي دارت في رأس إتشيرو، تمسك بفكرة واحدة، أنه جنين عاد إلى رحم أمه ليقايض الحياة على فرصة ثانية تكون حياته فيها أقل ألمًا وخسرانًا. وبعد أكثر من نصف ساعة من الزحف داخل الممر المتعرج والأفكار المتضاربة، شعرت ناومي بالتفاؤل حين بدأ الممر بالاتساع؛ إنهما على وشك الخروج من المصنع.

عندما وجدا حائطاً من الورق المقوى، عرفا أنهما وصلا إلى نهاية النفق. قامت ناومي بالطرق عليه بيدها مرتين، فعلمت أنه ليس سميكًا. "أخيرا!" هتفت بشيء من الراحة. دسَّ إتشيرو جسده إلى جانبها وراحا يخدشان الحائط بأظافرهما حتى ظهر فيه ثقبٌ صغير، فحشر إتشيرو إصبعه في الثقب وبدأ بتوسيعه، سقطت قطراتٌ من العرق على جانبي جبينه ودخلت في عينيه فأصابتها بحرقة شديدة. بعد أن تشكلت دائرة في الحائط، حشر يده في الثقب وبدأ يمزق الورق بحماس، وناومي تساعده. لم يصدقا أعينهما عندما أزالا الحائط ليكتشفا أن الممر قادهما إلى غرفة غسل الموتى نفسها التي غادراها منذ نصف ساعة. وقفا يلهثان، ينعيان حظهما والعرق يتصبب من وجهيهما. بعد صمت اليأس الطويل، سلطت ناومي الضوء على زوايا السقف باحثةً عن كاميرا المراقبة في الغرفة، وبدأت تصرخ، وكأنها ترى المدير أمامها وتتحدث إليه:

"سيدي المدير، هل شعرت ببعض التسلية وأنت ترانا نزحف في الممر مثل فأرين في متاهة؟ ألهذا جئت بنا إلى هنا، كي تلعب دور الإله، فتحيي من تشاء وتميت من تشاء وتتسلى بمعاناة الناس؟ ألم تلاحظ أنك محبوسٌ مثلنا في المتاهة، ولا تجد مخرجًا مثلنا؟ أنت لست إلهًا، بل رجلٌ فقد السيطرة على حياته ووهب ما تبقى من عمره للعبث. اسمع أيها العجوز الأخرق، أنا حامل، وأريد أن أخرج مع طفلي وأبيه من هنا سالمين، ولا توجد قوة على ظهر الأرض يمكن أن تمنعنا!".

وقف إتشيرو مذهولًا من كلام ناومي غير مُصدق ما سمعه "هل هذا صحيح؟ أنت حامل؟" وبعد أن أومأت برأسها مؤكدةً جلس إتشيرو على خشبة المسرح وانخرط في بكاء شديد.

اقتربت ناومي منه لمواساته، فاحتضنها وقال لها إنه لا يبكي حزنًا بل فرحًا. "حين جئتُ إلى هنا كان لا يمكن أن أصدق أن فرصة ثانية تنتظرني في هذا المكان، وأن حياةً جديدة ستولد بسببي. لا تغضبي من المدير، فقد كان هو السبب في لقائنا".

أقفل المدير الشاشة ثم وضع يديه على رأسه. انتابته موجة عارمة من الغضب والكره لهذين الاثنين، خالطها شيء من الإعجاب والتقدير. استدار برأسه ونظر إلى صورة المرأة المعلقة خلفه على الجدار "لا بد أنك كنتِ ستستمتعين بهذا يا كاتارينا" ابتسم قبل أن تمتلئ عيناه بالدموع.

***

١٥

لا يعرف المدير كيف وصل إلى هنا. مشي حافيًا بين الأشجار قاصدًا قمة جبل "فوجي". عندما اجتاز البحيرة الكبيرة سمع نداءً قادمًا من غابة أوكيغاهارا. "نحن هنا لمساعدتك". وما إن دخل الغابة، حتى بدأت الطرقات تتعرج وتضيق، وتنحدر إلى الأسفل بشدة، ثم تنبسط من جديد ثم تنحدر مرة أخرى. أشجار البلوط كانت تتقارب ثم تتباعد. تساءل عما جاء به إلى هذا المكان وما الذي يبحث عنه في قمة الجبل! رغم خطواته التي تتجه به صعودًا، تملكه شعور بالسقوط. وللحظات، تخيل أنه ينزلق داخل زجاجة كلاين عملاقة.

اهتزت الأشجار حوله كأن زلزالًا قويًّا ضرب الغابة أو الزجاجة! راح يجري، وكلما مرَّ بشجرة سقطت خلفه. وصل لاهثًا إلى بحيرة جديدة وسط الغابة، وكان عليه أن يعبرها وصولًا إلى سفح الجبل ليبدأ بالتسلق. من وسط البحيرة برز صفٌّ مستقيمٌ من جذوع الأشجار المبتورة التي تعلو عن سطح الماء ببضعة سنتيمترات. بدأ بالقفز من جذع إلى جذع وهو يفكر في كاتارينا. كان كل جذع يغوص تحت قدمه إلى أن يغرق في البحيرة، ثم يعود ليطفو به على السطح ويقذفه إلى جذع آخر. فكر في الرعب الذي اختبرته كاتارينا قبل أن تأخذ قرارها الأخير. حين وصل إلى الجانب الآخر من البحيرة، عادت الأشجار المتساقطة تنتصب ثانية، وتشكل دائرة محكمة الإغلاق حوله، وأمام كل شجرة شاهِد قبر. اخترق خطَّاف كبير جذع كل شجرة، ومن كل خطاف تدلت ساعة جيب كبيرة، وتحت كل ساعة ألصقت ورقة مكتوب فيها "لو كنت تظن أنك غير قابل للإنقاذ، اتصل بنا. نحن هنا لمساعدتك" يليها أرقام هواتف كل فروع LifeTreats في المدن اليابانية. بدأ يشعر بالاختناق وهو يرى دائرة الأشجار والقبور تضيق وتقترب منه. وإذا بصوت كاتارينا يقرأ له آخر كلمات غولدموند لنرسيس في رواية هرمان هيسه "بِلا أمٍّ لا يستطيع المرء أن يحب. بِلا أمٍّ لا يستطيع المرء أن يموت".

استيقظ من الكابوس وشعر بحلقه الجاف يمنع صرخة مكتومة كاد أن يطلقها. مدَّ يديه أمامه ليتأكد إذا ما كانتا ترتعشان حقًّا أم أن الرعشة بداخله هي ما ينهك قواه. غادر بعدها سريره القابع بجوار الحائط، وذهب

ليغتسل ويرتدي ثيابه. وبدل أن يتجه إلى مكتبه، كما يفعل كل يوم، توجه إلى الغرفة المغلقة. وقف أمام بابها للحظات ثم وضع المفتاح في الثقب وأمسك المقبض بيده. رفع رأسه وأغمض عينيه لثوان، وبعد زفرة طويلة خرجت من صدره، أدار المقبض. دخل الغرفة، وأقفل الباب من الداخل وجال بنظره في جميع الزوايا وكأنه يبحث عن شيء. مشى بخطوات متثاقلة، باتجاه السرير المحاذي للجدار ووقف بمواجهة أمِّه!

لم يكن قد رآها لعشرين عامًا. حتى بعد أن سقطت في غيبوبة قبل خمس سنوات أرسل من يحضرها إلى المصنع ولم يستطع منذ ذلك الحين أن يزورها. تجاهل توسلات إخوته قبل سنوات أن يذهب إلى المستشفى لوداعها ولتوقيع إقرار فصل الأجهزة والعقاقير عنها، ورفض أن تموت أمّه. أرسل بدل ذلك طائرة طبية خاصة لتحضرها إلى الجزيرة ومعها ما تحتاج إليه من أجهزة وأدوية، وخصص لها طبيبًا وثلاث ممرضات يتناوبن على الاعتناء بها.

أبقاها على حالها آملًا أن تفتح عينيها يوما ليقول لها جملة واحدة: لقد ارتكبتِ خطأ فادحًا يا أمَّاه! كانت حياتها في نظره، عبارة عن سلسلة من الأخطاء، أخطأت حين تزوجت أباه، وأخطأت حين صمتت عن خياناته المتكررة لها، ثم أخطأت حين أنجبته. أما أكبر أخطائها في رأيه، فهو أنها أنجبته ليكون أول أبنائها ويرث هذا المصنع الملعون. حاول لسنوات أن يطمس ذكرياته المؤلمة معها، أن ينسى قسوتها والأيام التي خذلته فيها وهو طفل. ما زال يشعر بالذل كلما تذكر المرات التي أوقفته فيها أمام باب البيت، على مرأى من أطفال الحي، بسرواله المبلل الملتصق بجسده بسبب البول. "هذا سيعلمك أن تتبول في المرحاض". كانت تصرخ في وجهه قبل أن تعود إلى الداخل وتتركه فريسة لتنمر الأطفال. لم يستطع أن يفهم كيف لامرأة قاسية مثلها أن تتحول إلى جارية مستكينة في وجود والده؟! لم يسامحها قَط على انزوائها خلف الغيبوبة التي أفقدته القدرة على مواجهتها أو حتى وداعها قبل أن تموت.

قصص مرشحي الموت مع أمهاتهم ظلت تعيده إلى مأساته يومًا بعد يوم، فلم تكن تلك القصص إلا تكرارًا لقصته مع أمه مع اختلاف الأشخاص والأماكن. ومن ذلك اليوم الذي أحضرها فيه، بقي يرقد كل ليلة في السرير المجاور للحائط ويلتصق به، لأنه يعلم أن أمه ترقد على الجانب الآخر من الجدار نفسه. يناجيها في الليل، يلعنها ويعتذر إليها، يصفعها في مخيلته ويبكي كالأطفال.

وقف أمام سريرها وشعورٌ مخيفٌ بالضآلة يتملكه. حاول أن يتذكر موقفًا واحدًا جميلًا معها، لكن ذاكرته أضربت عن العمل. بالطبع كانت له معها ذكريات جميلة كثيرة، لكنها تبخرت وسط غليان المشاعر التي

انتابته بعد حلم الأمس. استدار ونظر إلى كل الأزرار التي تبقيها على قيد الحياة وابتسم بمرارة. وللمرة الأولى، شعر كم هو مكشوف أمام نفسه، للمرة الأولى، أدرك بهذا الوضوح أنه فرَّ من العالم كله، من البشر والشمس والبحر والريح، وفرض على نفسه عزلة قاسية في أبعد جزيرة في اليابان؛ لأنه لم يستطع الفرار من أمه. للمرة الأولى استوعب أنه قتل آلاف البشر حتى الآن لأنه لم يقوَ على قتلها. شعر بموجة صقيع تجتاح فروة رأسه وارتعشت أطرافه الأربعة. أراد نزع قناع الأوكسيجين عن وجهها ليحررها ويحرر نفسه، وحين اقترب منها وأصبح على بعد خطوتين من سريرها، شعر أن ركبتيه تخونانه، فتسمَّر في مكانه. نظر إلى الأنابيب، وتمنى لو أنه أتى بمقص وقطعها كلها دون أن يقترب من أمه أو ينحني لينزع القوابس. أسند ظهره إلى الحائط، أغمض عينيه وراح يمارس تمارين التنفس لتعديل نسبة الأكسجين في دماغه، ولما تنحى الخدر قليلًا، اتجه إلى غرفة الكهرباء وفصل التيار الرئيسي، ليحل الظلام الحالك في أرجاء المصنع كله. جلس على الأرض الباردة، سمع أصوات العمال تتعالى من عنابر العمل متسائلين عن سبب العطل.

تأمل جسدها العاري طويلًا قبل إجراء مراسم الدفن، الرحم التي اختبأ فيها تسعة أشهر من الأهوال التي كانت تنتظره، الثديين اللذين رضع منهما الحياة لعامين كاملين. اليد التي طبخت، والأخرى التي صفعت. الشفاه التي ابتسمت ولعنت وشتمت وصمتت. ثم أمعن النظر في قدميها اللتين عجزتا عن الهرب. حاول أن يبكي ليرتاح، ولما فشل، حاول أن يضحك ليصدق أنه تحرر، لكنه فشل أيضا. والآن، وبعد أن أصبحت أمه جثة باردة، استطاع أن يلمسها دون خوف. غسلها بيديه، زيّن وجهها بالمساحيق، ثم ألبسها الكيمونو الأبيض وأجلسها على كرسي الإعدام. جلس قبالتها، كأنه ينتظر منها أن تدلي له باعترافٍ أخير. قرَّب رأسه وسنده إلى رأسها عدة دقائق. رأى شريط حياتها كله نيابة عنها، ثم رأى شريط حياته هو. حياتان لم تتآلفا بل بقيتا مثل نبتتين هزيلتين تتصارعان على حياة وهمية في تربة عديمة الخصوبة. حملها إلى محرقة الجثث وأضرم فيها النار. قلَب زجاجة كلاين رأسا على عقب، أفرغ فيها رماد أمه، أغلق فوهتها بخرقة من القماش، ثم وضع الزجاجة في وعاء فيه بعض الزيت، غطاها حتى منتصفها. همس لنفسه "هاناكو كانت على حق. بين الطفو والارتكاز، لم تسقط أمي في عبورها الأخير".

خرج من المصنع لأول مرة منذ سنوات، تجلده الشمس بأشعتها حتى توهم أنه سيصاب بالعمى. تذكر قصة كهف أفلاطون، حيث يقف المحبوسون مقيدين بالسلاسل أمام حائط تتحرك عليه ظلال، وفقط من خلال حركة الظلال يمكنهم تخمين ما يحدث خلفهم، والتنبؤ بما سيحدث فيما بعد. ولكن ماذا سيحدث لو خرج

أحدهم إلى النور؟ بالتأكيد، سيلعنه قاطنو الكهف، لأنه خان الظلام المقدس، وستعميه الشمس بنورها الذي لا تقوى عليه عيناه.

لم يعرف أحدٌ من سكان القبة أنه تركها، ولم تسلبه الشمس نور عينيه. أمسك بالوعاء طويلًا وهو ينظر إلى البحر، تذكر جملة كاتارينا التي لم يستطع أن ينفذها حتى صباح هذا اليوم "أعتق أمك، لتعتق نفسك". "نَفذتُ وصيتك بعد أربعين سنة يا كاتارينا" قال وهو يترك الزجاجة لتطفو على سطح الماء. في اللحظة التي اختفت فيها الزجاجة في المحيط، شعر بأنه قد تخلص من عبء ثقيل أرهق كاهله لسبعين سنة أو يزيد. لم يعد طفلًا يتوقف وجوده على حنان أمه ورعايتها، ولم يعد يحتاج إلى الهروب منها أو إليها. صار وحيدًا مثلما ينبغي لإلهٍ أن يكون.

عزيزتي كاتارينا،

اليوم رأيت السماء لأول مرة منذ سنوات طويلة، ورأيت البحر، كان جائعًا، وتفوح منه رائحة الفناء. أطعمته وأسكنت فيه نصف العبء الذي أثقل كاهلي لأكثر من سبعين سنة، والنصف الآخر موعده الغد. غدًا سنتحرر جميعًا من هذه اللعنة. غدًا هو يوم الاختيار. بالأمس رأيت حلمًا مزعجًا. لا أتذكر متى كانت آخر مرة حلمت فيها، ولا متى تذكرت حلمي حين استيقظت في الصباح، لكن حلم البارحة لا يزال ينزف بداخلي.

بينما كنت أنتظر عودة أمي من غيبوبتها وعودتك أنتِ من عنادك، تضاءل كل شيء في غيابكما. تلاشى ولائي لكل ما آمنت به، وتضاعف خوفي من أن يكون كل ما سعيت لأجله، مجرد خدعة أقوم أنا بها دون أن أعترف بذلك، اكتفيت من الانتظار، وها قد جاءت ساعة الاختيار يا كاترينا. الاختيارُ بترٌ، واللا اختيار أكذوبة. معكِ حق، ليس هناك في العالم ما يسمى اللا اختيار، فهو بحد ذاته اختيار. اللا اختيار، هو مَلِكُ الخيارات. وأنا مَلِك البتر الذي لم يترك في نفسه شيئًا سليمًا.

أنتِ لست مرآتي يا كاتارينا، أنتِ مرآةٌ لما فعلتِه بي، وشاهدةٌ أمينةٌ على تجريفي. بقيت أقص كل يوم قطعة مني، وأقدمها قربانًا لك، حتى استيقظتُ ذات صباح، فلم أجد مني شيئا. لم يعد هناك ما أجرّفه. أنا قادمٌ إليك يا كاتارينا بعد أن صرتُ: لا شيء. استقبليني بصرخة أو بابتسامة أو بعلامة النصر، لا فرق. كنت

أتمنى أن أكون حيًّا حين ألتقيكِ، لكنَّ حياتي بكل نقائصها حالت دون لقائنا. كم كنتُ أتمنى أن أشهد لحظة نثر رماد جثتي في الهواء لأشعر بخفة روحي ولو لمرة واحدة. كم كنتُ أتمنى أن تكوني هنا. أن تخلطي رفاتي برفات أمي في زجاجة كلاين التي ضاقت بالفراغ المزدوج. كم كنت أتمنى أن أعانقك عناقًا حقيقيًّا ولو لمرة واحدة.

في آخر حوارٍ بيننا قلتُ لك "لم يتبقَّ من العمر الكثير يا كاتارينا، تعالَيْ نتكئ على بعضنا ونقضي ما تبقى من حياتنا معًا". ردَّدتِ عليَّ جزءًا من كلامي وأغفلتِ البقية. قلتِ "لم يتبقَّ من العمر الكثير" وشردتِ ثم صَمَتِّ. قلتِها كأنها تعويذة تلوذين بها من أي احتمال للنجاة. حين كررتِ كلامي أحسستُ كأنك أخذتِ رحيق وردتي وذهبتِ بعيدًا عني. سحبتِ مني ما يخصك ثم أدرتِ لي ظهرك ورحلتِ.

المقابر تتمدد تحت القبة والأرفف ضاقت برماد العابرين. لم أتوقف عن زيارة المقابر؛ لأنني لا أكف عن قتل المثقلين بالحياة ودفنهم. كم زرنا المقابر معا يا كاتارينا! فينيسيا، فيينا، وبيير لاشيز كانت مقابرنا المفضلة، إلى أن اكتشفنا مقابر المنتحرين في غابة جرونيفالد في برلين. مثل غابة أوكيغاهارا، تحوَّلت أيضًا غابة جرونيفالد إلى محجٍّ للمنتحرين. وحدها الصدفة جعلت من هذا المكان مقبرة جماعية. وحده نهر الـ "هافل" الذي يتقوس عند هذه البقعة، قرر أن يكون هذا المكان مَرسى لجثث من انتحروا فيه. تلقفت الغابة تلك، أجساد من رفضت الكنيسة دفنهم في مقابر المدينة، وهكذا أصبحت المستقر الأخير لمن أثقلت الحياة كاهلهم بالألم من دون أن يجدوا عزاءً في عِظة قسيس.

أتعلمين أن أحد أهم المخترعين في ألمانيا كان واحدًا من هؤلاء المنبوذين الذين رفضت الكنيسة دفنهم في مقابرها؟ رودولف ديزل، مخترع المحرك، تناول عشاءه على متن الباخرة "دريسدن" المتجهة إلى إنجلترا، شرب كأسين من البراندي الفاخر مع صديقه جورج كارليس، وظل يتسامر ويضحك معه حتى انتصف الليل. وفي الصباح لم يجده صديقه على طاولته المعتادة لتناول الإفطار. بحث عنه في كل مكان ولم يجد له أثرًا. وجد سريره مرتبًا وعليه ملابس نومه مطوية بعناية، وساعة جيبه معلقة على عمود بمواجهة السرير. بعد أسبوعين عثر بعض البحارة على جثته طافية في قناة المانش، لكنهم بعد أن جردوه من مقتنياته تركوا الجثة للبحر. لم يفهم أحد لماذا يختار مخترع عظيم مثله الموت غرقًا.

لم يكن هناك أي دليل على انتحاره إلا الدفتر الذي كان يدوّن فيه خواطره. كان يكتب كل يوم جملة أو أكثر، إلا في يوم وفاته، رسم صليبًا كبيرًا وسط الصفحة ولم يكتب شيئًا. لم يشفع له هذا الصليب عند

الكنيسة التي رفضت أن ينتصب حجرٌ يحمل اسمه في مقابر المدينة في مسقط رأسه "أوغسبرج". ربما ما أثار غيظهم، أنه لم يكن فقيرًا ولا يائسًا وأنه مات مخمورًا شبعانًا، كأنه قرر أن يرحل مكتفيًا وراضيًا. كان لديزل تلميذٌ ياباني يقال له "ياماوكا"، تعلم منه هندسة الميكانيكا وأسس مصانع يانمار ديزل في أوساكا، جاء ياماوكا إلى أوغسبرج في خمسينيات القرن الماضي وشيَّد لمعلِّمه نصبًا تذكاريًّا في إحدى حدائق المدينة. اليوم يعرف كل سكان المدينة ضريح ديزل الذي صار مزارًا سياحيًّا، بينما لا يعرف أحد اسم الأسقف الذي حرم ديزل من حجر يحمل اسمه في مقابر المؤمنين.

نحن –اليابانيين– ندين بالعرفان لمن يعلمنا كلمة واحدة يا كاترينا، وأنا تعلمت منك الكتاب كله. في مقابر المنتحرين في برلين، وقفنا طويلًا أمام قبر مائل، وجذع شجرة بلوط تمدد تحت قبر كاد أن يقتلعه من الأرض. قلتُ "نحن لا نستطيع مقاومة الموت ولا هزيمته، لكن يمكننا أن نتعلم من هذه الشجرة في مقابر المنتحرين كيف نحقق التوازن المستحيل: جذورها تتغذى على الموت لتحيا، وحياتها تقتلع القبر من جذوره!" ولكن ردَّك كان حاضرًا وصادمًا: "يستطيع جذع شجرة أن يقتلع قبرًا من مكانه، ولكن لا تستطيع كل أشجار الأرض أن توقف الموت. الموت هو الشيء الثابت الوحيد في الحياة". تناولتُ الكاميرا، وأردت أن ألتقط صورة لوجهك بعد أن ظهر عليه في هذه اللحظة تعبير غريب لم أره من قبل، فابتسمتِ ورفعتِ علامة النصر في وجهي.

صورتك، علامة انتصارك، أيقونة هزيمتي، لا تفارقني لحظة واحدة. الحزن لا يأتي بعد هزيمة. الحزن في حد ذاته هزيمة. لقد كفرتُ بالحزن والهزائم يا كاتارينا. كفرتُ بالانتظار. كفرت بالتمني. وما التمني إلا انتظار يعاني من خجلٍ شديد! قبل أن أتخلى عن آخر أمنية، كنت أتساءل ماذا سيبقى لي بعدها، ماذا سيبقى فيَّ؟

تواعدنا على اللقاء في هيروشيما، ولم تأتِي. أرسلتُ إليكِ بعشرات الرسائل ولم يأتِني رد منكِ. كدتُ أفقد عقلي، تساءلت ماذا جَنيتُ كي تعاقبيني بكل هذا الصمت! سافرتُ إلى ألمانيا، سألتُ عنك في الجامعة، أخبرتني إحدى طالباتك عن الإرهاق الشديد الذي بدا على ملامحك في آخر محاضرة لك عن تناسخ الأرواح عند الفلاسفة قبل شهور. تحدثتِ عن أفلاطون الذي كان يرى أن الجسد قبوٌ تُحبس فيه الروح، وأن الروح خالدة لأنها مخزن الحكمة والأفكار المتجددة. ثم استشهدتِ بمقولة إيمبيدوقليس: "في الموت تُبدّل

الحياة طبيعتها، ثم تكسو الروح بثياب جسد جديد". وذكرتِ أنه ألقى بنفسه في بركان "إيتنا" كي يثبت لطلابه أن روحه خالدة. توقفَتِ الطالبة عن الكلام وهي تجفف دموعها ثم قالت إنك أنهيت محاضرتك بفكرة غريبة عن التقمص: "كل إنسان له مركز تتراكم فيه أفكاره وخبراته ومشاعره. حين يموت الإنسان يتفكك هذا المركز، ويصير المرء حرًّا من أفكاره ودينه وهويته واسمه وكل تجاربه. الدماغ والروح ضدان لا يلتقيان، لأن كلًّا منهما يعيش في بُعد مختلف. فقط حين يموت الدماغ تخرج الروح من متاهة زجاجة كلاين وتجد بُعدها الرابع". وبعد دقائق من خروجك من قاعة المحاضرات سمع الطلاب طلقةً ناريةً رجَّت المبنى كله.

فعلتِها وحدك يا كاتارينا، وتركتني هنا أتغطى بأملٍ زائف. فجَّرتِ دماغك برصاصة رحيمة، رحلتِ عني ليظل رأسي ينهش فيَّ لعشرين سنة متواصلة. حررتِ روحك من الزجاجة، وبقيت أنا محبوسًا فيها. عشرون عاما، مرَّت على رحيلك، وأنا هنا لا أستطيع البكاء ولا النسيان. كان بإمكاني أن أفعل مثلك، أو أنزوي في أي ركن وأموت، مثلما يفعل أي حيوان أصيب بطلقة طائشة. ولكنني قررتُ أن أقهر الموت بالموت. معركة خاسرة لا شك، ولكن في هذه المعركة يتجلى الفرق بين الإنسان والحيوان. الحيوان يقاوم الموت بغريزته، والإنسان يجب أن يقاوم الموت لأنه من أفعال العنف، كما قالت سيمون دي بوفوار. قهرتُ الموت بأن صرت أُبَشِّر به وأمهد الطرق إليه.

حين كنتُ أستشهد بـ "سينيكا" الذي كان يبرر الانتحار، قلتِ لي "الرواقيون هم أنبياء الاستسلام. هم نعامات تدفن رؤوسها في الرمال كي تتجنب أهوال الحياة والموت. ثم إن سينيكا هو أسوأ مثال يُحتذى به في أي مسألة أخلاقية. هذا الانتهازي كان يعظ الناس ويدعوهم إلى التقشف والرضا بالقدر، مع أنه كان من أغنى الناس وأوسعهم نفوذًا في عصره، وكان مستشارا لـ "نيرو" أسوأ إمبراطور عرفه الرومان. وحين انتحر سينيكا لم يكن ذلك اختياره الحر، نيرو هو من أجبره على فعل ذلك. أجبره أن يجز جلده بالسكين بنفسه وأن يموت مختنقًا في الحمام، ليكون موته، مثل حياته، مثالًا للتباين الشاسع بين الفكرة المثالية والواقع".

حسنًا، أنا ألف وأدور منذ بداية هذه الرسالة، لأنني لا أريد مواجهتكِ بما أشعر. ولكن آن الأوان كي أخبرك بالحقيقة: أنا غاضبٌ يا كاتارينا، غاضبٌ منك. غاضبٌ لأنني لا أدري لماذا فعلتِ ذلك، وغاضبٌ لأنك تركتني وحدي، وغاضبٌ لأنني لم أكن كافيًا لك. غاضبٌ لأنك لم تتركي لي رسالة وداع، وكنت سأغضب لو تركتِ لي رسالة وداع.

كنت تخبريننى بكل شيء، فلماذا احتفظت بهذا السر لنفسك؟ متى قام هذا الحائط بيننا ومن الذي أقامه؟ موتك يا كاتارينا جعلني أشعر بصِغَري. كنت أظن أنني أستطيع أن أصل إلى أعماق وجدانك وأفهم ما يختلج بداخلك. كنت أظن أن لي تأثيرًا ما في حياتك، لكنني أفقت على حقيقة أنه كانت لك حياة ثانية لا أعرف عنها شيئًا، حياة كنتِ فيها وحيدة، غريبة، يائسة. عشتِ تلك الحياة خلف أسوارٍ عالية حرصًا على ألا يقفز إليها أحد. كانت هذه الحياة ملاذك الأخير حتى لا يمسك أحدٌ بذراعك حين تقررين القفز في البركان.

أتساءل كثيرًا عن آخر فكرة خطرت لك قبل أن تطلقي الرصاصة على رأسك! بماذا شعرتِ؟ هل كان لي أي وجود في وجدانك تلك اللحظة، أم غِبْتُ عنك مع غيري من الغائبين؟ هل كان هناك شيءٌ يمكنني أن أفعله وتخاذلتُ عنه؟ هل أنا أحد أسباب انتحارك؟ أحتقر نفسي كلما تملكتني الرغبة بأن أكون أنا سبب انتحارك. فإن كنتُ لم أستطع يومًا أن ألعب الدور الرئيسي في حياتك، فعلى الأقل أريد أن أكون المحرك الأول لموتك. هل رأيتِ نرجسية أعظم من تلك؟

ليتكِ أبقيتِ لي إيماني بالاستسلام الرواقي للموت أو بتناسخ الأرواح لأحلم بلقائك من جديد. ليتني أرحتك بيدي وأرحت نفسي بعدها كما فعل هاينريش فون كلايست مع حبيبته هِنريتي فوجل قبل مئتي عام. ولكن لا بأس، إن كان الموت حتميًّا، فلا داعي لأن نموت معا. إذا كانت الحياة قد بخلت علينا بالقرب، فلعل الموت يفتح لنا أفقًا جديدًا للقاء. إني قادمٌ يا كاتارينا، قادمٌ بثقبٍ في قلبي، فلا تصديني. موعدنا الغد، فكوني هناك، ولا تدعيني أنتظرك طويلًا هذه المرة.

أوراق الخريف لا ترتجف على أغصانها خوفاً من السقوط يا حبيبتي، ولكنْ احتفاءً بقرب تحررها من عقدتَي التعلق والانتظار. لقد عبرنا الخريف والشتاء في قفزة واحدة يا قِبلة الروح. تَحرَّرنا من الغصن بيقين ورقة تركت شجرتها وتوكلت على الرياح. ورقة هجرت غصنها فصارت غابة!

***

١٦

في التاسعة مساءً سمع العمال صوتًا قادمًا من مكبرات الصوت، يطلب منهم التوجه إلى صالة الطعام. ترك بعضهم عنابر النوم بخطًى متثاقلة ولحق بهم إتشيرو وناومي اللذان كانا لا يزالان يعملان لا لشيء إلا ليبقيا معًا. حين وصلوا القاعة فوجئ الجميع بمائدة طويلة رُصَّت فوقها أصنافٌ عديدة من المأكولات البحرية المشوية والمقلية إلى جانب اللحوم والخضروات والأرز والسوشي والمخللات والحلوى. زجاجات لا تُحصى من النبيذ الأبيض والأحمر والويسكي والبيرة وُضِعت على مائدة أخرى وبجوارها كؤوس لامعة ذات أعناق طويلة. افتتحت البوفيه هاناكو التي كانت ترتدي طاقية الشيف قائلة "ذوقوا طعامي يا رفاق. المدير يرسل لكم تحياته ويتمنى لكم شهية طيبة".

كانت تلك هي المفاجأة التي لم تفصح عنها هاناكو لناومي، بعد أن حذرها المدير من الإفصاح عن العشاء لأحد، كما أنها أرادت أن تفرح ناومي بتلك المفاجأة.

اصطف العمال في طابور حاملين صحونًا بيضاء واسعة أتوا بها من على طاولة منفردة ملتصقة بالجدار. وقفت هاناكو برفقة مجموعة من الطباخين بأغطية الرأس البيضاء، خلف قدور الطعام بابتسامة مهذبة.

"ملح.. الطعام فيه ملح!" صاح أحد العمال بعد أن تناول أول قضمة وهو في طريقه إلى أحد المقاعد. كان العمال لا يزالون متوجسين من هذا السخاء المفاجئ بعد أن حُرِموا حتى من رشة ملح طوال الشهور السابقة. وللوهلة الأولى ظن البعض أن الطعام اصطناعي كالذي يُعرَض في المطاعم كنموذج للأطباق الحقيقية، وعندما اقتربوا وبدأت الرائحة الزكية تفوح، أصابتهم الحيرة وراحوا ينتظرون أن يبين لهم أحدٌ السببَ وراء كل هذا الكرم.

ظل الإله يمشي مختالا بشرشف النايلون الطويل في الصالة ذهابًا وإيابًا، وصاح "هذا لحمي وهذا دمي" مشيرًا إلى طاولتي الطعام والخمر، ولم يتوقف إلى أن أجلسه أحد العمال راجيًا إياه أن يتركهم يستمتعون. وبينما انهمك بعضهم في تناول الطعام والشراب، تساءل آخرون عن سر هذه الوليمة. "هل سنموت جميعنا غدًا؟" تساءلت المرأة العجوز التي حكت قصتها بجملة واحدة، لكن أحدًا لم ينشغل بسؤالها، ربما لأنه السؤال الذي حاول الجميع تجنبه بأي ثمن حتى لو كان ذلك عن طريق الإفراط في شرب الخمر.

دوَّت عبر مكبرات الصوت خاتمة أوبرا "تريستان وأيزولده" لفاجنر، ووضع بعض العمال والعاملات أذرعهم حول أكتاف بعضهم وراحوا يتمايلون كأنهم كائنات بدائية لم تعرف الموسيقى من قبل. وبعد نحو ساعة، ارتفع صوت نحيب امرأة تبكي وتقول إنها تريد زوجها. "أين أنت يا أراتا؟ اشتقت إليك كثيرًا"، أصاب نواحها بعض العمال بحالة من الصدمة مثل فايروس سريع الانتشار واختلطت أصوات البكاء بصوت موسيقى فاغنر، فبدا المشهد برمتة مقطعًا من مسرحية أوبرالية. أصرَّ بعض العمال على الاستمتاع بالعشاء والتغاضي عما يحدث لزملائهم. وأفرط آخرون في تناول الطعام والشراب وقضوا بسبب ذلك بقية الليلة في المرحاض. لم تنطفئ الأضواء كالعادة عند منتصف الليل، ولم يطالب أحدٌ العمالَ بالعودة إلى مخادعهم، فظلوا يشربون ويتسامرون قبل أن يذهبوا سكارى إلى عنابر نومهم في ساعة متأخرة. أما إيتشرو وناومي، فاختارا النوم في غرفة مراسم الدفن على حصيرة التاتامي بعد أن تناولا عشاءهما هناك بعيدًا عن عيون الآخرين وشربا نخب حبهما.

***

استيقظ العمال في أَسِرَّتهم على صوت الصفارات في الساعة السادسة صباحًا. فوجئوا باختفاء الجدران التي كانت تقسم المصنع إلى عنابر، وإذا بالمصنع يتحول إلى صالة مساحتها شاسعة تغطيها قبة ضخمة. وسط ارتباك العمال الذين وقف بعضهم ينظر يُمنةً ويُسرة، خرج الصوت من مكبرات الصوت يأمرهم بالتوجه إلى منتصف الصالة "الرجاء التجمع تحت مركز القبة خلال خمس عشرة دقيقة". تكررت الجملة ثلاث مرات تفصل بينها عدة ثوان. وبما أن كل عنبر كان يضم خمسين عاملًا فقط، لم يكن أحد يعلم مجمل عدد عمال المصنع على وجه التحديد، وعندما أزيلت الجدران، اختلط الحابل بالنابل، وبدأ العمال يتوجهون بالمئات إلى مركز الصالة، صُدم الجميع بالحشود التي بدأت تتوافد تباعًا. تغاضى الكثير من العمال وسط هذا الحدث الفوضوي عن الالتزام بملابس العمل التي عليهم ارتداؤها حال خروجهم من السرير، والتزم آخرون بالقواعد فأخذوا أوفرولاتهم وارتدوها في المراحيض، المكان الوحيد الذي كان لا يزال يحتفظ بجدرانه.

اختلطت الوجوه وتفرَّقت المجموعات وحُشر الحشد أمام الشاشة العملاقة، يترقبون اللحظة التي سيظهر فيها وجه المدير. في تلك الأثناء، كان العمال يستكشفون بعضهم ويحدقون في الوجوه الجديدة على يمينهم ويسارهم، والكثير منهم لم يتوقف عن توجيه الأسئلة دون انقطاع لكل من وجدوه إلى جوارهم. أمسك إتشيرو بيد ناومي بقوة، وأمسكت هي بيد هاناكو التي توسلت إليها ألا تتركها وحيدة. وجد الثلاثة أنفسهم بين مجموعة من الغرباء وتساءلوا فيما بينهم عن بقية زملائهم في العنبر. وقف الجميع تحت مركز القبة، وحين ظهرت الخطوط الأولى على الشاشة التي تنذر ببداية العرض، ارتفعت الأصوات في الصالة، لكنها ما لبثت أن صمتت حين بدأت الشاشة بعرض مشاهد لقنابل تُرمى من طائرة حربية فوق غزة وجنوب لبنان واليمن وأفغانستان والعراق وشرق أوكرانيا. استمر المشهد لثلاثين ثانية قبل أن يبدأ مشهدٌ جديدٌ لأشلاء متناثرة على الأرض فوق أسطح المباني والسيارات. دفنت ناومي وجهها في صدر إتشيرو حين رأت يدًا مبتورةً وساعة اليد لا تزال مثبتة حول الرسغ. استمر المشهد حوالي دقيقة وسط الكثير من الهمهمات وعبارات التذمر. وما لبث المشهد أن انتهى، حلَّت محله لقطات لعدة أطفال يجلسون على ركام بيت وهم يبكون. قبضت هاناكو على الصليب الذي يتدلى فوق صدرها بيدها، وبقيت يدها الأخرى تمسك بيد ناومي، وراحت تتمتم بأدعية وتتعوذ بعلامة الصليب. ارتفع صوت الاحتجاجات في الصالة وسأل أحدهم عن جدوى ما يُعرض "لماذا علينا أن نرى هذه الأشياء؟"، تكرر السؤال من أكثر من شخص ومن أكثر من اتجاه.

ما هي إلا لحظات حتى استؤنف العرض وبدأت الشاشة بعرض عملية تصنيع لمنتج ما. عمال يجلسون فوق الأرض في العنابر ويوضبون كراتٍ معدنيةٍ في اسطوانات صغيرة، ثم يغلقون الاسطوانات من الخلف بغطاءٍ معدنيٍ له أذناب تشبه المروحة. بعض العمال يتعرفون على أنفسهم في الشاشة وتتصاعد الاحتجاجات مجددًا. لكنها لا تلبث أن تهدأ ليتابعوا الفيديو ويشاهدوا أن الصناديق التي كانوا يضعون فيها الاسطوانات ويكدسوها في العنابر، تُنقل بعد أن يغادر العمال إلى قاعة منفصلة في المصنع ليتولى روبوت تزويد الاسطوانات بأشباه الموصلات الالكترونية ثم يضعها خلف بعضها في صفوف متوازية داخل هيكل حديدي يشبه الصاروخ. يبدأ عدٌ تنازلي على الشاشة فيظهر رقم ٣ ثم ٢ ثم ١، وبعدها يفتح المشهد على طائرة حربية تقوم بإسقاط الصواريخ تلك من فتحة في أسفلها. ثم يعاد بث المشهد من أوله مرة أخرى.. قصف. أشلاء. مصابون...تصنيع...

ترتفع أصوات الاحتجاجات وتختلط بأصوات النشيج والبكاء كما تتردد الشتائم من أماكن مختلفة في التجمع. يظهر المدير أخيرًا على الشاشة جالسًا في مكتبه وسط حالة من الصمت والترقب. شيء من الهدوء غير المعهود كان يغلف ملامحه وكأنه منفصلٌ تمامًا عن حالة الهلع التي يعيشها العمال منذ بداية العرض المروع. وبعد صمت دام حوالي دقيقة بدت لا متناهية، تكلم:

"أستطيع أن أتخيل استغرابكم وتضارب الأسئلة داخل رؤوسكم بعد هذا الاستدعاء المفاجئ. ولكن يجب ألا يُنتزع السؤال من سياقه، ولا الجواب بطبيعة الحال. لذلك سوف أبدأ الحكاية من أولها".

أخذ رشفة من كوب الماء الذي أمامه وتابع:

"حين كنت طفلًا جاء بي أبي إلى هنا لأرى مصنعه الجديد. أول ما لفت انتباهي حين اقترب المركب من الجزيرة كانت سحابات من الدخان الأبيض تتصاعد من فوهة مدخنة المصنع. وكطفلٍ اعتاد أن يُسلي نفسه بالبحث في الغيوم عن أشكال يعرفها، رأيت غيمتين تلتحمان وتُشكِّلان طائرًا. وفي غضون ثوانٍ تبدد شكل الطائر، لكن بهجتي دامت. دخلتُ إلى المصنع وخرجتُ منه وأنا على يقين أنَّ مصنع أبي يقوم بتصنيع السحاب، وأن كل غيوم العالم تأتي من هنا. لن أنسى خيبتي يوم علمتُ أن مصنع أبي لا يُنتج السحاب. كبرتُ وظننتُ أنني صرتُ محصنًا ضد الأوهام، لكنني اكتشفت متأخرًا أن الوهم كان نواة كلِّ ثابتٍ في حياتي".

عادت أصوات العمال واستفساراتهم تتردد في أرجاء القاعة، لكنَّ المدير واصل حديثه غير مبال.

"في عام 1968 كنتُ طالبًا اشتراكيًّا في ألمانيا، أشارك في الاعتصامات وأثور على الدولة والرأسمالية وجيل الآباء الظالم. كنا نسهر أنا ورفاقي لنكتب اليافطات ونختار العبارات والرسومات بدقة. نِمْتُ في الخيم وألقيتُ الحجارة على رجال الشرطة. ناديتُ بوقف سباق التسلح بين الدول وبوقف الحرب في فيتنام. في ذلك الوقت كان أبي يجمع ثروته من سلسلة المصانع التي يملكها. كان أحد تلك المصانع، هو مصنع السحاب هذا. تلك المصانع –حسب علمي– كانت تنتج أشباه الموصلات والتي كان والدي يزود بها أهم شركات تصنيع السيارات في اليابان وألمانيا".

توقف عن الكلام وسحب منديلًا من جيبه وجفف به جبينه ثم أعاده إلى جيب جاكيته وأكمل:

"حين مات أبي، كنتُ أستاذًا للفلسفة في جامعة هيروشيما. آهٍ كم أحببت تلك المهنة! ولكن بعد أن تواصلت معي السلطات اليابانية وأخبرتني أنه عليَّ أن أقوم بإدارة مصانع أبي بنفسي لتجنب تسريب بعض الأسرار المتعلقة بالأمن القومي الياباني، وجدتُ نفسي مرغمًا على ترك ما أمضيت حياتي في إعداد نفسي لأجله. بعد أن تسلمتُ الإقرار ووقعت عليه، تسلمتُ إدارة المصانع لأكتشف أنها كانت مخصصة طوال تلك السنوات لتصنيع القنابل العنقودية. والدي، الذي تفحَّمت أمُّه تحت ركام هيروشيما بعد إلقاء القنبلة النووية على المدينة، كان يصنع قنابل الإبادة الجماعية لصالح الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل وروسيا. وبينما كنت أنا أتظاهر في برلين وباريس ضد الحرب في فيتنام، كانت مصانع أبي تزود الولايات المتحدة بملايين القنابل الفتاكة التي سقطت فوق الأبرياء في لاوس وفيتنام. هل تعلمون كم قنبلة عنقودية أسقطت الولايات المتحدة على لاوس وفيتنام في الفترة التي كنت أدرس فيها الفلسفة؟ ٢٧٠ مليون قنبلة. هل تعلمون كم طفلًا مات أو بُترت ساقه من جراء القنابل التي صنعها أبي؟".

أطلق ضحكة قوية طويلة شعرت سو يوون أنه بالغ فيها "ما هذه المهارات التمثيلية؟!" همست لكوباياشي الذي كان يقف بجانبها شابكًا ذراعيه تحت صدره دون أن يقول شيئًا.

"مَنْ كان يظن أن أبي، الرجل الوديع البشوش، والذي كان وزنه أقل من ستين كيلوغرامًا، قاتلٌ، ومجرم حرب؟ من كان ليصدق أن الاشتراكي الثائر الذي يُدرّس الفلسفة ويحب امرأةً أرق من جناح فراشة، يصبح بين ليلة وضحاها جزءًا من آلة القتل، ليس بقرار منه ولا بعد تفكير، بل بالوراثة! بالوراثة فقط.
ذلك الحدث جعلني أضع حياتي كلها قيد السؤال. كيف لشاب يأكل أطيب المأكولات ويشرب النبيذ الفاخر ويدفع تكاليف دراسته بأوراق نقدية ملوثة بالدم أن يكون بريئًا؟ كيف نأيتُ بنفسي عن تاريخ أبي ومصنعه ومصدر رزقه وذهبتُ أنشد عالمًا مثاليًّا على بعد آلاف الأميال؟ حين فاتني أن أشُكَّ في أبي، بدأت أشك في كل شيء وكل شخص وأولهم نفسي. شككت في دوافعي التي كنت أظنها نبيلة وفي منظومتي الأخلاقية كلها. بعد أن قاومت الواقع الذي أُقحِمتُ فيه لأيامٍ وأسابيع أتاني الفرج. وكما يشق ضوء البرق سماءً حالكة السواد، أدركتُ في لحظة واحدة أني قاتلٌ بالفطرة. ولكَم أراحني هذا الإدراك. ربما كان التمسك الشرس

بالمثالية مجرد محاولة بائسة مني لمقاومة الجينات القاتلة التي تسكنني. تذكرتُ حينها ذلك الصديق الذي عاش حياته نباتيا، وفي اليوم الذي قرر فيه أن يجرب أكل اللحوم، ذهب معي إلى أحد المطاعم وطلب طبق تاتاكي عجل. راقبته بذهول وهو يأكل قطع اللحم النيئة الحمراء بنَهَم، وتساءلت داخل رأسي كيف استطاع أن يخدع نفسه ويقنعها طوال تلك السنوات أنه نباتي. ثم تبادر إلى ذهني أن اعتناقه "النباتية" كان تمامًا مثل اعتناقي الاشتراكية، مجرد مصنع سحاب آخر نختبئ فيه من غياهب أنفسنا ومن واقع عالمنا الحزين!".

سحب المدير الفوطة مرة أخرى وربت بها على شفته العليا حيث تجمعت نقاط العرق وأعادها إلى جيبه. مع كل صمت كانت الهمهمات ترتفع في القاعة، وحين يعود للكلام يصمت الجميع ويصيخون السمع.
"حدثٌ آخَرُ رسَّخ إيماني بفعل القتل ذلك العام. انتحار حبيبتي كاتارينا. كنت لا أزال متمسكًا بمقاومة هذا المصير الدموي عندما علمتُ أن كاتارينا، التي أسميتُها زهرة المنحدر، قد استسلمت، مع أنها ظلت ولسنوات تحاول أن تعلمني كيف أظل متوازنًا فوق سطح هذا العالم الملتوي. فكان لا بد لي من الاستسلام أيضا. وأدركت أيضا أنه من واجبي أن أستجيب لهذه الحياة المتوحشة بالقدْر نفسه من التوحش".

"بووو هووو، بووو هووو كسرت قلبي" قال أحدهم ساخرًا واستدارت الرؤوس بحثًا عن مصدر الصوت، لكن المدير أكمل وكأن أحدًا لم يقل شيئا.

"في عام 2010 وقَّعت اليابان على اتفاقية حظر تصنيع واستخدام القنابل العنقودية. لم تستشرني الحكومة اليابانية في هذا الشأن، وأرسلت لي الوزارة المختصة إخطارًا يخبرني بالقرار دون تعليمات إضافية. حتى أنني لم أجد في الرسالة أمرًا مباشرًا بإيقاف التصنيع أو التصدير. وهكذا، وبعد أن جعلوا مني مجرمًا بين ليلة وضحاها، وبعد أن كيَّفت نفسي لتتأقلم مع الواقع وأقنعتها بأهمية هذا العمل الذي أوكل إليَّ، أرادوا بالعبثية نفسها أن يأخذوه مني. هل كانوا يتوقعون مني أن أعود لتدريس الفلسفة ومناقشة الخير والحق والجمال مع طلابي؟ تبًّا لهم"، قال وضرب بقبضته على الطاولة فتحرك الماء المتبقي داخل الكوب على يمينه.

"تلك كانت فرصتي الذهبية لأتمرد على السلطة بحق. فقررتُ مواصلة التصنيع مع إجراء تعديلات طفيفة على مكونات القنابل، فصرنا نُسمي ما نصنِّعه "ذخائر عنقودية" بدلًا من "قنابل عنقودية". كما قللنا عدد القنابل داخل الصاروخ من مئات القنابل إلى ٨٨ قنبلة فقط، لتقتل عددًا أقل من البشر. وفي الحقيقة لا يوجد فرق كبير، ولكن تلك كانت الخدعة نفسها التي استخدمتها الدول التي وقعت على اتفاقية منع تصنيع واستخدام القنابل العنقودية لمواصلة التصنيع والاستخدام. وهذا ما تفعله الدول الغربية دائمًا للتحايل على المعايير التي وضعتها بنفسها كي لا تضر باقتصادها. قررتُ زيادة الإنتاج، لأن الطلب على قنابلي زاد ولم يقل. قررتُ أيضًا أن كل قنبلة ينتجها هذا المصنع سيموت مقابلها شخص ياباني يلمس مكونات القنبلة بيديه ويسهم في صنعها".

على الرغم من رجفة ذراعه وسعلته التي ازدادت حدّتها واصل المدير خطابه بحسم:

"تماما كما استغلت الدولة صمتي ولا مبالاتي لتجعلني شريكًا في القتل، تصيَّدتُ بدوري طالبي الانتحار من أمثالكم وجعلتهم شركائي في الجريمة، وعزمتُ على أن أُظهِر لكل شخص يظن أن حياته ليس لها قيمة، أنه بإمكاني أنا أن أحدد له قيمتها. يوهِم المنتحرُ نفسه بأنه أفضل وأسمى أخلاقيًّا من الذي يقتل شخصًا آخر، لكنني أؤكد لكم أن المنتحر لا يختلف عن القاتل في شيء. المنتحر قنبلة عنقودية تنشطر إلى قنابل صغيرة تقتل وتشوه كل من عرفوه بعشوائية. كاتارينا حين ماتت قتلتني معها وقتلت كل طلابها الذين آمنوا بقدرة الفلسفة على فهم العالم. وزوجة إتشيرو، أحد العمال هنا، حين انتحرت مع ابنتيها القاصرتين، قتلت زوجها معها، وقتلت قائد القطار والمسافرين وكل من حضر مشهد انتحارها". وجَّه المدير إصبعه إلى الكاميرا أمامه وقال "الصمت جريمة، اللامبالاة تقتل، وكل من لا يكترثون للحياة شركاء في الإبادات الجماعية. كل من لا يعرفون شيئًا عن مصدر دخل آبائهم أو حكوماتهم قَتَلة. كلكم قَتَلة! بمساعدتي أو بدونها، فلا تلعبوا دور الضحية!".

ارتفع صوت الاحتجاجات والشتائم واختلط بأصوات النشيج والصراخ.

"أنتم يا أعزائي كنتم المُسهمين الأساسيين في صناعة تلك القنابل طوال فترة وجودكم هنا. وكل من مات هنا عرف هذه الحقيقة قبل موته مباشرة. كنتُ أشرح لهم كيف تعمل القنابل العنقودية قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، وكيف تنفجر وتتحول إلى مئات القنابل المنفصلة وتنتشر فوق سطح الأرض لتخترق كل شيء.

وأخبرتهم أن جزءًا كبيرًا من هذه القنابل لا ينفجر فور سقوطه، بل يتحول إلى ألغام تنتظر من يلمسها أو يدوس عليها بقدمه. وبهذا تكون القنابل العنقودية مسؤولة عن معظم حالات بتر الأطراف في الحروب، وغالبًا ما يكون ضحاياها من الأطفال. تخيلوا فظاعة أن تكون هذه آخر معلومة تتلقونها قبل الموت! ولكن لا تقلقوا، هذا لن يحدث لكم! ستكونون أول من يعيش بعد سماع هذه الحقائق. مسموحٌ لكم أن تخرجوا من هنا لتخبروا العالم بما اقترفته أيديكم. مسموحٌ لك يا سيد كوباياشي أن تكتب روايتك عن مصنع الانتحار والدمار الشامل حتى يخرج اليابانيون من سحابة ديمقراطيتهم الزائفة وليعرفوا أنهم كانوا شركاء في كل الجرائم التي ترتكبها حكومتهم!".

"لا، لن نخرج من هنا أحياءً" صرخ أحدهم "ماذا بشأن العقد الذي بيننا أيها العجوز القذر؟" سألت امرأة، وتكررت نفس الأسئلة ولكن بصيغة مختلفة وألفاظ مصحوبة بالشتائم.
ضرب المدير بكفه على المكتب ثلاث مرات، كي يصمتوا.

"لقد فسختم عقدكم مع الحياة من قبل. والآن ستفسخونه مع الموت، ومن يُرِد منكم أن يموت فليفعل هذا بنفسه. أما عن ساعات العمل التي قضيتموها هنا فسوف أدفع لكم مقابلها حسب قانون العمل الياباني. ولقد قمت بتحويل ما يكفي من التعويضات إلى حساب كل واحد منكم.

والآن سأطلب منكم جمع مقتنياتكم من الخزائن والتوجه إلى المدخل الرئيسي للقبة. الرجاء الاصطفاف ومغادرة القاعة من دون تدافع. نحن –اليابانيين– معروفون بأننا وديعون ومؤدبون ومنظمون. في نهاية الطريق عند الميناء ستجدون قوارب كبيرة جاهزة لنقلكم إلى المدن الساحلية، وسيصعد كلٌّ منكم إلى المركب الذي يوافق وجهته".

انطفأت الشاشة وسط حالة من الاستنكار والهلع. كان المدير في تلك الأثناء قد ترك مكتبه وتوجه هو أيضًا إلى المدخل حاملًا في يده جهاز التحكم عن بعد. وقف عند البوابة وتابع ازدياد عدد الذين يلتحقون بالصفوف، وقال "انتهت اللعبة" موجهًا جهاز التحكم نحو السقف فانشقت القبة من منتصفها وبدأ نصفاها بالتراجع إلى الأسفل كقوقعة تكشف مكنوناتها للنور، ليبدأ العمال الذين لم يروا الشمس منذ شهور بالصراخ وتغطية أعينهم بأذرعهم وأيديهم حماية لها من وهج الأشعة التي انقطعوا عنها طويلًا.

صاح الإله "ألم أقل لكم؟ إنها النهاية، إنه يوم القيامة!".

فُتح الباب، وخرج المدير الذي بدا أكبر سنًّا الآن ببدلته الرمادية المعهودة وقامته الرفيعة التي تميل إلى الانحناء. مشى متوجهًا إلى الميناء الخاص بالمصنع يتبعه العمال وكأنهم منومون مغناطيسيًّا. وقف على رصيف المرفأ وأشار بيده إلى المراكب.

هاناكو، التي كانت من القلائل الذين تحدثوا مع المدير سابقًا ورأوه بشحمه ولحمه، تركت يد ناومي وهرعت إليه "أين أذهب سيدي المدير؟" سألته بشيء من الرجاء وحسن الظن بالصداقة التي جمعتهما والأحاديث التي تبادلاها، لكن البرودة التي كانت تغلف وجهه جعلته غريبًا وأظهرت لها أن بينهما مسافة كبيرة لم تعرف هاناكو كيف تختصرها.

"إنها حياتك يا هاناكو سان، افعلي بها ما تريدين" قال وحوَّل نظره عنها باتجاه المراكب التي بدأت تمتلئ بالركاب. كانت الشمس قد حوَّلت سطح المياه إلى ما يشبه مرآة فضية لامعة تعمي الأبصار. حلق فوق هاناكو نورس وهي تمشي باتجاه أحد القوارب حيث تنتظرها ناومي برفقة إتشيرو. لكنها استدارت فجأة وهتفت "سيدي المدير، سيدي المدير" فنظر إليها المدير مستفسرًا. تقدمت منه بخطى ثابتة وقالت "أشكرك من كل قلبي على ما فعلت" ثم نزعت صليبها من عنقها ووضعته فوق راحتيها مبتسمة، اقتربت منه ببطء، وسِربٌ من النوارس يحلّق فوقهما، وبينما يراقب المدير الطيور بعينيه قبضت هاناكو على رأس الصليب بكلتا يديها، رفعت ذراعيها في الهواء وغرست طرف الصليب المدبب في عنقه. سقط المدير على الأرض في منتصف رصيف الميناء، بينما تلمع حبة الألماس في ضوء الشمس. تعالى صراخ العمال المغادرين الذين بدؤوا بالقفز فوق خط الدماء المتسرب من رقبته، ونزل آخرون من مراكبهم ليستفسروا عما حدث. انحنت هاناكو فوق رأس المدير ثم أخذت يده بيديها ونظرت مطولًا في عينيه. حدق المدير في عينيها وقال بصوت متهدج "أشكرك" قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.